الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الاخوة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الانسانية و الإجتماعية
قسم الفلسفة

الرقم التسلسلي :.....

رقم التسجيل :.....

موضوع البحث :

مفهوم الديمقراطية عند إيتيان باليبار

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة

إعـــداد الطـــالب :
حســـان بركان

تحت إشراف الأستاذ الدكتور :
* إسماعيل زروخي

أعضاء لجنة المناقشة :

- الرئيس
- المقرر
- الأعضاء
-
-
-

نوقشت يوم :

الموسم الجامعي

2007/2006

المقدمة

المقدمة :

التفكير السياسي، يشكل اليوم، محور الاهتمامات الرئيسة في الأبحاث الفلسفية السياسية المعاصرة ، و منه فهو أحد مواضيع البحث و الدراسة و حتى التنظير الفلسفي من قبل الفلاسفة و رجال السياسة. إن الفلسفة السياسية تبحث في المبادئ و الأسس و الغايات لكل نظام سياسي، قديما و حديثا، كون كل نظام سياسي له خلفية فلسفية و لذلك فالسياسة هي قاسم مشترك للدراسة بين الفلسفة السياسية و علوم أخرى كعلم السياسة و علم الاجتماع و علم الاقتصاد ... الخ . و من جملة ما تبحث فيه الفلسفة السياسية اليوم ، موضوعا نراه في غاية الأهمية و الخطورة على السواء، و هو موضوع الديمقراطية ، كونه يتعلق بالواقع السياسي للشعوب من جهة، و من جهة أخرى ،الديمقراطية سلاح ذا حدين، يمكن أن تستخدم كمجال للحرية و المساواة و الحقوق المدنية عند البعض ، لكنها عند البعض الآخر ، و في تعاملها مع الشعوب الفقيرة المقهورة، تصبح الديمقراطية أداة من حديد تستعمل للقهر و التأديب و العقاب .

و من خلال ذلك ، هناك حدود تتوقف عندها الديمقراطية اليوم و في الوقت نفسه تشكل تلك الحدود عتبة حيث يمكن لها أن تنطلق و تنتشر على نطاق واسع!ومن خلال هذا التناقض، اهتم الفيلسوف الفرنسي المعاصر إيتيان باليبار * Etienne Balibar ، بهذا الموضوع و خصص له كتابا كاملا بعنوان : حدود الديمقراطية – سنة 1992 – ذلك لأن حدود الديمقراطية ، مفهوم جديد في الفلسفة السياسية المعاصرة و يحتوي على جملة إشكالات فلسفية هامة و خطيرة حيث يتعلق بحقوق الإنسان المدني المعاصر و وضعيته السياسية في علاقاتها بانتماءاته العرقية و الإيديولوجية و الثقافية الانثربولوجية و الدينية و حتى الوطنية هذا من جهة ، و من جهة أخرى ، فإنه يتعلق بالجانب الأمني على نطاق محلي و على نطاق عالمي، إذ ظهرت حروب دموية مدمرة و انقلابات سياسية عنيفة و ثورات شعبية كاسحة في مناطق مختلفة من العالم و على الخصوص في أوروبا – و هذا ما يهمنا أكثر – مما أدى بدوره إلى بروز ظواهر سوسيوسياسية خطيرة كالتمييز العنصري الجديد و كل ما يصحبه من عزل و طرد و عنف

*- إيتيان باليبار : ولد سنة 1942، فيلسوف فرنسي معاصر ، شارك مع آلتوسير لويس في تحرير كتاب : قراءة رأس المال سنة 1965 الذي أحدث تحولا في تأويل الماركسية من وجهة نظر بنيوية كما شارك في تحرير المعجم النقدي للماركسية باشراف جورج لابيكا Labica.G سنة 1982 . هو أحد تلامذه لويس آلتوسير و يعمل حاليا كاستاذ مشرف على دراسات عالية بجامعة باريس العاشرة ، كما ينشط عبر أنحاء العالم في ملتقيات فلسفية عالمية، من أهم مؤلفاته : حول ديكتاتورية البروليتاريا سنة 1976، و بالاشتراك مع لابيكا و لوفيفر و ج بوا : لنفتح النافذة أيها الرفاق سنة 1979 ، حدود الديمقراطية – 1992 - ... الخ

و إجرام سواء كان ذلك على مستوى محلي – دولة معينة – أو على مستوى عالمي، بالإضافة إلى بروز ظاهرة العولمة عموما و العولمة الاقتصادية خصوصا و ما تؤدي إليه من تغيرات سياسية، اجتماعية ، ثقافية و أمنية قد تضرب و بقوة حقوق الإنسان و مصيره و تسحقها سحقا لحساب" بارونات"الاقتصادفي العالم، فتصبح،حينئذ، الديمقراطية سلاحا ذوحدين ،حيث هي مبدأ يجسد حقوق الانسان و حريته و يحافظ على كرامته و هذا الأمر يخص " بعض المواطنين "و على مستوى معين من الإطار السياسي ، الاجتماعي ، الاقتصادي و الثقافي ، بينما بالنسبة للبعض الآخر ، و هم " الرعايا " أو اللامواطنين بتعبير باليبار و هم المحرومون من كل شيء ، تصبح الديمقراطية أداة عقاب و قمع و تأديب و حتى التصفية السياسية و الجسدية! و كل هذه الحرب ، تقع في صمت و على مسارح الديمقراطية في العالم ، و من هنا وجب طرح هذه الإشكالية : كيف تشتغل الديمقراطية اليوم؟ و ما حدودها ؟ و إلى أي مدى تكون الديمقراطية أداة سياسية تحافظ على حقوق و كرامة الإنسان المدني المعاصر؟

هذه الإشكالية ، سأعمد على تحليلها بإتباع منهج تحليلي نقدي لمضامين فكر و آراء إيتيان باليبار الذي اتبع منهجا جدليا إذ ركز كثيرا على المفاهيم الفلسفية المتضادة و التي هي في علاقة صراع ، ليخرج بتركيب جديد ، مما جعلني أميل في بعض المواضيع إلى استخدام المنهج الجدلي كذلك .

لكل ذلك، هناك جملة دوافع و أسباب جعلتني أختار هذا البحث بالذات منها دوافع ذاتية حيث أن موضوع الديمقراطية بمنظور معاصر كان هاجسي منذ مدة زمنية معينة لطالما جعلني أتساءل حوله و حول آفاقه في المجتمع المدني المعاصر من حيث كونه وسيلة للممارسة السياسية و غاية إنسانية نبيلة كما أنه يمكنني من اكتشاف الذات بقدر ما اكتشف الواقع السياسي .

و منها دوافع موضوعية ، فالديمقراطية ، أحد المبادئ الهامة في الميدان السياسي ، سواء من جانبها النظري الفلسفي أو من جانبها السياسي الواقعي كما أن معظم المجتمعات المدنية المعاصرة تنشد السبيل الديمقراطي كمشروع لمجتمع سياسي مستقبلي له من الشرعية السياسية الواقعية ما يجعله هاجسا للشعوب و خاصة المقهورة منها .

و لذلك فمن جملة الأهداف المرجوة من هذا البحث هو تسليط الضوء على إشكالية الديمقراطية ، بين المبدأ و الممارسة ، و تبيان كيف أن الديمقراطية اليوم أصبحت أداة عند الأقوياء في العالم يستعملونها لمصالحهم الاقتصادية ، السياسية و الإستراتيجية بالإضافة إلى كونها التبرير السياسي لهذه الدول العظمى لتأديب و معاقبة الدول الصغيرة التي تريد أن تلتحق بصف الأقوياء.

بالإضافة إلى توضيح ذلك التناقض الصارخ الموجود اليوم في المجتمعات الأوروبية و التي تتغنى بالديمقراطية و المحافظة على حقوق الإنسان و احترام التميز الثقافي للأقليات الاثنية و لكنها من جهة أخرى تستعمل التمييز العنصري الجديد، المقنن و كذلك القمع القانوني ضد هؤلاء " الرعايا " .

و لذلك، فالهدف النهائي من هذا البحث هو توضيح السبيل الديمقراطي السليم للشعوب الفتية في التجربة الديمقراطية حتى لا تقع في التناقض السياسي و العنف القانوني الذي وقعت فيه الدول العظمى.

كما أن المؤلف يتعرض إلى موضوع العلاقة بين الجزائر و فرنسا و هي من صميم البحوث الأكاديمية حاليا ، فهو يتخذ مواقف جادة من الإشكالية التاريخية القائمة بين البلدين و يقوم بكسر الطابوهات السياسية التي طالما عرقلت الحوار السياسي بين القيادة السياسية للبلدين مما جعلنا نعود إليه لتوضيح كل ما تعلق بكياننا الجزائري .

و قد اعتمدت في بحثي على مجموعة من مصادر رئيسية لإيتيان باليبار و على الخصوص الحديثة منها مثل : كتاب "حدود الديمقراطية" ، " خشية الجماعات" ، " نحن مواطنو أوروبا"، " أوروبا ، أمريكا ، الحرب " ، " الحق في المجتمع السياسي" و " خمس دروس في المادية التاريخية" ... دون إهمال بعض المقالات و الدراسات المنشورة بالمجلات و كذا الحوارات التي أجراها باليبار مؤخرا مع بعض النقاد و المفكرين الأوروبيين مثل الحوار الذي أجراه معه المفكر جان فرانسوا بايار Jean francois Bayard و صدر بمجلة النقد العالمي شهر جانفي 2003 بالإضافة إلى استعانتي بمجلات أدبية و جريدة العالم الدبلوماسي.

كما استندت في بحثي على مجموعة مراجع باللغة العربية منها كتب مترجمة للفيلسوف لـــويس آلتوسير منها قراءة رأس المال سنة 1968 بالإضافة إلى كتب عن الماركسية و كتب في السياسة و الفكر عموما التي لها علاقة بالموضوع.و رجعت أيضا إلى مجموعة من المراجع باللغة الفرنسية و هي كثيرة العدد إذا ما قارناها بكتب اللغة العربية نظرا لطبيعة البحـــث كـــبعض مؤلفـــات الفيلسوف لويس آلتوسير و كذلك الخطابات الشهيرة للفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فخته Johann Gottlieb Fichte و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية . كما اســـتعنت بمجموعـــة قواميس و مناجد في اللغة العربية و الفرنسية و الانجليزية و الألمانية لضـــرورة الترجمـــة الـــتي اعتمدتها كترجمة فلسفية أكاديمية للمعاني العميقة التي يتوخاها الفيلسوف مبتعدا قدر الإمكـــان عن الترجمة الحرفية البسيطة التي تخل بالمعاني الفلسفية المقصودة.

و على ضوء الإشكالية المطروحة و ما اعتمدته من مصادر و مراجع ، اتبعـــت خطـــة تتكون من مقدمة و ثلاث فصول و خاتمة مع العلم أن كل فصل يتضمن مبحثين و كل مبحث يتضمن مطلبين.

المقدمة : قدمت فيها للموضوع بطرح الإشكالية بدقة و التي تنسجم مع التحليل و الخاتمة.

الفصل الأول : عالجت فيه الأصول الفلسفية الماركسية لايتيان باليبار و ذلك من خلال قراءاته الجديدة لبعض مؤلفات ماركس و انجلز كبيان الحزب الشيوعي و منه حللت نظرة الماركســـية من خلال وجهة نظر باليبار حول إشكالات جزئية كجدلية العلاقة بين الدولة و اللادولة من خلال العلاقة بين سلطة الدولة و جهاز الدولة و تدخل المنظمات الجمعوية العمالية في حقـــل السياسة ثم جدلية ممارسة و نهاية السياسة و طرح مسألة زوال الدولة .

ثم عرجت على الجانب التاريخي الواقعي للحركة الشيوعية العالمية و ما خلفـــه زوال المعســـكر الشيوعي من تغيرات سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، عسكرية و فكريـــة في العـــالم عمومـــا و أوروبا خصوصا و كذلك آثار زوال الشيوعية " المحققة " و الإشكالات التي تتركها ، فمن نهاية السياسة إلى نهاية التاريخ . و كل هذا أردت من خلاله إبراز دور البنية الاقتصادية فـــي

المجال السياسي و بالتحديد في علاقتها بالممارسة الديمقراطية لأن هذا العنصر يرتبط بالفصول الأخرى .

الفصل الثاني : انتقلت فيه إلى مجال الديمقراطية و حدودها عند باليبار من خلال ضبط إشكالية و تحليل مفهوم الحدود و مظاهرها كونها ارتبطت بمشكلة الهوية و بقوانينها سواء كانت وطنية أو غير وطنية ثم انتقلت إلى تعيين وظيفة الحدود الجيوسياسية ثم السياسية و علاقة ذلك بحقوق الإنسان و منه بروز مشكلة العنصرية في أوروبا و التي أصبحت مبنية على أسس أنثربولوجية ثقافية و ظهور ما سماه باليبار الآبارتايد الزاحف أو الابارتايد العالمي و منه ركزتُ على انتقال وظيفة الحدود من الحافة إلى وسط الفضاء السياسي .

بعد ذلك انتقلتُ في المبحث الثاني ، إلى تحليل اقتراح باليبارحول الحدود الداخلية للديمقراطية حيث اتخذ خطابات فخته يوهان غوتليب ، الشهيرة للأمة الألمانية (1807 – 1808) نموذجا،فما تحمله هذه الخطابات من معاني فلسفية سياسية تؤكد أن الحدود الداخلية هي من أقوى الحدود التي تقف عندها الديمقراطية كونها ترتبط بالكائن الإنسان ولذلك ركزت و بإسهاب على هذا الموضوع.

بعدها عالجتُ العلاقة الجدلية الموجودة بين الحدود الداخلية و الكوسموسياسي و ما تطرحه هذه العلاقة من إشكالات إجرائية للديمقراطية في الواقع السياسي للشعوب.

الفصل الثالث : عالجتُ فيه إشكالية الحدود غير المفكرة للديمقراطية حيث أن المجتمع الأوروبي المعاصر ككل و الذي ينادي بالمساواة و الحرية يشكل في حد ذاته حدودا للديمقراطية و ذلك من خلال ما سمي بالاتحاد الأوروبي و منه حللتُ إشكالية العلاقة بين الاغتراب و الديمقراطية اذ تعرضت إلى وضعية الإنسان المغترب سياسيا في المجتمع السياسي الأوروبي حيث أصبح هذا الشخص "رعية " أو"لا مواطن " محروم من الحقوق المدنية ، ثم انتقلت إلى تحليل العلاقة الموجودة بين الديمقراطية و حرب الحدود التي تقع في صمت دولي رهيب على حدود فضاء شانغن و منه طرح اقتراح باليبار حول دمقرطة منظومة الحدود .

كما انتقلتُ في المبحث الثاني، إلى تحليل جدلية العلاقة الموجودة بين السياسة و العولمة الاقتصادية من خلال جدلية العلاقة بين السياسة و الاقتصاد و ما تخلفه من آثار رهيبة و مخيفة على الممارسة الديمقراطية مثل الرعب الاقتصادي الذي يشبه " التسونامي " الذي لا يترك شيئا واقفا أمامه ، حيث يختل التوازن العالمي سياسيا ، اقتصاديا ، اجتماعيا و أمنيا في سبيل تحقيق ربح لأقلية " بارونات الاقتصاد في العالم " . بعدها انتقلتُ إلى العولمة و حدود الديمقراطية لأن ما يصدق على العام يصدق على الخاص فتصبح وظيفة الحدود وظيفة طبقية حيث تقسم الغنى و الفقر في مناطق وطنية معينة و هي مناطق مميزة إذ لا يسمح للفقراء بدخولها لأنهم يخضعون لنظام تصفية صارم و منه ظهور الابارتايد العالمي الجديد الذي يطعن في مصداقية الديمقراطية المزعومة.

الخاتمة : ضمت حصيلة النتائج ، التي توصلتُ إليها من خلال هذا البحث منها على الخصوص دمقرطة منظومة الحدود و إحداث اللااستعمار المحلي و تحقيق معادلة المساواة – الحرية من خلال القضاء على العنصرية الجديدة .

و لقد قدمت ملحقا بعد الخاتمة ترجمت فيه بعض المفاهيم و المصطلحات التي أراها ضرورية لكي يتعرف عليها القارئ الكريم بلغتها الأصل حتى يكون معناها قريبا منه و ذلك بغية الإفلات من خداع الترجمة.

و للتذكير، فلقد واجهتني صعوبات عند انجاز هذا البحث منها ما تعلق بالحصول على المصادر الرئيسة كونها مفقودة تماما كما أنها خطت باللغة الفرنسية مما أجبرني إلى اعتماد قراءات عدة و اعتماد الترجمة بالمعنى الفلسفي الأكاديمي بعيدا عن الترجمة الحرفية و البسيطة التي تضيع المعاني المقصودة. بالإضافة إلى كل ذلك ، ضيق الوقت و انعدام دراسات عربية معاصرة حول فكر الفيلسوف إيتيان باليبار، كونه حسب علمي ، يدرس و لأول مرة في الجزائر ، لكن ما قدمه لي الأستاذ المشرف من مساعدات و توجيهات قد ذللت هذه الصعوبات و تم بعون الله إنجاز هذا البحث الأكاديمي المتواضع .

الفصل الأول

الماركسية و الممارسة السياسية.

المبحث الأول : الجدلية السياسية عبد باليبار .

المطلب الأول : جدلية العلاقة بين الدولة و اللادولة

المطلب الثاني : جدلية ممارسة و نهاية السياسة .

المبحث الثاني : أوربا و الديمقراطية في مرحلة ما بعد الشيوعية .

المطلب الأول : تاريخية اندثار الشيوعية في أوربا .

المطلب الثاني : إشكالية زوال الشيوعية .

الماركسية و الممارسة السياسية

كون الفيلسوف إيتيان باليبار ذو نزعة ماركسية إذ تتلمذ على يد الفيلسوف الفرنسي لويس آلتوسير ، و اشتركا معا في إنتاج بعض الأعمال الفلسفية ، نذكر منها كتاب : قراءة رأس المال سنة 1968 ، جعله يطرح مسألة إعادة قراءة بعض مؤلفات كارل ماركس و إنجلز فريديرك منها على الخصوص : بيان الحزب الشيوعي و كتاب ضد – دهرنج ، ذلك لأنه و كما يعتقد يمكن استخلاص نتائج جديدة على ضوء ما يحدث اليوم في العالم على المستويين السياسي و الاقتصادي .

فعند ، إعادة قراءة بيان الحزب الشيوعي ، يرى باليبار أنه يمكن استبعاد النظرة التي تجعل من الدولة منظمة للطبقة المهيمنة و التي تنتج أشكالا من الممارسات السياسية ، و لكن يجب أن تلجأ إلى إنتاج ما يدمر جهاز الدولة الموجود و تعويضه "بمجموع جهاز " آخر و الذي هو أكثر من مجرد جهاز و من هنا تتضح فعالية الشروط المادية في اشتغال الدولة و في قوتها كذلك و هذا ما سأعمل على توضيحه لاحقا .

و إذا استقرأنا ما حدث في العالم الأوروبي بداية من نهاية الثمانينات ، في القرن العشرين، منذ سقوط حائط برلين سنة 1989 ، ثم بداية اندثار المعسكر الشيوعي " الحقيقي " أو ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي و أوربا الشرقية ، فإنه يمكننا فهم من جديد طرح فكرة : زوال الشيوعية ؟بمعنى هل الشيوعية زالت بزوال المعسكر الشيوعي أم لا ؟ و ما هي مكانة الديمقراطية الاجتماعية اليوم ؟ لكن و على الرغم من كل ذلك ، تبقى البنية الاقتصادية اليوم تشكل أساس كل تحول جديد و خاصة ما يشهده العالم من تقلبات هامة و خطيرة في آن واحد تحت رحمة نظام العولمة الجديد و على الخصوص الحرب الاقتصادية العالمية التي تقع اليوم في صمت رهيب أو ما يسميه البعض بالرعب الاقتصادي .

المبحث الأول : الجدلية السياسية عند إيتيان باليبار

ذكرنا في المقدمة أن باليبار اعتمد منهجا جدليا حيث يلجأ إلى مقابلة مفاهيم سياسية متضادة للخروج بقضية جديدة تشكل في حد ذاتها إشكالية مثل مقابلة الدولة باللادولة و كذلك ممارسة السياسة بنهايتها للوصول إلى مرحلة زوال الدولة و نهاية التاريخ في مرحلة ما بعد الشيوعية .

المطلب الأول : جدلية العلاقة بين الدولة و اللادولة

يرى باليبار أنه لتحديد مفهوم الدولة يجب التمييز بين سلطة الدولة و بين جهاز الدولة حيث في المرحلة التاريخية التي تسيطر فيها سلطة الدولة على جهاز الدولة تظهر الديكتاتورية و منه يصبح جهاز الدولة لا يشتغل فتصبح الدولة هي اللادولة ، يقول باليبار : " و لكن إذا كان " اللادولة " إلا مستوى الصفر الذي ينشده إنحطاط الدولة ، و بطريقة أخرى ، إذا كان لدينا مفهوما واحدا عن الدولة في حد ذاتها ، فإن معادلة ماركس تبقى غير مفكرة ، فهي لعبة كلمات أو اللامعنى ، و هذه إشكالية " منطقية "، بصفة دقيقة ، حيث أن التمييز الجديد المنجز من طرف ماركس يؤدي إلى الخروج منها"[1] . و من خلال هذا النص ، نستنتج أن باليبار يدعو إلى إعادة النظر في معادلة ماركس حول مفهومه للدولة ، و هي اللادولة و التي تبدو في نظر الإيديولوجية السياسية البورجوازية أنها فكرة عبثية لا طائل من ورائها ، لا ترى حلا إلا في " حلول وسطية " أي حالة وسيطة بين الدولة و اللادولة و هذا بالنسبة لباليبار يعبر عن انحطاط مستمر للدولة .

و يتساءل باليبار عن دور المجتمع السياسي من الواقع الوحيد لوجوده و لفعله و الذي سجله كارل ماركس في الحروب الأهلية ؟! و منه يرى باليبار أنه إذا كانت هناك دولة أو بمعنى آخر " اللادولة " فإن ذلك لا يعبر بالضرورة عن انطفاء و زوال سلطة البروليتاريا و لكن على العكس من ذلك فهي تتقوى و لا تتوقف أبدا طوال الفترة التاريخية لديكتاتورية البروليتاريا [2] . و لكن كيف تتحقق ديكتاتورية البروليتاريا ؟

---

(1) - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, ed . Maspero , Paris 1974 , P 95 .
2 - Ibid , P 95.

يجيب باليبار عن ذلك بقوله : << تتحقق ديكتاتورية البروليتاريا من خلال ديمقراطية بروليتارية ، تكون منتشرة بصفة واسعة أكثر من كل ديمقراطية بورجوازية ، و هي لا تعمل على تعميم مبدأ الانتخاب و " التمثيل " الشعبي و لكنها تصنع ممثلين ينتخبون خدام للعمال و هم تحت المراقبة الدائمة لمنظمات جمعوية للشعب الثوري >> [1].

يتبين أن ديكتاتورية البروليتاريا تشكل الوسيلة الفعالة و الوحيدة لكل ديمقراطية و التي يقوم بتكريسها على أرض الواقع منظمات جمعوية تتكون من نوادي سياسية يشكلها عمال مسلحون و حتى أبنائهم و زوجاتهم و هم قوة المجتمع .إن الشرط المادي هو شرط أساسي لتقوية جهاز الدولة و لكن اللجوء إلى تقوية سلطة الدولة على حساب جهازها سيؤدي حتما إلى زوالها و منه يصل باليبار إلى هذه المعادلة : تقوية سلطة الدولة له شرط هو إضعاف جهاز الدولة أو مقاومة ضد وجود جهاز الدولة [2] .و إذا عدنا إلى الشروط المادية و دورها في تقوية جهاز الدولة و اشتغاله لفائدة الطبقة العاملة، تبين أن الاستحالة المادية تؤدي إلى عرقلة جهاز الدولة و وجوده ، يقول باليبار :" ما ينجلي إذن ، نستطيع أن نعلنه بمعنى عام : الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة، و التي لأول مرة ، في التاريخ و بمكانها في الإنتاج ، بإمكانها أن تأخذ زمام الحكم بنفسها حيث لا تستطيع ممارسة الحكم (سلطة مطلقة أو ديكتاتورية) ، بنفس الوسائل و في نفس الأشكال " [3] .

من خلال هذا ، نلمس طرح باليبار للشروط المادية في الممارسة السياسية حيث أن الاستحالة المقصودة في هذا النص ليست بالمعنى الأخلاقي و لكنها استحالة مادية، فإذا كان جهاز الدولة لا يشتغل لحساب الطبقة العاملة فإنه لا يمكن للبروليتاريا أن تكسب و تحافظ و تستعمل السلطة السياسية إلا باستعمال وسيلة كانت مستخدمة سابقا عند الطبقات المسيطرة و هي العنف الثوري.

---

[1] - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, , P 40 .
[2] - Ibid , P95.
[3] - Ibid , P95..

و نجد في البيان الشيوعي سنة 1848 ، الذي انتقد فيه كارل ماركس الاشتراكية الزائفة (الطوباوية) و حلل فيه النظام الرأسمالي و قدم الاشتراكية الحقيقية بدعوة عمال العالم إلى الاتحاد و منه فالمتوازية التي يتحدث عنها باليبار بين الثورة البورجوازية و الثورة البروليتارية و كذلك تطور البورجوازية داخل المجتمع الإقطاعي و تطور البروليتاريا داخل المجتمع البورجوازي ، كل ذلك في الحقيقة يدخل في حركية تاريخية تنتهي بالثورة و قيام المجتمع الشيوعي كما يقول محمد علي محمد " ... و لكن عملية الإنتاج الاقتصادي تزيد بالضرورة من أعداد البروليتاريا ، إذا ما قورنوا بعدد البورجوازية، فيتمهد الطريق لظهور النظام البروليتاري حيث ينتهي الصراع و يبدأ وقت الثورة " [1].و يطرح باليبار شروط وجود الدولة على أرض الواقع و ذلك من خلال التحول الثوري، يقول في هذا الصدد :" هذا التحول الثوري له شرط مزدوج و الذي يسمح بفهم الدور الذي يمكن أن تلعبه مباشرة في تحول علاقات الإنتاج و الذي يؤدي إلى زوال استغلال العمل "[2] .من خلال ما سبق نستنتج أن هناك شرطان لوجود الدولة عند باليبار :

1- الشرط الأول :

وجود إلى جانب جهاز الدولة ، لمنظمات سياسية من نوع جديد و هي منظمات سياسية جمعوية *.بمعنى منظمات سياسية للعمال ، يقول باليبار :

"و لكن حذار ! ما يهم ماركس ، ليست هي النظرية السياسية ،و التي تستلهم منها هذه المنظمات (نموذج 89 و 93 ، ذو الطابع الفرنسي بصفة خاصة و الموزعة من قريب إلى قريب " مجموعات باريسية للمجتمع من خلال الطقوس العمالية) لأنه كانت هناك نقطة ضعفهم ، و في جانب ما، هي مسؤولة عن هزائم المجتمع و عن الخلط الرهيب الداخلي و الذي ساعد بصفة موضوعية القمع العسكري للبورجوازية الفرنسية ، ما يهم في نظر ماركس هو صفة التنظيم السياسي لمجموعة المنتخبين ، هذا لماذا المجتمع طرح مباشرة و بصفة مستعجلة مسالة حزب الطبقة العاملة كذلك " [3].

---

[1] . محمد علي محمد ، المفكرون الاجتماعيون ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1982 ، ص 53 .

[2] - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, ed . Maspero, Paris , 1974 , P 96 .

[3] - Ibid , P 96 .

- منظمات سياسية جمعوية : هي منظمات عمالية لها نشاط سياسي و اقتصادي و مهمتها مراقبة جهاز الدولة .

و من هذا النص ، يبدو واضحا دور التنظيم السياسي الجديد الذي اقترحه كارل ماركس و المتمثل في المهمة التاريخية للتنظيمات الجمعوية و بروز حزب الطبقة العمالية التي تمثل الأغلبية داخل المجتمع السياسي و دورها هو هدم آلية التمثيل المعروف سابقا ، عن الشعب و ذلك بطرد ممثلي الطبقة المهيمنة المستغلة و استبدالهم بممثلين عن " المجتمع " في جهاز الدولة.

2- الشرط الثاني :

و هو شرط مهم جدا ، حسب باليبار ، حيث يجب دخول الممارسة السياسية في إطار " العمل و الإنتاج " أو بمعنى آخر نهاية التفرقة المطلقة و المتطورة للرأسمالية في حد ذاتها فيما بين " السياسي " و " الاقتصادي " و ذلك ليس بمعنى " السياسة الاقتصادية " أو تحويل السلطة السياسية في يد العمال و لكن بمعنى أنه يجب أن يمارسها العمال بوصفهم عمالا ، دون توقف ، فهو أخيرا التحول في إطار الإنتاج لمرحلة كاملة في الممارسة السياسية و منه نستطيع القول ، أن العمل و كذا الظروف الاجتماعية لا تصبح فحسب ممارسة " اجتماعيا ضرورية " و " إجتماعيا منظمة " و لكنها ممارسة سياسية .يقول محمد علي محمد :" فكأن ديكتاتورية البروليتاريا إذن تمهد السبيل لقيام المجتمع الجديد الذي ينقطع فيه اعتماد الفرد على تقسيم العمل ، و ينتهي التنافر بين العمل اليدوي و العمل العقلي ، و تزدهر الحياة الاقتصادية ، و يقوم كل ذلك على أساس مبدأ إنهاء الصراع بين الطبقات " [1] .

و يعود ايتيان باليبار إلى بيان الحزب الشيوعي لكي يستنبط نتائج لهذه التشكيلات الجديدة، حيث يرى أنه بقراءة جديدة للبيان الشيوعي لا يمكن استبعاد تأويل تعريف الدولة على أنها " منظمة للطبقة المهيمنة " على الأقل إذا قمنا بتجريد تلك الصعوبات التي تحملها

[1] - محمد علي محمد ، المفكرون الاجتماعيون ، ص 55 .

الشروحات التي أعطاها كارل ماركس حيث يقول باليبار :" هذا التأويل يحيل إلى تمثيل ، إلى متوازية فيما بين الثورة البورجوازية داخل المجتمع الإقطاعي و كذا تطور البروليتاريا داخل المجتمع البورجوازي " [1] .من هنا، تظهر تلك المتوازية التاريخية و التي يريد باليبار الإصرار عليها دائما فيما بين الثورة البورجوازية و الثورة البروليتارية و كذلك التطور التاريخي للبورجوازية و وسائله داخل المجتمع الإقطاعي و التطور التاريخي للبروليتاريا و وسائله داخل المجتمع البورجوازي و هذا التمثيل عند باليبار له سيرورة تاريخية تقوم على صراع الأضداد حيث أن السلاح الذي استعملته البورجوازية لمحاربة الإقطاع في فترة تاريخية معينة ، سيتحول ضد هذه البورجوازية نفسها في فترة تاريخية أخرى يقول باليبار :" و على الخصوص، في حين أن البورجوازية كانت تكتسح السلطة السياسية تاريخيا و ذلك بإرغام الإقطاع أولا على أن يترك لها المكان في جهاز الدولة ، و بجانبها (إنه التأويل الذي أعطاه ، في البيان الشيوعي كل من ماركس و إنجلز للحكم الفردي المطلق) ؛ البروليتاريا ، لا تستطيع أبدا مراقبة جهاز الدولة الموجود كما لا تستطيع ، تحت هيمنة البورجوازية ، خلق مكانا لها و لو بصفة تدريجية " [2].

إن دكتاتورية البروليتاريا ، لها مهمة تاريخية ، تتمثل في نقله تاريخية نوعية من مجتمع رأسمالي استغلالي إلى مجتمع جديد هو المجتمع الشيوعي ، يقول محمد علي محمد :" تعتبر ديكتاتورية البروليتاريا هي فترة التحول من الرأسمالية إلى المجتمع الجديد أو الشيوعية " [3] .يرى باليبار ، انه إذا تمكنت البروليتاريا من صنع منظمات سياسية و إشكالا من الممارسات السياسية، فإنها بالضرورة ستتجاوز جهاز الدولة الموجود إلى مجموع جهاز جديد ، و تستطيع من خلاله ، تحقيق أهدافها التاريخية على المستوى السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي من دون الوقوع في " قمع" و " سلطوية " الدولة من خلال المركزية ، و من هنا تتضح لنا جليا ، فكرة زوال الدولة أو مرحلة " اللادولة " و التي ترتبط أساسا بفكرة نهاية السياسة ، يقول محمدعلي محمد :"... فالمجتمع سيصبح هو مجتمع البروليتاريا و الملكية هي ملكية البروليتاريا،

---

(1) - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, P 97 .
(2) – Ibid, P 97.
(3) - محمد علي محمد ، المفكرون الاجتماعيون ، ص 53 .

و البناء القومي يعكس المصالح الاقتصادية للبروليتاريا ، و ذلك هو المجتمع اللاطبقي ، مجتمع بغير دولة"[1] .

إن بيان الحزب الشيوعي يمكن أن يؤدي إلى إنشاء دولة بورجوازية إذا لم يعدل بمعنى " البورجوازية المنظمة للطبقة المسيطرة " إلى دولة بروليتارية بمعنى " البروليتاريا المنظمة للطبقة المسيطرة " ، و إلى تضادهما في أسسهما الاجتماعية و سياستهما المتبعة فلهما مبدأ أو " تعريفا عاما " أو " ماهية واحدة " : إنها منظمة الطبقة المسيطرة البسيطة .[2] و يؤكد باليبار ، أن البورجوازية يمكنها أن تنتظم في شكل طبقة مسيطرة إذا قمنا فقط بتطوير جهاز الدولة كما أن البروليتاريا يمكنها أن تنتظم في طبقة مهيمنة إذا قامت فقط بإخراج إلى جانب جهاز الدولة و جنده ، أشكالا من الممارسات و المنظمات السياسية مختلفة تماما ، بمعنى : تدمير جهاز الدولة الموجود و تعويضه ليس فقط بجهاز آخر ، و لكن بمجموع جهاز آخر أكثر من مجرد جهاز دولة [3] .

و في مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا ، يرتبط القمع دائما بكل دولة (بما فيها كل ديمقراطية حسب ماركس) ، ذلك القمع ، لا يُشترط أن يرتبط بجهاز متخصص و لكنه قمع ممارس من طرف سلطة عامة و هذا يعني : قمع ممارس من طرف جماعات منظمة من العمال و التي توجهها البروليتاريا ، كما أن مركزية وسائل الإنتاج حتى و إن سيطرت عليها البروليتاريا ، تكون لنفسها من جديد مركزية أخرى و ذلك نتاجا لمنظمة عمالية في حد ذاتها [4] .يقول كارل ماركس: " كل الطبقات ، و التي منذ الماضي ، استولت على السلطة ، كانت تبحث على تقوية الوضعية المكتسبة وذلك باخضاع المجتمع إلى شروط يمكنها أن تضمن مردوديتها . ان البروليتاريين لا يمكنهم الاستيلاء على القوى الاجتماعية المنتجة إلا بتدمير نمط الملكية الذي يخصها ، منه كل نمط ملكية إلى يومنا هذا .ان البرليتاريين لا يمكنهم انقاذ ما يملكونه :عليهم تدمير كل ملكية خاصة و كل أمن سابق "[5].

---

[1] – محمد علي محمد، المفكرون الاجتماعيون ، ص 55 .

[2] - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, P 97.

[3] - Ibid, P97 .

[4] - Ibid, P 98 .

[5] Karl Marx et Frederich Engels , le manifeste du parti communiste ,traduction Robert Mandrou , ed. Union Générale d'Editions, Paris ,1974 , p 32.

من خلال هذا النص ، يبدو أن الصراع كان دائما قائما حول نمط الملكية الذي من خلاله يتحدد نمط السلطة السياسية ، فالبروليتارية ملزمة بالقوة اكتساب السبل المادية لتحررها،

و يضيف كارل ماركس :" كل الحركات التاريخية كانت حركات تابعة للأقلية أو كانت محققة في سبيل مصالح الأقلية . ان الحركة البروليتارية هي حركة تلقائية للأغلبية و لصالح الأغلبية دائما . ان البروليتاريا ، و هي الطبقة السفلى للمجتمع الحالي ، لا يمكنها النهوض ، دون ضرب و ابعاد كل البنية الفوقية للطبقات التي تكون المجتمع الحالي ".[1] يتضح أن ماركس يتعرض لكفاح طبقة البروليتاريا و هو كفاح تاريخي ضد البرجوازية ، ضد أفكارها و نمط انتاجها الاستغلالي و اديولوجيتها و منه فالكفاح الحقيقي كان دائما قائما بين البروليتاريا و البرجوازية من خلال جدلية العلاقة بين البنية التحتية و البنية الفوقية و كما يقول كارل ماركس عن الصراع الطبقي الثوري :" **ان وجود طبقة مظلومة هو الشرط الأساسي لكل مجتمع قائم على صراع الطبقات .و أن تحرير الطبقة المظلومة يتطلب خلق مجتمع جديد. و لكي تكون الطبقة المظلومة قادرة أن تحرر نفسها ، فمن الضروري أن لا تكون القوى الانتاجية و العلاقات الانتاجية و العلاقات الاجتماعية الموجودة قادرة على أن تكون جنبا لجنب . ان كل وسائل الانتاج ، و ان أعظم قوة منتجة هي الطبقة الثورية نفسها . ان تنظيم العوامل الثورية كطبقة يفترض وجود كل القوى الانتاجية التي يمكن خلقها في صدر المجتمع الجديد** " [2] . هل ،من خلال هذا النص ، نفهم أن الطبقة الجديدة قادرة على بلوغ حكم سياسي جديد و قدير بعد سقوط المجتمع القديم أي البرجوازي ؟ يجيب ماركس عن ذلك باعتقاده أنه لن يتحقق ذلك إلا بالقضاء على الملكيات و على كل الأنظمة الأخرى يقول : " **ان الطبقة العاملة –و هي في طريق نموها – ستقيم مكان المجتمع المدني القديم تجمعا يقضي على الطبقات و صراعها و لا تكون هناك قوة سياسية كما نريدها ، طالما أن القوة السياسية هي الضغط القانوني على الصراع في مجتمع مدني .ان الصراع بين البروليتاريا و البرجوازية هو صراع طبقة ضد طبقة ، صراع يؤدي إلى ثورة عامة ! ليس مدهشا أن مجتمعا قائما على صراع الطبقات ، يجب أن يؤدي إلى تناقض وحشي ، إلى اصطدام جسد**

---

(1) - Karl Marx et Frederich Engels , le manifeste du parti communiste ,traduction Robert Mandrou , ed. Union Générale d'Editions, Paris ,1974 , p 33. (1) -

(2) – كارل ماركس، بؤس الفلسفة،ترجمة أندريه يازجي ،دار اليقظة العربية و دار مكتبة الحياة ،سورية – لبنان ،الطبعة الثانية،1967 ، ص 119 .

بجسد ،كنتيجة محتومة له " .[1] يتبين أن الحركة البروليتارية الاجتماعية لا تؤدي إلى القضاء على الحركة السياسيةلأنه لا توجدحركة سياسية إلاوكانت حركة اجتماعيةكمايؤكد ماركس.

و لكن لنعيد طرح السؤال حول مفهوم الدولة عند باليبار :ما العلاقة بين مفهوم الدولة و اللادولة ؟ يجيب باليبار بقوله : **" نفهم إذن للرجوع إلى المسألة التي طرحتها مسبقا ، أن الدولة التي هي كذلك لا دولة ، ليست شيئا وسيطا بين وجود الدولة و زوالها ، لحظة إنهيار بسيط ، إنها حقيقة متناقضة ، إننا لسنا أمام مفهوم واحد ، إنما هما اثنان ، إن " اللادولة " ليست فقط الصفر أو غياب الدولة : إنه الوجود الايجابي لمفهوم آخر ، فالأمر لا يتعلق بوصف الائتلاف المتواصل للدولة ، و لكن يتعلق بالكفاح " السياسي " ضد الدولة و وسائل هذا الكفاح "** [2]

و يتبين من هذا النص ، أن مفهوم الدولة في علاقته الجدلية باللادولة ، يعبر عن الكفاح المتواصل للبروليتاريا و وسائل هذا الكفاح و المتمثلة أساسا في القمع الثوري و الذي يتحول بصفة كلية إلى كفاح مجتمع سياسي بكامله و يخلص باليبار أن هذا يُفسر الكفاح المتواصل من طرف كارل ماركس و فريدريك إنجلز لكي لا تكون الديمقراطية الاجتماعية مجرد وثيقة أو وسيلة للجهاز السياسي الموجود و لكن يجب أن تكون شيئا آخر تماما و هذا الكفاح طوره من الناحية التاريخية لينين ابتداء من سنة 1917 و ثورة البولشيف .

و إذا كان الفيلسوف الفرنسي لويس آلتوسير Louis Althusser ، جعل من الممارسة الجديدة للفلسفة ما هي إلا السياسة أو فعل السياسة داخل النظرية ، فان باليبار قدم تحديدا راديكاليا لهذه السياسة التي يشكلها المنتجون ، فلقد أخضع آلتوسير الماركسية لدراسة بنيوية ، جديدة الطرح ، حيث قام بالكشف عن تناقضاتها و التي كانت سببا في تفشي الممارسات الاستبدادية التي تشبه إلى حد بعيد الفاشية ، يقول المفكر كروزويل إديت : "... لأنها تعمل جاهدة على تقييد حرية الفرد إلى أبعد الحدود "[3].و يقترح آلتوسير ، العودة إلى النصوص و المفاهيم التي تزخر بها الفلسفة الماركسية و محاولة دراستها دراسة علمية بنيوية منها مثلا : مفهوم التشيء و مفهوم الاغتراب ... الخ

---

[1] – المرجع السابق ، ص 120-

[2] - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, P 98 .

[3] - كروزويل إديت ، عصر البنيوية ، ترجمة جابر عصفور ، مكتبة مصر ، ص 15

فهي تحمل دلالات واحدة في جميع النصوص التي نقرأها عن كارل ماركس ، و عندما نركز على هذه المفاهيم ، نجدها تقع تحت تأثير الفلسفات البورجوازية الهيجيلية ، مما جعل آلتوسير يقطع الصلة معها، لأنها تنطلق من التفكير المجرد لتعود إليه مرة ثانية بعيدا عن التفكير العلمي و هذه الفلسفات تتمسك بالأوضاع كما هي و تنفر من التغيير و الثورة .يقول آلتوسير عن تطور الفكر عند هيجل :" عندما نتحدث عن لحظة تطور الفكر عند هيجل يجب أن ننتبه إلى أن هذا اللفظ يحيلنا إلى وحدة بين معنيين :يحيلنا إلى اللحظة كلحظة تطور (و هذا يقتضي استمرار الزمان و يثير المشكل النظري للتقطيع إلى ادوار تاريخية) كما يحيلنا إلى اللحظة كلحظة زمن كحاضر ليس سوى ظاهرة حضور التطور أمام ذاته ... "[1].

فكما دعا باليبار إلى قراءة جديدة لبيان الحزب الشيوعي و ضد – دهرنج ، فإن آلتوسير دعا كذلك إلى إعادة فهم المصطلحات الماركسية فهما صحيحا حتى نتجنب الوقوع في الفهم المثالي لها ، يقول :" نستنتج من كل هذا أن هناك أفكارا خاطئة يجب إزالتها حتى نفتح الطريق إلى الأفكار الصحيحة " [2] . و يرفض آلتوسير المصادرة الهيجيلية التي تنفي حقيقة المستويات الاقتصادية ، السياسية ، الثقافية ... الخ التي يقوم عليها المجتمع ، و هذه المستويات هي منفصلة عن بعضها البعض و مستقلة استقلالا نسبيا عن بعضها البعض ، يقول في هذا الصدد : "... لكل نمط إنتاج، زمن و تاريخ خاصان بعلاقات الإنتاج ، منفصلان بصفة نوعية ، و تاريخ خاص بالبنية العليا السياسية ، و تاريخ خاص بالفلسفة ... الخ و كل من هذه التواريخ مقطع إلى أدوار حسب إيقاعات خاصة " [3] .

و لذلك قام آلتوسير بالاستعانة بالعلوم المعاصرة لقراءة و تحليل الماركسية من جديد ، يقول :" ... هذا العمل ضروري لقراءة ماركس و في الوقت ذاته يعد بمثابة الأساس النظري للفلسفة الماركسية، إنها النظرية التي تسمح برؤية ماركس رؤية جلية واضحة و تميز بين العلم و الايديولوجيا " [4].

---

[1] - Althusser Louis , lire le capital, ed. Maspero, Paris , 1968 , P117.

[2] - آلتوسير لويس ، الفلسفة و فلسفة العلماء العفوية ، ترجمة رضا الزواوي ، منشورات دار العيون ، باندونغ ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية، 1979 ، ص 86 .

[3] - Althusser Louis , lire le capital , P130 .

[4] - Althusser Louis , Pour Marx , ed . Maspero , Paris , 1965 , P 31 .

المطلب الثاني: جدلية ممارسة و نهاية السياسة.

ذكرنا في المطلب الأول أن باليبار أكد على أن عدم تعديل بيان الحزب الشيوعي سيؤدي إلى إنشاء دولة بورجوازية بمعنى البورجوازية المنظمة للطبقة المسيطرة و لكن إذا تمكنت البروليتاريا من صنع منظمات جمعوية سياسية فإنها ستحقق تجاوزا لما هو قائم من وضع سياسي و ذلك بتحقيق مجموع جهاز جديد في الدولة و منه تحقيق الأهداف التاريخية على المستوى الاقتصادي و السياسي و الاجتماعي فتظهر مرحلة اللادولة و التي ترتبط أساسا بفكرة نهاية السياسة .

فماذا تعني فكرة نهاية السياسة ؟ على الرغم من محاولة باليبار إعطاء توضيح كاف لهذه الفكرة ، إلا أنه يعترف أنه يبقى جزء منها غامضا خاصة ما يمس مباشرة الميول المستقبلية للحركة التاريخية للبروليتاريا ، يقول في هذا الصدد :" في الواقع ، المحتوى الحقيقي لهذه الفكرة لا يوجد في الخارج إلا في الاعتراف بالشكل الحالي لهذه الميول "[1].إن هذا الأمر ليس تنبؤا أو وحيا ، لأن كارل ماركس تكلم عن المستقبل كما تكلم عن الحاضر و أ حيانا عن حاضرنا المباشر أي المعاش ولذا فهذا التحليل حسب باليبار ، الذي أعطاه ماركس للاتجاه التاريخي يؤثر في حد ذاته على الممارسة السياسية و لكن كيف تظهر مسألة " نهاية السياسة " ؟ هل بإتباع تحليلات ماركس و تحولاتها؟

لقد شرح كل من ماركس و إنجلز سنة 1847 ، أن نهاية الدولة أو زوالها يؤدي إلى نهاية السياسة ، و من الناحية المنطقية فإن نهاية الدولة يبدأ مباشرة إذا كانت هذه " النهاية " ليست هي اختلاف في الدرجة و لكن تشكيل متناقض لاتجاهين في حالة نزاع و حرب ، و منه فإن " نهاية السياسة " وجب عليها البداية حالا [2] .و من جهة أخرى ، فإن الاتجاه الحقيقي، و الذي بدأ يتشكل في المجتمع ، هو حالة أخرى تماما : إنه القانون ، الهش و المتراجع ، لشكل آخر من السياسة حسب باليبار ، فالأمر هنا لا يتعلق بفهم : ما إذا كان المجتمع يكشف

---

(1) - Althusser Louis , lire le capital, ed. Maspero, Paris , 1968 , P117.
2 - Ibid, P 98 .

عن ممارسة سياسية و التي لا تنحصر في فعالية اشتغال الدولة و إنما بالعكس تنحصر بصفة أكيدة في شروطها المادية ، يقول باليبار : " لم يكن هناك وجود تاريخي للممارسة السياسية خارج شروطها المادية المحددة : الدولة ، أشكال جهاز الدولة المتطورة و " المطورة " من طرف الرأسمالية " [1].و من هنا يتضح أن باليبار يربط ربطا مشروطا بين ممارسة السياسة و بين الشروط المادية و قد حددها في الدولة كمؤسسة قانونيةو كذلك في أشكال جهاز الدولة و التي نتجت عن النظام الإقتصادي الرأسمالي و منه نطرح هذا السؤال : لماذا حتمية الممارسة السياسية الجديدة ؟ هل هي حتمية تاريخية أم نظرة بنيوية جديدة مثلما تحدث لويس آلتوسير عن الممارسة الجديدة للفلسفة؟

لقد تحدث آلتوسير عن الممارسة الجديدة للفلسفة بقوله :" إن الفلسفة ليست سوى السياسة داخل النظرية، و بشكل جيد ، تظهر تحت شكلين لنفس المسألة المطروحة " [2]. و من خلال هذا ، نجد أن البروليتاريا لها سبيل واحد للدخول إلى حقل الدولة و جهاز الدولة ، يقول باليبار :" إنه مجال للأجهزة ، قمعية أكثر منها إيديولوجية حيث يشكل المجموع جهاز الدولة " [3]. و لا بد من دخول عناصر مادية في هذه العملية التاريخية ، فمن خلال أساس الطبقة و وحدة الطبقة ، يجب توفر الإنتاج المادي و خبرة الإنتاج و المنظمة داخل الإنتاج و الهدف من ذلك هو محاربة الطبقة المسيطرة و ذلك بسلاحها الذي تحول ضدها و كذلك بأسلحة جديدة و التي ليست لها أية علاقة بالبورجوازية . و من هنا يقدم لنا باليبار التجديد الراديكالي لهذه الحالة : فمن السياسة المشكلة من المنتجين إلى مراقبة سلطة الدولة ثم الاستيلاء عليها و أخيرا ممارستها من طرف المنتجين و هذا ديالكتيك تاريخي يشبه إلى حد ما ديالكتيك الحرب بين الفيتنام و أمريكا USA حيث يدلي باليبار بشهادة أكبر ثائر فيتنامي في القرن

---

(1) - Balibar Etienne, cinq études du matérialisme historique, P99.
(2) - Althusser Louis ,Lénine et la philosophie, ed Maspero , Paris ; 1969. P 56 .
(3) - Balibar Etienne , Cinq etudes du matérialisme historique, P 99 .

العشرين و هو السيد فان فام دونك في وصفه لديالكتيك الحرب و وسائلها و نتائجها بقوله : **"إنه من الأساسي ، أن الولايات المتحدة الامريكية تأكدت أن قنبلة محيط هوشيمنه كان لا جدوى منه و أنهم استخلصوا النتائج مثل فشل " الفتنمة " ؛ إن عملياتهم كانت مكلفة جدا و خاسرة للغاية على الرغم من قيامهم بالحرب بكل الوسائل العلمية التي كانوا يمتلكونها و لكن و مع الوسائل التي نمتلكها على الرغم من عتادنا المتواضع ، فنحن نقوم بالحرب بطريقة علمية. و بكل تأكيد، فنحن ، لا نحصر أنفسنا في وظيفة الاسلحة المتطورة التي يمكن أن نمتلكها و لكن لا يكفي امتلاك وسائل تكنولوجية متطورة لكي تكون الحرب مسيرة بطريقة علمية. إن طريقتنا في تصور الحرب هي علمية لأننا نحارب على أرضنا و لأجل أهدافنا و بطرقنا الخاصة . هذا ما يفسر أن العدو على الرغم من جهازه العلمي ، هو تائه ، إننا نحن الذين نمتلك المبادرة"**[1].

و يعود باليبار الى الاتجاه الذي رسمه كارل ماركس في مسألة نهاية السياسة و الذي يعتبره اتجاه معقد . يقول فريديريك أنجلز في كتابه ضد – دهرنج :"في سنة 1816، ادعى سان سيمون السياسة العلمية للانتاج و أعلن انحلال كلي للسياسة داخل الاقتصاد .و إذا كانت فكرة الحالة الاقتصادية هي أساس القوانين السياسية،لا تظهر هنا إلا من جذورها ،يكون المرور من السلطة السياسية للانسان إلى ادارة الأشياء ،إلى ادارة العمليات الانتاجية؛اذن مسألة تدمير الدولة،و التي تعالت أصوات كثيرة في شأنها، تجد نفسها هنا معلنة بصفة كلية".[2]

و يتضح أن القضية التي طرحها سان سيمون ،حسب أنجلز ،لها معنى يوتوبي و تكنوقراطي في آن واحد .فهي يوتوبية لأنها تعلن التحويل الفوري و قلب السياسة إلى "علم للانتاج " الصناعي «و الذي يدمرها حينما يحققها». [3] كما أن للمسألة معنى تكنوقراطي ، حيث أنه و ليس كما يعتقد سان سيمون،هي ميول تلقائية للاقتصاد الصناعي لأن الدولة و السياسة لا يمكنهما الزوال تلقائيا و لكن يتحقق ذلك الأمر تحت تأثير طويل لنضال الطبقات، و ادارة الأشياء لا تكون مطبقة إلا بسيطرة سياسية ذات بعد اقتصادي و تقني .ان هذين المظهرين يختفيان كما تم اعلانه من قبل في بيان الحزب الشيوعي عندما

---

(1) - Journal le Monde , interview , 18 mai 1972 .
(2) - Friedrich Engels, Anti –Dühring, 1878,trad.Balibar Etienne ,3eme partie,chapitre 2.
(3) -Balibar Etienne, cinq etudes du materialisme historique, p 85.

يتحقق الاستيلاء على السلطة السياسية من طرف البروليتاريا و يطرح على شكل مرحلة و وسيلة ضروريتين .ولقد أكد كارل ماركس ،أن صراع الطبقات يؤدي إلى ديكتاتورية البروليتاريا ، أي إلى مرحلة سياسية انتقالية يكون فيها من مهمة طبقة المضطهدين ، وقد صارت طبقة سائدة ،أن تضطهد المضطهدين السابقين ، وأن ديكتاتورية البروليتاريا لا بد أن تتأدى، في نهاية المطاف ، إلى قيام مجتمع بلا طبقات و لذلك فالمسار الماركسي حول مسألة نهاية السياسة ينطوي على اتجاهين كما يرى باليبار حيث أن :

1- من جهة : هو اتجاه نحو تدمير الدولة و منه فهو اتجاه نحو زوال السياسة في الوقت الذي " تتماهى " فيه الدولة مع كفاح الطبقات .

2- من جهة أخرى : إنه كذلك اتجاه نحو تكوين شكل جديد للسياسة أو بصفة أحسن ممارسة جديدة للسياسة ، إذا كانت هذه الأخيرة مؤطرة قبل كل شيء بالتزام كفاح الطبقات و منه فهي مكونة ضد الدولة و بالنسبة لها..إن الاتجاه الثاني ، هو شرط لتحقيق الاتجاه الاول ، لأنه يشكل الأصل التاريخي للبروليتاريا و من جهة ايجابية وسائل هذا الكفاح [1].

لكن: ما الذي يثبت أن الاتجاه الثاني ما هو إلا مرحلة إنتقالية ؟و أن هذه المرحلة هي دون مستقبل ؟ فإذا كانت الشيوعية ليست مثالا و لكن نتيجة نحو تحويل طبيعة السياسة و ممارستها ، أليس هذا اختفاء و زوال للسياسة لصالح الاقتصاد؟ ألا يعبر ذلك عن زوال تنظيم تقني خالص للإنتاج؟ أليس ذلك بالعكس ، هو تحول للاقتصاد و ممارسة الإنتاج إلى مهمة سياسية مباشرة ؟

يرى باليبار أنه يمكن تقديم إجابة و ذلك على أساس وحيد و هي نصوص كارل ماركس و التي تقيد بها باليبار حيث يقدم لنا الإجابة بطرحه لهذا السؤال :" ماذا تعني فكرة " إدارة الأشياء " و التي هي معبأة بتصور و إدراك لـ " نهاية السياسة " ؟ "[(2)].

إن هذه الفكرة لها مضمون إيجابي فهي تحدد الضبط و امتلاك الانتاج من طرف المنتجين في حد ذاتهم و ذلك بمعارضة تجريد المنتجين و " فوضوية الانتاج " و التي هي منتشرة في المجتمع الحالي ، و يفسر ذلك بأن هذا الأمر يكفي لمنع الخلط بين الماركسية و فكرة البورجوازية

[1]- Balibar Etienne , Cinq etudes du matérialisme historique, P100 .
(2) - Ibid, p 101.

الصغيرة للتسيير الذاتي و هذا الخلط حسب باليبار يمتد إلى عهد برودون جوزيف (Proudhon Joseph)حيث يقول :" هذا يكفي بكل تأكيد، لمنع و بصفة نهائية الخلط بين الماركسية مع فكرة البورجوازية الصغيرة للتسيير الذاتي ، و قد يكون مجديا ، التذكير به في حالة ما إذا كان هذا الخلط ، الذي يرجع الى تقاليد برودونية متينة و دائمة ، و التي لا تتوقف على الظهور عندنا، أحيانا داخل حتى الحركة العمالية " [1] .

و بجانب هذا المضمون الايجابي ، وجب التأكيد كما يرى باليبار ، أن هناك اقتراح لتشكيلة غامضة و قابلة للتأويل، و التي قد تؤدي الى الوقوع في الخطأ، فهذه التشكيلة تقع كلية على تناقض قانوني بورجوازي " لأشخاص " و " أشياء " . إذن فهي تقع على إيديولوجية تتمخض عن الحركية التجارية و اشتغال الدولة و ذلك بمعارضة و مقابلة " حكومة الأشخاص" مع " إدارة الأشياء " . إن هذه القاعدة المعزولة و المطبقة حرفيا، ستؤدي إلى نتيجة مزدوجة التناقض مع الجدلية التاريخية حيث:

1- إنها تعوض عملية انحلال الدولة و أصلها الحقيقي بكفاح الطبقات حتى بالاستناد خطأ الى نتيجة إشتغالها .

2- إنها تقترح أن الانتاج الشيوعي هو انتاج خارج العلاقات الاجتماعية للانتاج، الانتاج الذي ينحصر في نشاط العمل و الفعل على طبيعة الافراد الذين يرتبطون فيما بينهم بكل حرية ، فبفكرة نفي و إلغاء الاستغلال ، تضع مكانها و بطريقة لا إرادية فكرة إلغاء العلاقات الاجتماعية للإنتاج بصفة عامة، و هذا ما يجعلنا نجد من جديد الحلم القديم المتمثل في عودة الدولة الطبيعية [2] .

و يخلص باليبار إلى أن أساس المسألة – نهاية السياسة – يرغمنا على عمل تعديل بيان الحزب الشيوعي إذ يقترح العودة إلى كل تجارب الثورات الاشتراكية اليوم و غدا ، و ذلك من أجل كشف الأشكال الواقعية و الحقيقية و التي من خلالها يظهر قانون العلاقات الانتاجية الشيوعية و الذي يستعمل و يعمل على تطوير السياسة البروليتارية .إن النظرة الماركسية إلى تدمير الدولة و زوال السياسة و ربطها بمرحلة أخرى هي مرحلة ممارسة جديدة للسياسة إذا

---

(1) - Balibar Etienne , Cinq etudes du matérialisme historique, P101 .
2 - Ibid, P102 .

ارتبطت بكفاح الطبقات الذي يمثل الأصل التاريخي للبروليتاريا يجعلنا نطرح هذا السؤال : هل توجد مرحلة انتقالية ؟

يرى باليبار أنه خلال المرحلة الانتقالية تكون سياسة الدولة مخالفة تماما للسابق لأنها محكومة أصلا بالبنية الاقتصادية .و عندما نحلل التراكمات السابقة، نجد أن القوة هي عامل إقتصادي ، و كذا " حركية" الحقوق و أشكال الدولة و البنية الاقتصادية الرأسمالية يقول باليبار و آلتوسير في هذا الصدد : " في المرحلة الانتقالية ، أشكال الحقوق و سياسة الدولة لا تكون كالسابق متناسقة أو متلائمة (مستندة إلى حدود بنية الانتاج في حد ذاتها) و لكنها غير متناسقة في علاقتها مع البنية الاقتصادية ، إن التحاليل المتعلقة بالتراكم الأولي تبين، في الوقت نفسه أن القوة، كعامل اقتصادي ، لها أسبقية الحقوق و أشكال الدولة على أشكال البنية الاقتصادية الرأسمالية " [1].

و من خلال هذا النص ، يمكن أن نعلن أن اللاتناسب أو اللاتناسق مع البنية الاقتصادية، كبنية أساسية في الممارسة السياسية الجديدة يعبر عن التلاؤم الذي يظهر في صورة " اللاّ – تلاؤم " ذلك لأنه، كما يرى باليبار و آلتوسير يمثل شكل التدخل لممارسة السياسة عوضا أن يحتفظ بحدوده و إنتاج آثاره فهو يحركها و يحولها و منه فإنه لا يوجد شكل عام لتلاؤم المستويات و لكن يوجد اختلاف الاشكال و التي ترجع الى مستوى الاستقلالية لسلطة أو هيئة بالنسبة لأخرى و لشكل تأثيرها و تداخلها المتبادل كسلطة أو هيئة المنظومة الاقتصادية[2] .

فعلا ، إن للبنية الاقتصادية دورا فعالا في الممارسة السياسية الجديدة و منه تصبح مهمة الدولة هي الحفاظ على التوازنات داخل المجتمع المدني على الرغم من وجود الصراع الطبقي و الذي يعبر عنه اليوم بصراع المصالح الاقتصادية الكبرى لذوي النفوذ المالي و منه فالدولة المدنية المعاصرة لها مهام خطيرة قد تؤدي في حالة عدم اشتغالها الى زوالها يقول لينين Lenine في هذا الصدد : " يصبح لمسألة الدولة في الوقت الذي تنتصر فيه الثورة في بعض البلاد ،كما تزداد فيه حدة النضال ضد الرأسمال العالمي ، أهمية كبرى و تصبح أشد المسائل خطورة، و محط جميع الوسائل و كل المناقشات السياسية المعاصرة " [3] . و كما يقول فريدريك إنجلز:

---

[1] - Althusser Louis et Balibar Etienne et Ranciere , J , lire le capital , ed . Maspero, Paris, 1968 , p24 .

[2] - Balibar Etienne , Cinq etudes du matérialisme historique, P 103 .

[3] - لينين ، الدولة و الثورة ، المطبوعات الاجتماعية ، باريس ، 1947 ، ص 121 .

" مهمة الدولة هي تخفيف التراع بين الطبقات " [1]، و اذا كان لينين يقول عن الدولة : " الدولة هي ثمرة التعارضات الطبقية المتناحرة و مظهرها " [2]، فذاك يعبر عن الصراع الطبقي أو لنقل المصلحي الاقتصادي الذي يؤدي إلى تشكيل الدولة كما قد يُؤدي إلى زوالها و تدميرها. و من خلال ما سبق نطرح هذا السؤال : أليست الدولة اليوم جهاز قمعي ضد الديمقراطية و مصلحة العمال بحكم نظام العولمة الاقتصادي ؟

هناك طائفة من المفكرين المعاصرين و الفلاسفة من يعتبر أن الدولة جهاز قمع ضد العدالة الاجتماعية أو الديمقراطية الاجتماعية بالمعنى الماركسي ، يقول المفكر سبيلا محمد : " خوصصة مرافق الدولة ستحقق على وجه التأكيد الحرية المطلقة للفرد بإعفائه من الضرائب (التي هي مجرد سرقة أضيفت عليها صبغة المشروعية عبر القانون) و من الخدمة العسكرية (التي هي أكثر أشكال العبودية حدة في المجتمعات المعاصرة) ، زمن تعسف الشرطة و من عنجهية البيروقراطية الإدارية ... الخ أي من شر الدولة التي هي في منظور روث باند " أكبر تنظيم إجرامي في كل العصور و أكثر المافيات فعالية عبر التاريخ " و من حيث أنه لا وجود لشيء عمومي في هذا المجتمع فلا حاجة للدولة و لا حتى للحد الأدنى منها " [3] .

ألا يعتبر هذا الموقف هو الفوضوية الجديدة ؟!

إن الفوضوية نزعة فلسفية و سياسية ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشر حيث نادت باختفاء الدولة و من أول روادها ماكس شترنر Max Schterner (1806 – 1856) و برودون جوزيف Proudhon Joseph (1809 – 1865) و لقد عرفها لالاند آندريه بقوله :" معتقد سياسي (يحتوي تنوع محترم) حيث أن القاسم المشترك يكمن في نفي كل تشكيل لدولة ، مفروضة من القمة إلى الفرد " [4].

---

[1] - جورج بولتيزو و بيرس ويجي و كاقين موريس ، أصول الفلسفة الماركسية ، ترجمة شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، الجزء الثاني ، ص 237 .

[2] - لينين ، مرجع سابق ، ص 12 .

[3] – سبيلا محمد ، للسياسة ، بالسياسة ، في التشريح السياسي ، دار إفريقيا للشرق ، 2000 ، ص 93 .

[4] - Lalande André , Vocabulaire Technique et critique de la philosophie, P.U.F, Paris 18 eme édition ,1996 , P57

و لذلك هناك من اعتبر الدولة مجرد جهاز قمع لا طائل من وجوده بل و يجب العمل على ازالته تماما ، فالدولة، تاريخيا، كانت جهاز قمع و رعب ضد العمال و لقد جاء في مقال عن الرعب كجهاز للدولة في الموسوعة العلمية و بالضبط حول الشيوعية ما يلي :

" أيضا ، فإن النظام هو قمعي و يمارس الرعب بواسطة الجهاز البوليسي فمنذ 19 ديسمبر 1917، انشأ البولشفيك التشيكا Tcheka ، بوليس سري مكلف بقمع كل المظاهرات المعارضة للنظام ، في ديسمبر 1918 ، و في اليوم الموالي لمحاولة اغتيال لينين (30 أوت) ، أنشأت بصفة رسمية للترعيب الجماهيري فيما يخص " المنافين – للثورة " ، و الذين سيكونون مدمجين في الصفوف،و في نفس المرحلة للحرب الأهلية (1918 – 1920) و على مستوى أكبر ، فإن الوطن كان مستعمرا في جزئه من طرف جيوش غربية ، و تقدر الضحايا بحوالي 2.5 مليون كطرف أول للرعب " [1] .

من خلال هذا النص ، ألا يمكن التساؤل حول مشروعية جهاز الدولة كما طرحه كارل ماركس؟ و عندما نسقط آراء ماركس على التاريخ، ألا نجد فرقا واضحا بين ما كان يعتقده ماركس و ما جسده لينين ثم ستالين و أتباعهما على مستوى الواقع السياسي في روسيا؟! عندما استلم ستالين إدارة الحزب في سنة 1924 ، حصر الشيوعية في نظرة مبسطة للمعتقد الماركسي – اللينيني ، فلقد جاء في الموسوعة العلمية عن ذلك ما يلي :" إن نظرته للعالم (نظرة ستالين) المعروضة في مبادئ اللينينية ، تختصر في مجموعة تعارضات لا يمكن حصرها بين الثورة و ضد الثورة ، بين الشيوعية و الفاشية ، بين البورجوازية و البروليتاريا ، بين الاشتراكية و الرأسمالية " [2].

---

[1] - Internet, Encyclopédie , le communisme , 11/04/2005,P 4 sur 8 .
[2] - Ibid, P 5 sur 8 .

و لكن القمع و الرعب استمرا طيلة حكم ستالين ، حيث أن البوليس السري تحول من التشيكا Tchéka الى كيبيون Guépéon ثم NKVD و أخيرا أصبح KGB و الذي كان الوسيلة القمعية للسياسة الستالينية و لقد جاء في المرجع السابق :

" منذ سنة 1935 – 1936 و حتى سنة 1938 ، إنطلقت عملية التطهير الجماعي للحزب ، للإدارة ، للجيش و بالموازاة للحركة الشيوعية العالمية ، إن البعض يقدر أن النظام المركزي للقولاك (مركز للأشغال الشاقة في الاتحاد السوفياتي سابقا) أعطى حوالي مليون ضحية ما بين 1927 – 1953 ، إن الرعب الجماعي و القمع الايديولوجي و قداسة الشخصية المنسوية لستالين لا تكسر إذن تلك الجاذبية الشيوعية الممارسة على التقدميين و المثقفين في العالم أجمع ، و حتى بعد التنديد بالجرائم التي إقترفها ستالين سنة 1956 ، فالشيوعية تبقى بالنسبة للبلدان الغربية و خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، الايديولوجية الواجب محاربتها دائما " [1].

و يؤكد الفيلسوف الانجليزي برتراندراسل Bertrand Russell أن القوة المعراه كانت أساس مستقبل الاشتراكية حيث يقول :" إعتبر ماركس أن جميع العلاقات الاقتصادية ما عدا تلك التي ستقوم في مجتمع المستقبل الاشتراكي ، تتحكم بها كليا القوة المعراه "[2] . و في نفس السياق يذهب الفيلسوف الفرنسي المعاصر إدكار موران Edgar Morin في كتابه مقدمة لسياسة الانسان يعتبرفيه أن الماركسية قد نجحت و لكن في الاتجاه السلبي حيث يقول : "إن كل التحولات ، الانحرافات ، الاصلاحات الخاصة بالماركسية ، و كل تشكيلاتها ، الديمقراطية، الاجتماعية ، الستالينية ، التروتسكية ، كل ذلك يؤدي إلى الشك في كون تحقيق الماركسية في التاريخ هو في الحقيقة تحقيق التاريخ في الماركسية، إن الانتصار القانوني و الإيديولوجي للماركسية كان هو الانحطاط الانساني، إن الماركسية انتصرت و لكن من جانبها السلبي". [3]

---

[1] - Internet, Encyclopédie , le communisme , 11/04/2005., P 6 sur 8 .
[2] - Berterand Russell , Power: A New social Analysis , G , Allem , and un win , L.T.D . London , 1938, P103 .
[3] - Morin Edgar , Introduction à une politique de l'homme , éd . du seuil , Paris , 1965 , P 22 .

من كل ما سبق ذكره ،نخلص الى ان فكرة زوال السياسة عند الماركسية و تعويضـــها بممارسة جديدة للسياسة لم تتماش مع الواقع السياسي للشعوب و ان تنبؤات كارل مـــاركس و اتباعه في هذا المجال تحققت و لكن بالاتجاه العكسي على الرغم من بقايا النظام الشيوعي في كل من دولة الصين و دولة كوبا و لكن إذا استقرأنا واقع المجتمعات السياسية بعـــد انحطـــاط المعسكر الشيوعي في أواخر القرن العشرين ستكون النتائج مختلفة كما سنرى لاحقا .

المبحث الثاني : الغرب و الديمقراطية ما بعد الشيوعية

ان الهزات السياسية و الاقتصادية و العسكرية التي شهدها العالم ككل على مدى قرن من الزمن – القرن العشرين- أحدثت تغيرات في أنظمة الحكم السياسية في العديد من دول العالم بالاضافة الى بروز مفاهيم سياسية جديدة في الفكر و السياسة ، خاصة بعد سقوط المعسكر الشرقي بكامله و توحيد الألمانيتين و صعود التطرف بأنواعه ،الديني ، العنصري و الأمني .كل ذلك جعل المفكرين السياسيين و منهم باليبار يطرحون اشكالية مرحلة ما بعد الشيوعية من حيث سيرورتها التاريخية.

المطلب الأول : تاريخية اندثار الشيوعية في أوربا

إن انحطاط المعسكر الشرقي و ذلك بداية بسقوط حائط برلين و توحيد الألمانيتين ثم انحلال ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي إلى دويلات صغيرة مستقلة و ظهور سياسة البريسترويكا ثم ظهور صراعات و حروب أهلية داخلية مثلما وقع في يوغسلافيا و أزمة كوسوفو ... الخ كل ذلك أدى الى اعادة النظر في بعض المفاهيم الفلسفية الماركسية السياسية منها و الفكرية ، مثل فكرة الدولة المدنية و الديمقراطية و فكرة المواطنة و حقوق الانسان و التنافس السياسي الحزبي ... الخ ، يقول باليبار :" إذن ، إسمحوا لي بتقديم هذه الملاحظة التي تسمح لنا بالدخول الى الموضوع ، لقد مضى عامان تقريبا على سقوط حائط برلين ، هذان العامان شهدا ثورات في المجر و رومانيا و تشيكوسلوفاكيا و أخيرا انقلاب موسكو و سقوط دولة السوفيات " [1].

من خلال هذا النص ، وجب أن نتمعن بإعادة القراءة الفلسفية عما انجر على سقوط الشيوعية و ما تركه من آثار على المستوى الايديولوجي ، السياسي ، الاقتصادي و الأمني على الخصوص حيث اندلعت حروب أهلية دموية في يوغسلافيا و تزامن ذلك بصعود النازية الجديدة بالمانيا و بروز ثورات مناهضة للحكم التوتاليتاري (الشمولي) هنا و هناك ، و منه ظهرت أوربا جديدة للعالم أو بتعبير آخر انعطاف تاريخي نعيشه مما أدى الى طرح اشكالية هذا الانعطاف التاريخي من جديد ؟!. من هنا يبرز سؤال يطرح نفسه : هل انحطاط المعسكر الشيوعي يعطي بالضرورة اندثار و زوال الشيوعية كإديولوجية ؟

---

[1] - Balibar Etienne, Nous citoyens d'Europe , ed . la découverte , Paris , 2001 , P 134 .

يرى باليبار أن سقوط المعسكر الشيوعي لا يعطي بالضرورة زوال الشيوعية كما اعتقد خصومها من دعاة الرأسمالية، بل قد يعبر ذلك ، عند باليبار عن تغيير ثوري كما يرى بعض الرفقاء المخلصين للشيوعية حيث تكلم كارل ماركس عن فكرة " كسر القيود التي تقيد المستقبل " [1].

إن القضية هنا تتعلق أصلا بالفكرة التي نكونها في ذهننا عن نظام ينحط تحت أعيننا و كذلك كيفية تحليل تاريخيته ، بالإضافة إلى ذلك ، فالقضية تتعلق بجملة عوامل خارجية ، كالضغط العسكري ، الاقتصادي ، السياسي الغربي و عوامل داخلية تتعلق بالأزمة الداخلية المنجرة عن حركات شعبية و انتفاضات ، فهذه الانتفاضات تعطينا تقاليد ديمقراطية ، حيث تطرح إشكالية : إن كانت هذه الشعوب التي حرمت من حقوقها السياسية لعدة قرون من الزمن هي قادرة ، اليوم ، على أن تحكم نفسها بنفسها ؟!! و دور بعض الشخصيات الرمزية في تحريك تلك الثورات و الحوادث التاريخية ، فذلك يتعلق بالمقاومة البولونية التي انبثقت عن الاتحاد و كذا التشيك خلف ميثاق 77 * و حتى المظاهرات الجماعية في المانيا الديمقراطية سنة 1989 بواسطة News Forum الى غاية سنة 1991 التي شهدت انتفاضة الشعوب السوفياتية.[2]

و يرى باليبار أنه لا يمكن انكار تلك الظواهر المتعلقة بتقاليد ضد الثورة أحيانا منها تصفية بعض الحسابات السياسية – من طرف شخصيات داخل الجهاز الشيوعي ذاته – و كذا عودة بعض الملاك من ذوي الطبقة الأرستقراطية – و كذا التيار الديني الرجعي الذي يحد من حرية الاشخاص خاصة النساء و لائكية الدولةدون أن ننسى العداء لليهودية و من خلال كل هذا و للقضاء على هذه الديكتاتورية وجب تفكيك جهاز الدولة القمعي و وضع و تطبيق الحريات كحرية الرأي و حرية الفكر و حرية التعبير ... الخ [3] .

---

(1) - - Balibar Etienne, Nous citoyens d'Europe , ed . la découverte , Paris , 2001 , P 134.

2 - Ibid, P 135 .

* ميثاق 77 : في شهر جانفي 1977 تم امضاء ميثاق 77 بتشيكوسلوفاكيا حيث تم بعثه من طرف المخرج فاكلاف هافل vaclav havel و المؤرخ جيري هاجاك jiri hajek و الفيلسوف جان بوتوكا jan potocka ، و هذا الميثاق يطلب احترام اتفاقيات هلسنكي عام 1975 منها ضمان ايقاف الاعتقالات المجانية و حرية الاديان و حقوق الانسان ، و هذا الميثاق استعملته المعارضة في شيكوسلوفاكيا ثم بولونيا و سلوفاكيا و روسيا من اجل محاربة و مقاومة النظام الشمولي الشيوعي . . عن موقع الأنترنت: www.humanite.presse.fr

3 - Balibar Etienne , les frontieres de la démocratie , ed . la découvert , Paris , 1992 , P 209 .

و یرى المفکر فرانسوا فیري * Francois Furet من خلال قراءاته لمارکس في کتابه " الثورة الفرنسیة " أن نهایة الحداثة السیاسیة المنبثقة أصلا عن الثورة الفرنسیة راجعة إلى نهایة الشیوعیة في الشرق حیث یرى فیري أن کل حادثة تاریخیة جدیدة تکون لها تصور تقلیدي أو خیال تقلیدي في البدایة . [1] فما نشهده ، الیوم ، من ثورات و انقلابات سیاسیة و کذلك احلال لأنظمة سیاسیة أخرى، کل ذلك یکون مقدمة لـ :" عادیة " سیاسیة أو إجتماعیة و هو في حد ذاته یشکل نهایة لاستثنائیة قد تکون یوتوبیة أو نفعیة أو غیرها .إن هذه الفرضیة في نظر بالیبار ، لا ترجع الى منظور ایدیولوجي لطبیعة المجتمعات الشیوعیة کما یراها رجال السیاسة الغربیون و هي صورة معاکسة للایدیولوجیة الرسمیة او الحقیقیة للأنظمة الشیوعیة في حد ذاتها .

و من خلال کل هذا وجب التساؤل : ما الذي سقط حقیقة في الشرق ؟

من خلال الملاحظة الاولى ، و کما یرى بالیبار ، أن الذي اختفى عن الساحة التاریخیة هي مجموعة من الدول التي کانت تتبنى الشیوعیة بصفة رسمیة و التي انبثقت عن ثقافة مارکسیة مراجعة من لینین ثم ستالین و اتباعهما و التي استمرت في بناء الاشتراکیة ثم في تسییر الاشتراکیة المحققة في الواقع [2] .کما نستنتج کذلك أن الذي سقط هو في الحقیقة شیوعیة الدولة و بما أن شیوعیة الدولة لمدة تاریخیة طویلة ، حوالي ثلاثة ارباع (3/4) القرن و التي جمعت حولها تلك الحرکات التي تدعى الشیوعیة ، تشکل في الحقیقة نهایة الشیوعیة کحرکات اجتماعیة مستقلة . و لکن وجب السؤال : هل هذا الحکم یکسب صبغة العالمیة ؟ بمعنى آخر :

هل هو یشمل جمیع الدول التي تتبنى النظام الشیوعي ؟ أم أن هذا الحکم لا یعني الا الدول الاوروبیة ؟

یرى بالیبار أن القضیة هنا تتعلق بدولة کوبا بصفة اکبر مما تتعلق بجمهوریة الصین الشعبیة

---

* فرانسوا فیري : (1927 – 1997): مفکر فرنسي ، کان استاذا مبرزا في التاریخ عام 1954 حیث قدم بحوثا في الثورة الفرنسیة ، کتابة حول الفکرة المارکسیة في القرن العشرین ، حصل من خلاله على جائزة الکتاب السیاسي سنة 1995 .عن موقع الأنترنت:www.wikepedia.org

[1] - Furet Francois , penser la révolution francaise , ed .Gallimard , Paris 1978 , p 17 .

(2) - Balibar Etienne , Nous citoyens d'Europe , P135 .

و الدول الأخرى الشيوعية في آسيا ، لأن الأولى لا محالة سوف تسقط على اعتبار ميزان القوى مع الولايات المتحدة الأمريكية ، لكن ما نلاحظه على نظام Tien An Men في الصين الذي يحافظ على استقرار النظام في بكين بدلا من زواله بالاضافة إلى التقاليد الثورية و علاقتها بالوطنية مما لا نجده في اوروبا ، و منه يتوقع باليبار ان الصين ستخرج من الشيوعية دون أن تزول الدولة الشيوعية حيث يقول :"يبدو لي ، و بصفة جلية ، أن الصين ستتخلى عن الشيوعية و لكن هذا التخلي قد لا يؤدي بالضرورة إلى انحلال الدولة "[1].

إن الشيوعية في المجتمع الصيني ، إرتبطت بتلك الفلسفة الوطنية للمجتمع مما جعلها تبدو أكثر ثباتا و قوة على عكس الشيوعية في أوروبا و روسيا ، فلو استعرضنا الحركة التاريخية للشيوعية في العالم الثالث سنجد أن الصين دخلت عهد الشيوعية بعد ما دخلته دول كثيرة قبلها ، جاء في الموسوعة العلمية :

" منذ سنوات 1920 ، الاتحاد السوفياتي و العالمية الشيوعية لعبا دورا هاما في الحركة الوطنية الصينية و الهند الصينية ،و في سنة 1927 ، أنشأت الرابطة ضد الاميريالية و القمع الاستعماري ، الذي اثر على مسيرين هامين ضد الاستعمار (نهرو في الهند ، قيماد لحركة السود في جنوب افريقيا ، هاتا في اندونيسيا و ساند نيو لينكاراقوا) ، في حين منذ 1929 –1930، الحركة الشيوعية ركزت كل طاقتها على أوروبا و كان يجب انتظار سنة 1949 و الاستيلاء على السلطة من طرف ماوتسي تونغ في الصين حتى نراه ينتبه من جديد الى العالم الثالث ".[2].

من خلال كل هذا ، يرى أندرسون Anderson P أن هشاشة الدول القوية كالاتحاد السوفياتي الذي عمر سبعون سنة تقريبا ترجع لضعف التماسك الوطني و لقد أشار قرامشي أنطونيو (1891 – 1937) Gramsci Antonio إلى تلك الهشاشة حيث يبين أن نموذج الدولة الذي بنى من طرف البولشفيك على انقاض المملكة الروسية يظهر عجزه عن مماثلة " الدولة المدنية " و عن ضمان تنظيم نفسه بنفسه [3] .

---

(1) - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , P 210 .
(2) – Internet , Encyclopedie , le communisme ,11/04/2005 , P 5 sur 8.
3 - Anderson P , sur Gramsci , francois Maspero , Paris , 1978, P 22 .

لكن ماذا بعد انحطاط المعسكر الشرقي في العالم ؟ ماذا بعد سقوط حائط برلين ؟ هل انحطاط المعسكر الشيوعي يعطي بالضرورة اندثار و زوال الشيوعية كاديولوجية ؟

لقد أكد باليبار ، أن الذي سقط فعلا في الشرق هي مجموعة من الدول كانت تتبنى الشيوعية بصفة رسمية كما أن الذي سقط في الحقيقة هو شيوعية الدولة حيث يقول :" ملاحظة أولى : ان الذي اختفى خلال عدة شهور من الساحة التاريخية هي أساسا دول "[1].

و ذلك على اعتبار أن هذه الدول كانت لها ايديولوجية رسمية هي الشيوعية و التي انبثقت عن تقاليد ماركسية ، راجعها لينين ثم ستالين ثم الأتباع و لقد استغلت في بناء الاشتراكية ثم تسيير " الاشتراكية المحققة " ، و بما أن الشيوعية ضمت حولها كل الحركات التي ادعت الشيوعية ، فنستطيع أن نقول أنه زالت الشيوعية كحركة اجتماعية مستقلة و لكن الماركسية كمعتقد و كفلسفة لم تصل الى الاهداف التي كانت ترمي اليها في الممارسة التاريخية لها ، بل بالعكس من ذلك و كما يرى بعض الفلاسفة المعاصرين أنها تحتضر، يقول الفيلسوف مشال فوكو Michel Foucoult :" إن الماركسية في تفكير القرن التاسع عشر مثل السمكة في الماء بمعنى حيثما خرجت توقفت عن التنفس " [2].ان انحطاط الشيوعية قد يكون سبيلا لتحرر الانسانية من جديد مثلما سقطت عدة انظمة ديكتاتورية في اوربا و عوضت بانظمة ديمقراطية، يقول المفكر إمانويل طود Emmanuel Todd في كتابه " ما بعد الامبراطورية ": " إن انحطاط الشيوعية لا يكون الا مرحلة من هذه المسيرة نحو الحرية الانسانية ، تابعة لهذه المرحلة الاخرى الهامة و التي هي سقوط الديكتاتوريات في اوربا الجنوبية ، في البرتغال ، اسبانيا أو حتى اليونان، إن انتشار الديمقراطية في تركيا يسجل في اطار هذه الحركة و كذلك تقوية و تثبيت الديمقراطيات في امريكا اللاتينية " [3] .

إذن هل زوال الشيوعية يعني بالضرورة موت الفكرة ؟

---

(1) - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , P 211 .
(2) - Foucault Michel , les mots et les choses , ed .Gallimard , Paris , 1996 , P 27 .
(3) - Todd Emmanuel , Apres l'empire , ed . Gallimard , Paris , 2002 , P 19 .

إننا ، نتفق مع باليبار ، كون الشيوعية لا تزال موجودة كمعتقد و كفلسفة قائمة بذاتها إلى حد اليوم ، على الرغم من سقوط المعسكر الشرقي ككل ، لكن لا يجب ان ننسى أن التوازن العالمي ، سياسيا ، اقتصاديا ، عسكريا و ثقافيا ، لا يتحقق الا بوجود تنافس و صراع قطبين و ليس قطب واحد كما هو واقع الحال مع نظام العولمة الجديد و على جميع المستويات، السياسية ، الاقتصادية ، الثقافية ، الأمنية ... الخ .فالشيوعية لها نفس ثاني كما يعبر عن ذلك سيف لوسيان Seve Lucien :" إن هذا القرن لا ينتهي على واقعة انحطاط الشيوعية و لكن ينتهي على أمل إستئنافها من جديد " [1].

و ينقل باليبار عن باديو آلان Badiou Alain * أن الشيوعية تشكل إطارا ذاتيا متعاليا للحداثة حيث أن الطموح الى زوال الدولة يشكل في حقيقته الفلسفة السياسية الذاتية للشيوعية و التي ترتبط أصلا بتاريخية الدولة [2] .و مع ذلك فإن وجود النظام الاشتراكي كمرحلة سياسية و اقتصادية للشيوعية يساهم بشكل كبير في التوازنات العالمية المذكورة سابقا ، يقول سبيلا محمد :" **كانت الاشتراكية، كفكرة و كنظام سياسي ،تمثل النقيض اليساري الذي دفع الراسمالية إلى تجديد ذاتها ، و اصلاح نقائصها ، حتى تنتصر في حربها التنافسية مع الاشتراكية و احتشام بعضها الاخر ، و بذبول وردة الاجتهادات الاشتراكية تجد الراسمالية نفسها دون منافس و دون نقيض أو مثال مضاد :و بذلك ستفقد الرأسمالية شرطا تاريخيا حيويا كان يحفزها على التجدد و التكيف و ستجد نفسها منجذبة إلى أن تستنفذ منطقها ذاته ، و هو المنطق الذي تعبر عنه أفكار روث باند ذات النفحة النيتشوية الواضحة** " [3].

إن وجود الأحزاب الاشتراكية و الشيوعية و كذا النقابات العمالية هو الذي أخرج مفهوم الدولة من المجال الافتراضي الى الحقيقة و الواقع كما يرى بورديو بيار Bourdieu Pierre في مقال كتبه المفكر كولا دومينيك Colas Dominique في مجلة

---

[1] - Seve Lucien, communisme : quel second souffle ,ed . Messidor, Paris, 1990, P 262.

* باديو آلان (1937 - .....) أستاذ فلسفة و مفكر معاصر ، اجرى دراسات و بحوث حول انتفاضة ماي 1968 بفرنسا و هو عضو بارز في اتحاد الشباب الشيوعي الفرنسي (ماركس – لينين) ، تهتم فلسفته بعرض القوى الراديكالية للتجديد الثوري و الاختراع لكل حالة . .عن موقع الأنترنت:www.egs.edu

[2] - Balibar Etienne , les frontieres de la democratie , P 211 .

[3] - سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة ، دار إفريقيا للشرق ، 2000 ، ص 95 .

الآداب حيث يقول :" و هكذا فالاحزاب الاشتراكية و الشيوعية و النقابات قد سهلوا مرور الطبقات المنتمية للدولة الافتراضية إلى الواقع الاجتماعي حيث أنه :"شيئ وجب فعله " . إن الطبقة العاملة و بهذا المعنى ، هي ناتج لعمل جهاز نقابي و سياسي و التي جعلاها موجـــودة و " ممثلة " بواسطة ناطقيها الرسميين ، و نوابها و ممثليها " [1] .

و لكن ، بعد كل ما حدث بالاتحاد السوفياتي و دول اوروبا الشرقية ، هل نقـــول ان البروليتاريا غير موجودة اليوم اطلاقا ؟ و هل توقف صراع الطبقات ؟

يجيب المفكر دولي جون بول Dollé Jean Paul في مقال كتبه عن آلتوسير لويس تحت عنوان :آلتوسير لويس : تفكير الأزمة ؟ حيث يقول : " **نفهم جيدا لماذا هـــذه الأطروحـــة أكتسبت شهرة مماثلة و تتمتع بكل هذه الشهرة بجانب هذا الشباب المثقف و الثـــوري أو هؤلاء المناضلين التائهين عن الجرائم الستالينية من طرف خروتشاف في المـــؤتمر العشـــرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي ، إن السياسة البروليتارية هي – مؤقتة – غيرموجودة ، و هذا لا يعني أن الصراع و الكفاح الطبقي يتوقف ، إنه يحدث في مجال آخـــر : الفضـــاء الايديولوجي .من هنا فإن تعرية ميكانيزمات السيطرة الديكتاتورية البورجوازية يصبح أمرا تقريريا و منه يمكن للمثقفين أن يلعبوا دورا معتبرا ، إذا تحولوا إلى استراتيجيين** " [2].

من خلال هذا النص ، يبدو واضحا موقف آلتوسير لويس ، من نفـــي زوال الصـــراع الطبقي حيث أنه غير من مجاله فقط ، إذ أصبح يدور في الفضاء الايديولوجي و على المـــثقفين الشيوعيين أن يقوموا بدورهم التاريخي و لعل ما يحدث اليوم من رفض للعولمـــة الاقتصـــادية و السياسية هو من وحي هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون بالشيوعية و يناضلون من أجل بقـــاء الفكرة على مستوى الواقع السياسي و لكن فكرة زوال الشيوعية تطرح اشكالية في حد ذاتهـــا و هذا ما سنراه لاحقا .

---

[1] - Colas Dominique , le Marx de Bourdieu , de la continuité à la rupture , Magazine littéraire , n 369 , octobre 1998 , P 27 .

[2] - Dollé Jean Paul , Louis Althuser : Penser la conjoncture , Magazine littéraire , n 380, octobre 1999 , P43 .

المطلب الثاني : اشكالية زوال الشيوعية

على الرغم من عدم اقتناع بعض المفكرين المعاصرين و رفضهم لقضية زوال الشـــيوعية من امثال آلتوسير و سيف لوسيان و غيرهم ، إلا ان باليبار يحلل مرحلة ما بعد الشيوعية حيث تبرز اشكاليتان ذات اهمية بالغة و هما في الحقيقة تشكلان معا قضية واحدة .

فالأولى : تتعلق بالفكرة او المعتقد الشيوعي .

و الثانية : تتعلق بمستقبل الحركات الشيوعية في عالم لا شيوعي .

1- لقد حمل مفكرون ليبيراليون أقلامهم ليؤكدوا بأنه لا يجب أن ننسى دور الشيوعيين في تلك المقاومات من أجل الحرية و المساواة كما يؤكد معظم الشيوعيين أن النقد الراديكـــالي الذي لا ينتهي دائما يؤدي إلى أن ينتج هذا الأخير تناقضاته ثم يُطورها بعد ذلك . فهناك مـــن يتكلم عن اليوتوبيا و هناك من يتكلم عن الحقيقة بل و يذهب آخرون الى مساندة فكـــرة أن شيوعية الدولة و التي هي شكل معاكس للمثالية الشيوعية أو المثل الشيوعي – الميت – سيترك المجال مفتوحا للماركسية الحقيقية [1] ، و في هذا الصدد يقول سيف لوسيان :

" إن البرسيترويكا، هذه العملية الحقيقية الرائعة تضع كل واحد عند حـــده ، إنهـــا تفكك " الاشتراكية " لتشكل من جديد المسار الثوري الى النهاية مثلما كان دائمـــا .إنهـــا الاستيقاظ العام للشيوعية في شكله الانساني و تعطي الحق في استرجاع الثقة.يجـــب فـــتح المبادرة للشيوعية ، إعادة بعث الثورة ، و في الوقت ذاته بعث نموذج الحزب الذي ينبغي ، إنه مشروع عظيم ، مشروع واقعي ، لأن الإنسانية لا تقترح إلا ما يمكن حلـــه . إن هـــذا القرن لا ينتهي على نهاية الشيوعية و لكن ينتهي على أمل إستئنافها من جديد " [(2)] .

فمن خلال هذا النص ، نستنتج أن المسار الثوري للشيوعية لم ينته عند الاحداث الـــتي وقعت و زلزلت المعسكر الشرقي بل و يطالب سيف لوسيان باعادة بعث ثـــوري للحـــزب

---

[1] - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , P 211.

[(2)] - Seve Lucien ,communisme , quel second souffle , p 262 .

الشيوعي و سماه بالمشروع العظيم حيث تنبأ باستئناف جديد للشيوعية بدل نهايتها بنهاية القرن العشرين و يتساءل باليبار حول فكرة آلان باديو عن نهاية الشيوعية : كيف أن موت الشيوعية يمكن ان يكون عنوان لحادثة في حين نلاحظ ان كل حادثة تاريخية هي شيوعية لأن الشيوعية تشكل اطارا ذاتيا متعاليا زمانيا للحداثة ؟![1] .

إن هاجس المساواة داخل المجتمع و فكرة العدالة و ارادة قطع الصلة مع فكرة التملك و رفض الانانية و كذا عدم تحمل القمع و الطموح الى زوال فكرة الدولة، كل ذلك يشكل الفلسفة السياسية للشيوعية التي ترتبط بتاريخية الدولة كما يؤكد ذلك باليبار . و من هذا المنظور نجد انه سواء في دول محور الشرق كما هو الحال في دول محور الغرب ، تاريخ السياسة الجديدة قد بدأ و أن كل شيء يعاد من جديد !![2] .

و يرى باليبار ، أن الشيوعية بمعنى واحد هي النظرية الوحيدة التي يتمنى أن تبتعد عن كارثة تاريخية و ذلك باللجوء الى المثالية أو إلى لا زمانية اليوتوبيا ، و حتى تستمر الماركسية في وجودها كبرنامج و اطار للمعرفة و للحقيقة يجب ان يكون ذلك على أسس أخرى و ذلك باثبات قدراتها على التحليل و استخدام ذكائها التاريخي .إن التمييز بين ما هو حقيقي و ما هو مثالي المؤسس على حقيقة واضحة هي : أن " الواقعي " الذي ذاب و اضمحل فيه المثالي يرجع أساسا الى تدويل الشيوعية بمعنى حصرها في دولة ، و هذا الموقف دعمه آلتوسير لويس سنة 1978 عندما حيا و ساند " أزمة الماركسية " و عاكسها بالزامية وجود " شيوعية خارج الدولة " [(3)] .إن هذه المعادلة هي قاعدة لتاريخ الاشتراكية و الشيوعية منذ ثورة اكتوبر على الأقل ، انها تشكل نقطة الهروب لكل نقاد الماركسية و كل المعارضين الشيوعيين للتيار الديني التقليدي و كل الجهاز الحاكم في الدول و الأحزاب على نموذج السوفيات و هذا ما يقودنا بالضرورة إلى تحليل النقطة الثانية .

---

[1] - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , P 211 .
[2] - Ibid, P 212 .
[(3)] - Ibid, p 212 .

2- مستقبل الحركات الشيوعية في عالم لا شيوعي :

فما ينقص في الحقيقة ، لتوضيح اشكالية نهاية الشيوعية على اصطلاح انهيار جهاز دولة ليس هو المحافظة على المثالي و لكن الأخذ بعين الاعتبار تلك الثنائية لتلك التحقيقات الدستورية (القانونية) للشيوعية و إشكالية تطبيقها !! [1] .يرى باليبار ، أن هذه الثنائية كانت دائما مقنعة خاصة في خطاب و مفاهيم الأحزاب الشيوعية الغربية بذلك التمثيل للمقاومة بين " معسكرين" و بمنطقها البسيط و الواضح و من هذا الحكم يستثني الحزب الشيوعي الايطالي و ذلك مستشهدا بالحوار الذي جرى مع Nuovi Argomenti سنة 1956 حيث أن القضية، متعددة الأقطاب ، تمثل جملة المطالبة بالاستقلالية و كذلك هي عنصر تحليل للتطبيق الواقعي للحركة الشيوعية .و من هنا نستنتج أن الشيوعية الواقعية ساهمت في تأسيس دائرتين :

1- دائرة نظام الدول الشيوعية المسماة اشتراكية .

2- دائرة نظام الاحزاب و الحركات الاجتماعية الشيوعية في العالم الرأسمالي .

إن هذه الثنائية ، تكون حسب الموقع الجغرافي و حسب الأزمنة التاريخية و هي تظهر دائما على شكل ظواهر فعالة ، يقول باليبار :" إن الامر لا يتعلق بحقيقتين مستقلتين ، و ذلك ما يفسر من جانب آخر أن الأحزاب الشيوعية تكاد تسقط اليوم مع الدول الشيوعية كما أن التيارات المعارضة اصطفت مع الأحزاب التي كانت تعارضها " [(2)].

و يؤكد باليبار أن المماثلة بين الأحزاب – الدول ، نحو الدول – الأحزاب هي بديهية و ضرب من الاصطناع الذي صمد أمام كل الازمات و كل المحاولات الهادفة للتعريف الذاتي . لكن هذه المماثلة أو التقليد لا ينبغي أن يغطي التناقض الدال على ان الاحزاب و الحركات الشيوعية التي تعتقد و تعيش من القاعدة الى القمة على أنها " ضد – المجتمع " ، إنما تنشط في حقيقتها في إطار المجتمعات البورجوازية و تشكل جانبا من تاريخها السياسي و الاجتماعي ، في

[1] - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie, p 213 .
[(2)] – Ibid, P 214 .

حين أن الدول – الأحزاب في الشرق كانت إلى حد ما معزولة و منه فحلقة الانتقال اشتغلت دائما و لكن في الاتجـــاهين معـــا يقول في هذا الصدد :" حلقة مثـــل تـــلك عـــام 1956 ، التي شهدت أحزاب شيوعية مختلفة من الغرب ، بداية من الحزب الشيوعي الفرنســـي تحـــت رئاسة السيد توراز Thorez و التدخل في تلك المقاومات الداخلية للحزب الشيوعي السوفياتي، من أجل محاصرة تلك التوجيهات التعديلية للسيد خروتشاف ، كل ذلك يشكل تصريحات إلى حد بعيد " [1].

و يؤكد باليبار ، أن داخل الحركة الشيوعية العالمية و مع كل الانقسامات الكامنة الـــتي تمزقها و وجود جمعيات " للدائرة الثانية " الخارجية لنظام الدول الاشتراكية ، كل ذلك يمثل في الواقع الاتصال مع مقاومات الطبقات المعروفة ، و يستشهد باليبـــار بتصـــريحات لفلاســـفة و مفكرين معاصرين من امثال سارتر جان بول ، سنة 1968 ، عندما تكلموا عن الشـــيوعيين الذين يخافون من الثورة ، و هذه الحالة تفسر بالوظيفة المحافظة على النظـــام المتعلـــق بالـــدول الاشتراكية مع " التوازنات " و كذلك علاقة الطبقات في العالم ككل كما أن معظم الأحزاب الشيوعية ، البولشفية و الستالينية و غير الستالينية ، وضعت آمالها في الانتصار طويل المـــدى : الانتصار التكنولوجي ، الاقتصادي ، السياسي و العسكري . [2]

لكن ذلك لم يمنع ان الأحزاب الشيوعية " من الخارج " أخضعت لمســـاندة الصـــراع الطبقي الذي يوجه النظام الشيوعي ككل ، و في لحظة تاريخية معينة ، بدأت الصراعات الطبقية و الأزمات الاجتماعية ، تظهر في دول شيوعية – مثل دول أوربا الشرقية ســـابقا – مزلزلـــة الحركة الشيوعية بكاملها .إن وجود " شيوعية داخلية " و " شيوعية خارجية " في آن واحـــد مع أنهما غير متناسقتين و بعيدتين عن بعضهما – يجعلنا نتذكر آلية شلل الفعـــل و الـــتفكير السياسيين و اللذين اختنقا بفعل وزن " المركزية " التي مثلها في الواقع : الدولـــة و الحـــزب السوفياتي [3] .

---

(1) - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie, P 214 .
2 - Ibid, P 215 .
3 - Ibid, P 216 .

يرى باليبار ، أن نقطة اتصال اشكالية التيارين الشيوعيين و تداعيات هذه الاشكالية في كل بلدان العالم ، له صلة في الحقيقة ، بمجال قوي تنتج معنى " السياسة ". و منافسة البرامج السياسية و استراتيجيات و افكار لمدة خمسين سنة أو أكثر و كل ذلك يعبر في مجمله عن حالة نقدية فقط . و منه فزوال الشيوعية ، اليوم سيترك ، كما يرى باليبار ، فراغا عظيما . فراغ في السياسة و فراغ للأخطاء و الإجرام و العنف ، و فراغ للتمويهات السياسية ، و فراغ في المؤسسات القانونية و في التربية و في الثورة بمعناها العام و أخيرا سيترك فراغا في الإشكالات.

تلك إذن وضعية عدمية ، نصل إليها ، و هي في نظر باليبار ، لا تبدو على أنها غريبة ، فبداية من نهاية الشيوعية إلى نهاية الإيديولوجية إلى نهاية السياسة و أخيرا نهاية التاريخ و منه يصبح المعنى و اللامعنى قريبان من بعضهما بل و يمكن أن يمر أحدهما بدل الآخر ، يقول:" **الوجه الآخر للقلادة الذي أثيره هو في الواقع الآتي : إنه في داخل الأحزاب الشيوعية " الخارجية" – على الأقل البعض منهم – و الذي اقتربنا منه أكثر هو " التوتاليتارية" أو الشمولية بالمعنى الدقيق، توحيد الفكرالجماعي المدعم بتمثيل أو " تماهي " السياسة للحقيقة . إن النتائج كانت أقل تراجيديا (ما عدا على بعض الوجود الفردي) من تلك المتعلقة " بالمركزية الديمقراطية " في الاتحاد السوفياتي .لكن هناك مقامرة معتبرة تتعلق بالجيرة لأحزاب الدولة الغربية التي ساهمت في تقوية إنتشار صنف من التوتاليتارية على مستوى الدول – الأحزاب الشرقية** " [1].

و من هذا النص ، نستنتج المسار التاريخي للشيوعية ، حيث " المركزية الديمقراطية " في الاتحاد السوفياتي أدت إلى نشوء الحكم الشمولي و خاصة منها الدول – الأحزاب في أوربا الشرقية، بمعنى تماهي الدولة في الحزب الشيوعي أو بما يسمى بدولة الحزب. و لكن هل يمكن

[1] – Balibar Etienne , les frontières de la démocratie, P 216 .

الاتفاق مع باليبار حول تلك الوضعية العدمية ؟ هل أن نهاية الشيوعية يؤدي إلى نهاية الايديولوجية و منه إلى نهاية السياسة وصولاً إلى نهاية التاريخ ؟ هناك بعض الفلاسفة المعاصرين من أيدوا هذا الرأي و منهم نانسي Nancy J.L حيث يقول : " علينا أن نفكر هكذا : انها نهاية العالم و لكن لا ندري بأي معنى " [1].

حقيقة ، إن انحطاط الشيوعية أدى إلى تحولات كبرى في العالم في ظرف زمني قصير – من التسعينات إلى اليوم – أي حوالي ستة عشر سنة حيث عرفت الانسانية ككل تحولات و تغيرات على مستوى الممارسة السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية ، الثقافية ، الايديولوجية و الأمنية بالاضافة الى تغير النظرة الاستشرافية المستقبلية و في هذا الصدد يقول هوفمان ستانلي Hoffman Stanley و هو أستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية :" في عشر سنوات ، يبدو أن العالم قد تغير بصفة كلية : الشيوعية انحطت و سقطت و نحن نعيش اشكالات مختلفة . ان العولمة الاقتصادية و ثورة التكنولوجيات الجديدة تكاد تغرق المجتمعات الوطنية " [2].

و بسبب تسارع التغير في العالم بحكم نظام العولمة الاقتصادي و التكنولوجي تأثرت معظم الدول في العالم و لجأت الى عملية التسلح خوفا على أمنها من الصاعد الجديد المعروف بالارهاب و أعادت كل الدول حساب استراتيجياتها ، يقول هوفمان دائما :

" إن نهاية الشيوعية في بداية التسعينيات كانت لها نتائج معتبرة. في البداية أنتجت حروب : زوال و تنصيب أنظمة سياسية جديدة في البلقان و القوقاز و افريقيا ، إنها كانت متزاوجة مع ظهور أو تأكيد التهديدات الجديدة : صعود لقوى نووية محلية (الهند، الصين ، باكستان...) ، الجريمة و الارهاب العابر للأوطان و صعود التطرف و على الخصوص الاسلامي منه ، و نهاية الشيوعية حرمت الولايات المتحدة الامريكية من خصم أساسي و أجبرها لإعادة إستراتيجيتها على مدى طويل " [3].

---

(1) - Nancy J L, le Sens du monde , ed . Galileé , Paris , 1993 , P 15 .
(2) - Jean Claude Ruano Borbalan et Bruno choc , le pouvoir , ed . sciences humaines, Paris , 2002 , p175.
(3) - Ibid, P 175 .

من خلال كل ما تقدم ، نخلص إلى أن الشيوعية كمفهوم فلسفي و كمعتقد إيديولوجي لا يزال قائما إلى اليوم و أن زوال الشيوعية كنظام اقتصادي و سياسي ادى إلى تغير خارطة العالم السياسية و الاقتصادية و عجل بظهور العولمة على جميع المستويات ، فانتقل نظام العالم من ثنائية قطبية إلى أحادية قطبية لكننا اليوم نعيش بروز لقوى أخرى في آسيا و أمريكا اللاتينية مما قد يؤدي إلى تأسيس قطبية متعددة في العالم ، و كل ذلك أدى إلى ظهور عتبات تقف عندها الديمقراطية اليوم و التي سماها باليبار بـ : حدود الديمقراطية حيث ظهرت هذه الحدود على المستوى الجيوسياسي و المستوى السياسي و الأخطر من كل ذلك أن الحدود تكون كذلك على مستوى الكائن الانسان و هذا ما سنراه لاحقا .

الفصل الثاني

حدود الديمقراطية عند باليبار ايتيان

المبحث الأول : ما معنى فكرة حدود الديمقراطية ؟

المطلب الأول : اشكالية مفهوم حدود الديمقراطية

المطلب الثاني : مظاهر حدود الديمقراطية

المبحث الثاني :الحدود الداخلية للديمقراطية:خطابات فخته نموذجا

المطلب الأول : فخته و موقعه من الحدود الداخلية للديمقراطية

المطلب الثاني : الحدود الداخلية و الكوسموسياسي

حدود الديمقراطية عند باليبار إيتيان

ان مفهوم الديمقراطية عند باليبار ، لا يدور على مستوى التعريف الاصطلاحي لها و انما يدور على مستوى ممارستها في الواقع السياسي للشعوب و منه ظهور عراقيل و قوى معادية لتجسيد الديمقراطية على أرض الواقع ، هذه العراقيل حصرها باليبار فيما سماه بحدود الديمقراطية .

و قد يتبادر الى الذهن ، أن الحدود لها وظيفة جيوسياسية لكنها تتجاوز ذلك بكثير عند باليبار ، لأن الحدود موجودة في كل فضاء، فهي تنتقل من الفضاء الجيوسياسي الى الفضاء السياسي ، إلى الفضاء الثقافي ثم الفضاء الأمني .

إن هاجس " الوطني " مثلا يشكل حدا من الحدود مما أدى الى ظهور ما سماه " الحدود الفائقة " و التي لها وظائف خطيرة منها العسكرية ، الاقتصادية ، الايديولوجية و الرمزية .

إن الحدود ، لا تكون فحسب ، على المستوى الخطي الجغرافي بمعنى على حافة الدولة بل هي موجودة في كل مستوى حتى أن منها غير المرئي و هي الحدود الداخلية للديمقراطية و التي عالجها باليبار من خلال بعض الخطابات الشهيرة للأمة الألمانية و التي خطها الفيلسوف فخته يوهان غوتليب (Fichte Johann Gottlieb (1814 – 1762 . و هي من اقوى و أعنف و أخطر الحدود كما سنرى لأنها تتعلق بالكائن الإنسان .

المبحث الأول : ما معنى فكرة حدود الديمقراطية ؟

ذكرنا في المقدمة أن باليبار خط مؤلفا سنة 1992 عنوانه : حدود الديمقراطية ، ومن خلاله تطرق الى مسائل هامة تتعلق بالديمقراطية من حيث ممارستها في الواقع السياسي للشعوب و حينئذ تصطدم بجملة اشكالات و عراقيل سماها باليبار "بالحدود" وهي تشبه جدارا صلبا و ضخما تصطدم به ممارسة الحريات المدنية.

المطلب الأول : اشكالية مفهوم حدود الديمقراطية :

ذكرنا أن باليبار ، تناول موضوع الديمقراطية ، من جانبه الواقعي ، بمعنى على مستوى الممارسة السياسية في واقع الشعوب و منه تصطدم هذه الأخيرة بجملة حدود، تشكل عوائق للديمقراطية . و لكي ، نفهم هذا العالم غير القار ، يرى باليبار اننا في حاجة الى مفاهيم متداخلة بمعنى ديالكتيكي حتى نصل الى تحليل عناصر تغيير هذا العالم الذي اصبح لا يحتمل و لا يقبل على حقيقته اليوم ، و لذلك وجب إعادة النظر في كل ما قد نراه بسيط و بديهي ، يقول: " إن فكرة التعريف البسيط لمعنى الحدود هو عبث في ذاته " [1].فعند رسم حدود معينة، ذلك يعني ، تحديد الاقليم و تسجيل هويته ، و كل ذلك في الحقيقة ، هو تعيين للحدود .

إن المنظر السياسي ، الذي يريد إعطاء تعريفا للحدود يجد نفسه في حيرة ، لماذا ؟

لأن ، مجرد تعيين الحدود هو في حد ذاته شرط أساسي لكل تعريف ، فكل كلام عن الحدود يتعلق بقوانين الهوية ، سواء كانت وطنية أو غير وطنية، ففي الحقيقة ، هناك " مجموعة هويات " و ليست هوية واحدة ، و هذه الهويات ، نجد منها ، الفعالة و السلبية ، المرادة باختيار و المفروضة بالقسر ، الفردية منها و الجماعية، و هي على درجات مختلفة . إن هذه الهويات ، غير معرفة تماما من الجانب المنطقي أو القانوني أو الوطني [2] .

و كل ذلك ، له علاقة بمفهوم الدولة المدنية الحديثة ، و منه فدولة القانون و الدولة – الأمة هي أمر رهيب و معقد و افتراض وجودها على مستوى الواقع ، عند باليبار،

---

(1) - Balibar Etienne, la crainte des masses, ed . Galilée, Paris, 1997, P 372.

2 - Ibid, 372.

هو أمر يزيد من تعقيدها و فوضويتها . و كل ذلك ، لا يكون على المستوى النظري فحسب، لأن النتائج برهنت ، أنه على مستوى الواقع السياسي للشعوب ، هناك موجة من العنف و شروطه ، يقول باليبار :" إن العنف هو شرط وجودي في مجتمعات المنفى و في المجتمعات الشمالية " [1].و لذلك ، فباليبار ، يبحث عن الأفكار و المبادرات السياسية ، و التي لا تكون مجرد طريقة بسيطة للسلطة المركزية المدعمة بالقوانين و المد العسكري للتحكم في العنف .

إن هذا الحل غير وظيفي ، حسبه ، على المستوى العام و المستوى العالمي ، حيث يمكن هنا أو هناك ، اللجوء الى قمع كل عنصر مقلق ، على مستوى حدود معنية ، ذلك إذا كان تحت غطاء السلطة ، هويات غير معرفة و هي عناصر محسوبة ، على أنها لا تمتلك الهوية ، و لكن وجود هذه العناصر ، ليس مجرد قضية حياة أو موت ، فالمشكلة كما يثيرها باليبار ، موجودة في كل مكان مثلما وجد سابقا في يوغسلافيا ، من عنف ، بسبب صراع الهويات ، و الذي كان يعني الجميع ، من قريب أو بعيد [2] .

و من خلال هذا الطرح ، نصل الى أن الحدود ، لها تاريخ ، و لكن ذلك ليس بنفس المعنى عند الجميع و على جميع المستويات و في هذا الصدد ، يقول باليبار :" حسب منظورنا ، رجال و نساء ، أوروبيين ، و على حافة القرن العشرين ، هذه القضية ، تبدو أنها تسير نحو مثل الفعل الذاتي التبادلي بين الأفراد و بواسطة الدولة و من الدولة بواسطة الأفراد و على مستوى الاقليم " [3] .فمنذ الحقب التاريخية الغابرة ، و على مستوى جذور الدولة و المجتمع و الامبراطوريات السابقة ، ، فالحدود ، وجدت و حددت نقاط بين الدول ، للالتقاء أو للقتال و الحروب و المواجهة و حتى القرصنة ، المؤقتة أو الدائمة . لكن، هذه الحدود ، لم تكن لها نفس الوظيفة و على مستوى الثلاثة قرون الأخيرة مثلا ، فهاجس " الوطني " ، يتغير بصفة مستمرة و يأخذ عدة اشكال حتى الشكل البوليسي ، و يرى باليبار ، أنه يتغير حاليا ، أمام أعيننا ، و يغير من وظيفته من جديد ، حيث نجد أن من معاني إتفاقية شانغن و التي تشكل

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses, P 372 .
2 - Ibid, P 372 .
(3) - Ibid, P 373 .

" المظهر الوحيد للبناء الأوروبي المعاصر " هي الآن ، في حالة تطور ، و ذلك ليس لصالح المواطنة و لكن ضد المواطنة و لكن كيف ذلك ؟

يرى باليبار ، ان ما تقوم به المصالح المعنية حول مسألة الهجرة ، من إعادة النظر في الوثائق المطلوبة للحصول على حق الهجرة و القوانين التي تتغير في كل حين و مراجعة حتى حق اللجوء السياسي و شروط الهجرة عموما و تغيير الجنسية ... الخ كل ذلك ، لهو دليل على إجراءات ضد – المواطنة ، فكل دولة عضو في فضاء شانغن ، سواء في حدودها أو في نقطة من حدودها ، تمثل الدول الأخرى الأعضاء و هذا ما يوضح لنا من جديد التفرقة و التمييز الجديد بين ما هو وطني و ما يعد غريب أو أجنبي .

إن ما يتغير اليوم ، في الحقيقة ، هي شروط الانتماء ، شروط انتماء الأفراد الى دولة معينة ، إننا بمجرد ما نلاحظ كيف تتعامل تلك الدول مع إطار الجنسية المزدوجة أو المتعددة ، حتى نفهم ، إلى أي درجة هو هام للدولة – الأمة – أن تتصرف على أنها تمتلك مواطنيها و حتى توزيع الأفراد فيما بين الأوطان و هذا الأمر عند باليبار ، يشكل نوعا من النفي الرمزي و النسبي للأجانب ، يقول في هذا الصدد :" إنه الجانب الآخر من مبدأ الاقصاء على الأقل الرمزي و النسبي للأجانب "[1].

و لكن مما لا شك فيه ، بالنسبة لباليبار ، أنه عند الجماعة الوطنية أو ما يسميه بالرعايا، فهذه الطريقة تبقى مكبوتة و مكتومة و تشكل شرطا أو مقياسا هاما لمشاعرهم الوطنية و في الأخير أصبحت تشكل ، من جديد، هويتهم .و نخلص، إلى أن الحدود ، لا تكون في الحقيقة ، على المستوى الخارجي أو الجيوسياسي بل و تصبح حدودا داخلية ،تتعلق بالإنسان من الناحية الانثربولوجية ، و هذه الحدود ، موجودة في كل مكان كما سنوضحها لاحقا .

إن تصور باليبار لمعنى الحدود في علاقتها بالفضاء الديمقراطي و على الخصوص ما تعلق منها بالدول المهيمنة في العالم من الناحية الاقتصادية و السياسية او ما يعرف بالدول الاستعمارية الكبرى سابقا و بالتحديد الدول الأوروبية يجعلنا نتساءل عن تعريف مفهوم :

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses, P374 .

حدود الديمقراطية ؟ و هل توجد فعلا حدودا للديمقراطية ؟ لقد أجاب باليبار عن ذلك موضحا استحالة وضع تعريف نهائي و تام لمعنى الحدود بقوله :" إنه يستحيل إعطاء إجابة بسيطة ، لماذا؟ أساسا لأنه لا يمكن إضفاء للحدود طبيعة أو ماهية و التي تكون صادقة لكل الأمكنة و الأزمنة ،لكل السلالم الخاصة بالمكان و الزمان ، و التي تكون داخلة بنفس الطريقة و الكيفية في كل التجارب الفردية و الجماعية " [1].

و من خلال هذا النص ، يتضح لنا استحالة وضع تعريف يتعلق بماهية الحدود و بصفة مطلقة و منه فإننا نتفق مع باليبار على عدم تضييع الوقت في البحث في المجال النظري لمفهوم الحدود بل بالعكس يجب البحث في مواصفات الحدود و الوظيفة الاجرائية لها و ذلك كله في علاقتها بالممارسة الديمقراطية في العالم ، يقول باليبار عن عبثية تعريف الحدود :" إن فكرة تعريف بسيط لمعنى الحدود هي عبثية في حد ذاتها : لأن خط الحدود هو على وجه الدقة تعريف الإقليم ، تحديده ، و منه تسجيل هويته أو إعطاؤه إياها . و لكن ، و بعلاقة تبادلية ، فإن التعريف أو التحديد العام ، ليس هو إلا خط الحدود و تحديد المعالم (في اليونانية: بوروس، في اللاتينية : فينيس أو ترمينيس ، في الألمانية : قرنز ، في الانجليزية : بوردار أو بوردري .....الخ) " [2]. و من خلال هذا النص ، نستنتج أن معنى الحدود مرتبط بالخط و التحديد و منه فالجانب النظري للحدود يرتبط بالجانب الاجرائي و الواقعي لها ، و من خلال هذا فعند المنظرين السياسيين تعريف الحدود يرتبط أساسا بوجودها واقعيا و في هذا الصدد يقول باليبار :" إن المنظر الذي يريد تعريف الحدود هو تائه ، لأن وضع الحدود هو شرط لكل تعريف لها"[3] .

و لما نتأمل اتفاقية شانغن ، ندرك مفهوم الحدود بالنسبة للمجتمع الاوربي أو بالأحرى الدول الاوروبية الاعضاء أو ما يسمى اليوم الاتحاد الاوروبي حيث أن كل دولة عضو تمثل بقية

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses, P 371 .
(2) – Ibid, P 372 .
(3) - Ibid, P372 .

الاعضاء في أية نقطة من حدودها و على الخصوص بالنسبة للرعايا و المهاجرين الأجانب ، و منه فما هو معنى الاتحاد الأوربي ؟ و ما ذا يعني هذا الفضاء بالنسبة للحدود ؟ يجيب المفكر المعاصر دوفارج فيليب مورو Defarges Philippe Moreau في مقال كتبه بعنوان : ماذا يستطيع الاتحاد الاوروبي ؟ يقول :" إن الاتحاد الاوروبي يظهر على أنه فضاء لقواعد و إجراءات موحدة و منظمة لمصالح الرأسمال و الرجال . إن هذا الفضاء يستدعي لحدوده عناصر تمييز عن بقية العالم : خاصة قيمة الجمركة الموحدة (* TDC) و السياسة الاقتصادية الموحدة (بند 133 للبيان المشكل للاتحاد الاوروبي) و كذلك المراقبة المشكلة باتفاقيات شانغن (للدول الاعضاء المشاركة في الاتفاقيات) تؤدي هذه المهمة " [1] .و من خلال هذا النص ، نستنتج ، أن البناء الاوروبي الجديد ، أسس أولا على المصالح الاقتصادية المشتركة ثم تأتي المصالح السياسية و الثقافية و غيرها و منه ترتبط الدول الأعضاء سياسيا يقول باليبار :" إنه من الآن فصاعدا ، و على " حدودها " أو على الخصوص على بعض نقاط الحدود المميزة لإقليمها ، كل دولة عضو تمثل بقية الدول " [2].

إن المجتمع الأوروبي اليوم يبدو و كأنه بلا حدود ذلك لأن عدد الدول التي تنتمي للاتحاد الاوروبي هي في تزايد مستمر و تبقى القائمة مفتوحة ، يقول المفكر المعاصر داشو جان بيار Dacheux Jean Pierre في هذا المعنى :" أوروبا التي تبنى هي بلا حدود حقيقية ، فتحديد الحدود هو قتل لها ، أوروبا السياسية لا تتوقف عن النمو ، ان تحديدها يضيقها الى مجرد ملحق للدول – الأمم : ستة ، تسعة ، إثنى عشر ، خمسة و عشرون سنة 2004 ، و يمكن أن يصل إلى سبعة و عشرون سنة 2007 ... إن إرتفاع عدد الدول المشكلة للاتحاد الاوروبي لا يخلق أوروبا ، إنها لا تبرز سوى اللانهاية " [3].

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses, P 372 .
[2] - Ibid, P 378.
* TDC = Tarif Douanier Commun
[3] - Internet , Dacheux Jean , Pierre , les frontières tsiganes de l'Europe , octobre 2003 , P 1 sur 5 .

المطلب الثاني : مظاهر حدود الديمقراطية

يقدم باليبار ، ثلاث مظاهر كبرى ، تعطي في مجملها ، المعاني المتعددة للحدود و هي :

المظهر الأول : و يحدده باليبار في تلك العلاقة الموجودة بين معنى الحدود و مجالها و سماه بـ : Surdetermination و يعني أن كل حدود ، لها تاريخيتها الخاصة بها ، و التي من خلالها ، تظهر المطالبة بحقوق الانسان و فعالية أو عدم فعالية الدولة و كذلك التنوع و التعدد الثقافي و اختلاف المصالح الاقتصادية ... الخ . و يؤكد أن الحدود السياسية ليست هي دائما ، الحد الذي يفصل بين دولتين ، و لكنها تحمل دائما معنى " التضييق " و بهذا تصبح الحدود جهاز معاقبة و تحمل صفة الازدواجية و النسبية لأنها تحقق و تجسد الانقسامات الجيوسياسية و من دون وظيفة تحديد العالم التي تلعبها فإنه لا تكون هناك حدودا على الاطلاق[1] ، و يضرب لنا مثالين لتوضيح هذه الفكرة :

المثال الأول : ان الاستعمار الاوروبي و منذ ميثاق توردسيلي * le Traité de Tordesilles و حتى سنة 1960 ، كان في اطار اقتصاد العالم و تقوية الدولة– الأمة لأوروبا الغربية و حتى الشرقية، و لكن الحدود بين هذه الدول فيما بينها ، كانت في ان واحد حدود وطنية و حدود امبريالية في افريقيا و اسيا ، و من نتائجها ، انها عملت على تفرقة مختلف الفئات من الشعوب المهاجرة ، ذلك لأن الدولة – الأمة لم تكن لديها مواطنين فحسب بل رعايا ، و هؤلاء في نظر الادارة الوطنية كانوا أقل غربة أو أجنبية من الأجانب و منه كانوا أكثر اختلاف عنهم و هذا يعني أن عبورهم للحدود كان سهلا أحيانا و أحيانا أخرى كان صعبا للغاية .[2]

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , P 376 .

* - ميثاق توردسلي : في سنة 1494 ، البابا ألكسندر السادس أجبر الاسبان و البرتغاليين على امضاء ميثاق توردسلي الذي يخط و يحدد الحدود الاقليمية بين اسبانيا و البرتغال . إن كل ما تم اكتشافه في الغرب (أمريكا و البرازيل) سينتمي إلى اسبانيا ، اماما كان في الشرق (البرازيل و افريقيا) سيكون للبرتغال .إن هذا الميثاق ، لم يعجب اطلاقا فرنسا ، و انجلترا و هولندا ، لأنه يمنعهم من الحصول على خيرات العالم الجديد . عن موقع الأنترنت : www.tlfq.ulaval.ca/axl

[2] - Balibar Etienne , la crainte des masses , P 376

المثال الثاني : و يتعلق بالمعسكر أو الجهاز في الحرب الباردة لعام 1945 حتى سنة 1990، في الوقت الذي كان فيه " تقسيم العالم " فيما بين الاستعماريين يقوي بعض السيادات الوطنية، و منه فانقسام المعسكرات يبدوا أنه أعطى تعميما للعالم كله لشكل الأمة - فالهوية الوطنية على المستوى النظري هي هوية قاعدية لكل الأفراد – فهو أعطاها سلما واقعيا فيما بين الأمم ضمن كل معسكر فأعطاها سيادة محدودة [1] .و منه تظهر النتيجة الاتية : الحدود الوطنية للدول كانت من جديد ذات معنى تضييقي و هي معينة حسب الحالة ، فهي إما مقواة أو مضعفة و نتج عن ذلك وجود نماذج كثيرة من الأجانب و أنواع مختلفة لعبور الحدود . و لما تصادف معنى عبور الحدود مع ما فوق الحدود ، حيث كانت من أصعب الحدود للعبور لأن الشخص الأجنبي ، كان يعتبر عدوا أو جاسوسا خطيرا ، و من هنا نستثني الهاربين أو الفارين من أوطانهم لأن حق اللجوء السياسي كان دائما يستعمل في الحروب الايديولوجية مثل الإجراءات الرسمية سنة 1950 و سنة 1960 لاستقبال طالبي اللجوء السياسي ، سواء باتفاقيات دولية أو بقوانين وطنية داخلية . و يؤكد باليبار ، أن الاستعمار و المعسكرات التي وجدت في الماضي القريب ، تركت آثارا على مستوى الأفكار و الحقوق و القوانين و منه لا يمكن التسليم و بكل بساطة على أن ذلك زال تماما اليوم و ترك المجال واسعا لأمم متماثلة حتى و ان كانت الأوضاع متباينة و هذا ما يسميه أزمة الدولة – الأمة .

و من خلال ذلك، تبقى الحدود تكتسب صفة التضييق و بصفة دائمة و في هذا الصدد يقول :" و من جانب معين هو اللا يقين الموضوعي المتعلق بالطبيعة و خط المحايدة الجيو – سياسية اللذان يأتيان لتضييق و بقوة الحدود " [(2)].

و لكن : بأي مستوى للاستقلالية الوطنية يمكن لهذه الحدود الفائقة أن تكون متناسقة و متلائمة فيما بينها مع أخذ بعين الاعتبار وظيفتها العسكرية و الاقتصادية و الايديولوجية أو الرمزية ، دون إهمال مسألة الانقسامات و التباينات الداخلية:ثقافية ، اجتماعية ، دينية ... الخ؟

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , P 376

[(2)] - Ibid, P 377 .

يجيب باليبار ، أنه لكل دولة – أمة ، هذه المشكلة المعقدة و المقلقة و الغير مصرح بها و هي تحمل في طياتها دائما مشكلات هامة أخرى و تقرير تلك الحدود الوطنية حتى في أوروبا حيث كانت تقاوم و تصمد أمام تطورات المرحلة. ففي ألمانيا و يوغسلافيا و تشيكوسلوفاكيا و قع التغيير كما أن هذا التغيير يمكن أن يمتد إلى الغرب أكثر .

المظهر الثاني : تعددية المعاني للحدود .

يعني أن الحدود تحمل معان متعددة يقول باليبار :" تعددية المعنى للحدود يعني من الجانب الواقعي بأنها ليست لها نفس المعنى بالنسبة للجميع " [1] . فالواقع يؤكد ، أننا عندما نقطع الحدود، كجامعيين أو كرجال أعمال أو كملتحقين بندوة عالمية أو كبطالين، فالحدود بالنسبة لنا، وضعت من أجل هذا الغرض ، انها ، ليست فقط ، لضمان الأفراد الذين انحدروا من مستويات اجتماعية مختلفة و تجارب مختلفة خاصة بالقوانين و الإدارة و البوليس و بعض الحقوق الأولية كحق الحرية في التنقل و حرية اتخاذ القرار و التنفيذ ، بل هي للتفريق بين الأفراد حسب المراتب و الفئات الاجتماعية . [2]

إن الدولة التي تتربع على حدودها من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حدودها هي التي تكونها و منه فالحدود تلعب أدوارا غير متوازية . فالدولة تستعمل القناع و تحد الفوارق لكي تظهر ما يسمى بالمواطن من خلال نوع من القوة العامة ضد الأضداد الإجتماعية . و من جهة أخرى ، فكلما زاد التنقل الدولي ، سواء تعلق الامر بالاشخاص او بالاموال، كلما تكون فضاء دولي سياسي اقتصادي ، الأمر الذي يجعل بعض الدول و خاصة القوية منها ، لها ميول أكثر لتشتغل لحساب بعض الطبقات العالمية و تستعمل لتلك الغاية حدودها و أجهزة المراقبة على حدودها كوسائل للتفرقة و التمييز و التصفية ، و هذا العمل ينجز بالمحافظة نوعا ما على تلك المصداقية الرمزية لشرعيتها الشعبية و من هنا تسقط الدولة في التناقض حيث أنه يجب تحديد ثم تأكيد مفهوم الهوية أو الإنتماء الوطني مع معادلة المواطنة و الجنسية !!! [3] .

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses , p 379 .
2 - Ibid, P 379 .
3 - Ibid, P 377 .

بالإضافة إلى هذه المشكلة ، توجد مشكلة اخرى، و تتمثل في معادلة تنقل الأشـــخاص و تنقل البضائع حيث نجد دائما ، و على الرغم من تطور وسائل الاتصال و المعلوماتيـــة ، أن تنقل الأموال غير متلائم مع تنقل الأفراد الذي يكون دائما زائدا و بصفة أكيدة و كبيرة، ممـــا يطرح عدة اشكالات هامة على المستوى السياسي و على المستوى القانوني .

فمن نتائج ذلك ، ظهور التمييز العنصري غير المراقب من الناحية القانونية و كـــذلك تشجيع ظاهرة اللاّ أمن مما يستدعي آليات و إجراءات أمنية مكلفة جدا. و من هنـــا ، يـــرى باليبار ، أنه وجب التفكير في ظاهرة الاغتراب و اللجوء إلى حيث ظهرت منـــاطق دوليـــة أو مناطق عبور، في المطارات و المراسي ، فنجد اشهر الشروط للعنف المعمم و الذي على أساسه ينتدب الاغتراب الاقتصادي * بالإضافة إلى الهاربين أو اللاجئين و التوظيف المـــادي و مـــن خلال هذا ، يظهر المعنى المزدوج للحدود التي تستعمل الإجراءات المختلفة للعبور. إن الحديث هنا ، ليس من الجانب القانوني فحسب، بل هو فينومينولوجي كذلك، فبالنسبة لغني من دولـــة غنية و الذي يعتقد أنه إنسان عالمي حيث يمتلك من الحقوق العالمية ما يتعدى الحدود بالاضافة إلى حق المواطنة و الحماية و الحقوق المدنية ، تصبح الحدود بالنسبة له ، مجرد إجراءات شكلية أو نقطة رمزية للاعتراف بإطاره الاجتماعي.

أما بالنسبة لفقير من دولة فقيرة، فالحدود هي شيء آخر تماما : فهي ليست عائقا صعبا للعبور فحسب و انما هي مكان أو حائط يصطدم به دائما هذا الفقير و يعبره في حالة الطرد أو اللقاء العائلي ، فهي فضاء مكاني – زماني منحط جدا أو كما يعبر عن ذلك باليبار :" مكان للحياة التي هي انتظار للحياة أو اللاحياة " [1].

و لقد اشار باليبار أن المحلل النفساني آندريه قرين André Green ، اعتبر العيش علـــى حـــدود معينة أمرا صعبا و لكن ذلك لا يظهر أمام أن نكون نحن بأنفسنا حدودا و يعني بهـــذا

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , p 379 .

* الاغتراب الاقتصادي: يعني به ظاهرة الهجرة غير الشرعية من طرف بعض الشباب المنتمي للدول الفقيرة كدول الجنـــوب و هـــم يعـــدون بالآلاف و الذين يعرضون أنفسهم للموت من اجل تحقيق أمنهم الاقتصادي في الدول المتطورة صناعيا. راجع باليبار ايتيان :المرجـــع نفســـه ،ص379

ما يعـــرف بالتمزق الذاتي الخاص بالهوية مثل ما يعرف عند المغتربين المنتمين لشمال افريقيا في فرنسا و هم " البور " * Les Beurs [1] .

المظهر الثالث : تنوع و عمومية الحدود

و تعني أن الحدود موجودة في كل مكان بمعنى أنه في الواقع السياسي ، هنـــاك عـــدة وظائف للعزل داخل المحيط المملوء بالحدود فيما بين الفئات الاجتماعية المختلفـــة و الحقـــوق المختلفة، و من هنا نجد تداخل للحدود السياسية و الثقافية و السوسيو – إقتصـــادية المحققـــة مؤخرا في إطار الدولة – الأمة أو في بعضها ذلك لأن بعض الحدود لم تعد موجودة في الفضاء الجغرافي السياسي و الاداري للكلمة و لكنها موجودة في كل مكان أيـــن يكـــون التفتـــيش و المراقبة كالمراقبة الطبية مثلا حيث يتم التأكد من سلامة المهاجر مـــن الأمـــراض و خاصـــة الخطيرة منها كالسيدا مثلا و هذا ما يعرف بسلطة البيولوجيا بتعبير الفيلسوف فوكو مشـــال Foucault Michel بالاضافة الى المراقبة الامنية . ان كل هذه الوظائف، كمراقبـــة البضـــائع و السلع و الأفراد و مراقبة الأمراض و الجراثيم و التمييز الاداري و الثقافي ... الخ ، كانـــت مركزة و غامضة و متعددة و لها ميول للهيمنة في فترات تاريخية معينة و هي تعبر عن جزء من الدولة – الأمة و الذي وجد فعلا حيث إقترب من نموذجه المثالي و لكن ليس كضرورة تاريخية و في هذا المعنى يقول باليبار :" تحت أعيننا و منذ أمد بعيد ، إنها تفسح المجال لعمومية و تواجدا عاما جديدا للحدود " [(2)].

و يضيف باليبار ، في هذا السياق ، أنه تظهر مشكلة جديدة و هي مشـــكلة القـــانون و يعني بها تلك القوانين و أشكال القوانين المتعلقة بالحدود و لكن مفهوم الحدود هنا ، يتعلـــق بشرط أو امكانية تعددية القوانيين اذا عرفنا الحدود بطريقة بسيطة و تبسيطية و لكن النتيجـــة كانت أن الحـــدود التي شكلت ملجأ في بعض الأحيان لحفظ شـــروط ديمقراطية و لو بصفة

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , p 379

* البور Beurs : مصدرها كلمة عربي arabe أي a-ra-beu فقلبت إلى beu-ra-a ثم beur . و يعني النسل الذي انحدر من مغتربي افريقيا الشمالية بفرنسا و يعرفون بمغتربي الجيل الثاني و احيانا بانباء المغتربين.و هناك منظمات فرنسية غير عنصرية ، تعتبرهم مواطنين فرنسيين كاملي الحقوق . و لقد استطاع هؤلاء البور من خلق ثقافتهم المغربية (المغرب – الجزائر – تونس) حفاظا منهم على هويتهم ، لكنـــهم يعانون اليوم دائما من التمييز العنصري بفرنسا . عن مقع الأنترنت:www.wikipedia-org

[(2)] - Ibid, p379 .

نسبية، فإنهـــا شكلت في آن واحد قوانين ضد الديمقراطية و منه يؤكد باليبار أن المواطنين لم يتوطنوا دائما إلا لكي يتقاتلوا، يقول في هذا الصدد :" إن الحدود كانت أداة ضد الديمقراطية ، لهذه الديمقراطية الجزئية المحدودة و التي عرفتها بعض الدولة – الأمة في فترة تاريخية معينة و ذلك بتسيير أزماتها و مشاكلها الداخلية " [1].

و يعتقد باليبار ، أن هناك إلزامية وجود الديمقراطية الراديكالية، بما أن الحدود في تزايـــــــــد و اختلاف من جديد بمعنى أن الحدود تساهم من جديد في توسيع و زيادة الفضاء الاجتمـــاعي و ليس فقط تحديده بحدود خارجية . فالمحاولة هي بين تصلب سلطوي عنيف و بكل معـــاني التمييز العنصري و بين راديكالية ديمقراطية تريد هدم المنظومة الحدودية. و يتردد، باليبـــار ، في تعيين تلك الديمقراطية الراديكالية و خاصة العالمية أو التي تتعدى على الأقل مستوى الـــوطن و ذلك بملاحقتها لعالم دون حدود بالمعنى القانوني و المعنى السياسي .

يؤكد باليبار ، أن هذا العالم ، لا يعدو أن يكون إلا ساحة للسيطرة و الهيمنة المتوحشة لتلك القوى الخاصة و التي لها نفوذ و تتحكم في سوق الأموال و التواصل و حتى التسلح و منه يتساءل حول المراقبة الديمقراطية التي تطبق على مراقبي الحدود في حد ذاتهم ؟!! بمعنى آخر حول القوانين ما فوق – الوطني ؟!!و منه ، يرى، أن كل ذلك يرجع إلى معرفة ما إذا كان هؤلاء أو أولئك سيجدون في النهاية مصالح مشتركة و لغة مشتركة و مثل مشتركة و من جهة اخـــرى، فالمشكلة تتعلق بمن سيلتقي في هذه الاماكن التي يستحيل فيها العيش و هي الحدود المختلفـــة ، و لكي يكون و يحصل اللقاء ، يرى باليبار ، انه لا بد من وجود مترجمين و وسطاء و بعضهم في نظره هم المدافعون عن حقوق اللجوء السياسي يقول :" و لكي يتم اللقاء وجـــب وجـــود مترجمين و وسطاء ، و يبدو لي أن المدافعين عن حق اللجوء السياسي هم جزء مـــن هـــؤلاء الوسطاء " [2].

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses, P380 .
[2] - Ibid, p 380 .

إذا رجعنا إلى مشكلة العنصرية في الدول الأوروبية ، سنجدها مرتبطة بنوع من الحدود تسمى الحدود الداخلية للديمقراطية و هذه سنتطرق لها في المبحث الثاني، و لكن ما نؤكد عليه هنا هو معاملة جزء من المواطنين الأجانب في المجتمع الاوروبي، اليوم ، على شكل رعايا ، يقول باليبار في هذا الصدد :" إن الدول الوطنية – الامبريالية لم تكن لديها مواطنين فقط بل و رعايا كذلك " [1] . كما يؤكد في مقام آخر ، ذلك بقوله :" إن البنية الاستعمارية المتواصلة لبناء الاجتماعي الفرنسي لها نتيجتان : إنها تسجل العنصرية في الدولة على الأقل أن العنصرية تفسر بعوامل تاريخية اجتماعية و سياسية . إن العنصرية في فرنسا لها طبيعة استعمارية، ليس بمعنى " تعايش" الماضي ، لكن بمعنى إنتاج مستمر لعلاقات حالية " [2] .

أما النتيجة الثانية ، فتتعلق بالإستعمار الداخلي و الذي يشكل حاجزا داخليا و الذي لا يزال قائما على الرغم من تلك التحولات المتعلقة بالحقوق الاجتماعية و المهنية و كذلك السياسية و القانونية و في هذا المجال يقترح ثورة داخلية تتعلق بمحو الإستعمار المحلي ، يقول :" إنه أكثر من عملية محو " للآثار " ، فهو عملية حقيقة لمحو الاستعمار الفرنسي و الذي يجب أن نتكلم عنه اليوم ، و ذلك باعادة طرح قضية البناء الوطني و الذي يستدعي دائما التعايش بين شعبين لهما حقوقا غير متساوية، فالأول مسيطر (سيد) أما الثاني فهم رعايا مسيطر عليهم " [3].و لقد أكد باليبار ، من خلال هذا النص ، على فكرة التحرر من الاستعمار الجديد أو ما سماه بالآبارتايد الجديد و هو شكل من أشكال العنصرية – القانونية و الثقافية – و هذا ما سنحلله في الفصل الثالث .

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses, P 375 .
(2) - Balibar Etienne, les frontières de la démocratie , p 61 .
(3) - Ibid, P 65 .

المبحث الثاني : الحدود الداخلية للديمقراطية : خطابات فخته نموذجا

ان الحدود ليست على المستوى الجيوسياسي فحسب بل تتعداه الى المستوى السياسي ، فتنتقل من الحافة الى وسط المجتمع ، وهنا يصبح الكائن الانسان ،في حد ذاته ، يشكل حدودا للديمقراطية وهي من أصعب الحدود، لأنها ترجع الى عوامل نفسية ،اجتماعية ،تاريخية و ثقافية. و لعل خطابات الفيلسوف الألماني فخته تشكل اطارا فلسفيا صادقا لهذه الحدود .

المطلب الأول : فخته و موقعه من الحدود الداخلية للديمقراطية

إن البحث في الحدود الداخلية للديمقراطية يجرنا بالضرورة الى تحليل و مناقشة بعض خطابات الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فخته التي توجه بها للأمة الألمانية سنة 1807 – 1808 ، و منه فالفلسفة السياسية الفختوية اتخذها باليبار من اكبر المحطات في الثقافة السياسية المعاصرة ، حيث يرى أن القليل من المفكرين منذ قرن و نصف تقريبا ، ممن تساءل حول وضعية هذا الفيلسوف : ان كان من دعاة الحرية او من دعاة النظام الشمولي؟! إن كان من المدافعين عن اللاعقلانية أو من دعاة المذهب العضوي إذا لم نقل العنصرية ؟!.

إن عبارة " حدود الديمقراطية " لها وظيفة مركزية و تعطينا امتياز حيث تعطي في حد ذاتها مجموع مركز للمتناقضات و السبب يرجع لثنائية المعنى للحدود ، فهي ما يغلق أو يحبس من جهة و من جهة أخرى هي مجال للتلاقي و للعبور و للتواصل و من جانب آخر تشكل الحدود العائق لكل آت و نقطة انطلاق و توسع في آن واحد . فغموض معنى الحدود الداخلية أو تأويل معناها جعلها تعين الحد اللا معين لكل الحدود ، فيمكن أن تُفهم على أنها ما يفصل داخليا اقليما معينا أو امبراطورية إلى مجالات محددة أو أنها ما يعزل منطقة عن محيط معين...الخ[1].

يرى باليبار ، أننا إذا فكرنا في هوية و انتماء شعب معين أو أمة معينة فإن الحدود الداخلية تشير بالضرورة إلى إشكالية الأصالة و النقاء و منه فهي تضع اليد على عدم يقينية الهوية ، يقول باليبار :" هذا و فيما يكون الداخلي مدخول أو مزور بعلاقته بالخارجي و الذي نسميه هنا بالغريب أو بكل بساطة التفكير دون تواصل معه " [(2)].

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , P 134 .
[(2)] - Ibid, p 134 .

و من هنا ، يتضح لنا أن ما قد نعتبره حد داخلي يمكن أن يكون في بعض الأحيان متداخلا مع ما هو موجود في الخارج أي خارج الحدود لأن التواصل قد يكون مباشرا أو غير مباشر عبر قنوات أخرى و هذه المعاني موجودة في بعض نصوص فخته منها ما جاء في خطابه الثالث عشر أين اختصرت دروس المجموع العام حيث تدخل في علاقة مباشرة مع المعايشة التاريخية الحالية حيث رفع فخته نداء إلى سامعيه و من خلالهم إلى الأمة الألمانية إذ يقول: " إن الحدود الأولية ، الحقيقية و الطبيعية للدول هي دون شك الحدود الداخلية ، فمن يتحدث نفس اللغة ، هو قبل كل شيء،انساني ، و الذي هو مرتبط بصفة اجمالية بطبيعة واحدة، بتعدد الروابط المخفية ، و هذا يفهم بصفة متبادلة و يكتسب صفة فهم ذاتي دائما واضح، و هذا ينتمي إلى نفس المجموع ، و هو بصفة طبيعية واحد و يشكل كل واحد لا ينقسم "[1].

يتضح لنا أن الحدود هي حدود داخلية لأنها حقيقية و طبيعيةحيث يدخل الفيلسوف عنصر اللغة التي تكتسي طابعا انسانيا، فمن يتكلم نفس اللغة يشكل حدودا داخلية، لأن كل ذلك محكوم بمجموع يتمثل في الطبيعة الواحدة رغم تعدد الروابط الخفية و كل ذلك حسب الفيلسوف يصبح واضحا لأنه ينتمي الى نفس المجموع المشكل للكل الواحد الذي لا يقبل القسمة أبدا. و معنى ذلك أن الشعب الألماني عند فخته هو كل واحد لأنه نقى يقول : " إن مثل هذا " الشعب " لا يقبل داخله أي عنصر آخر ذو لغة مختلفة و من جهة مختلفةو إرادة الاختلاط معه دون ان يكون غير موجه و دون أن يقلق و بعنف استمرارية التقدم لثقافته" [2].

و نفهم من هذا النص ، أن الشعب الحقيقي ، و النقي و الصافي حسب فخته ، لا بد أن يكون له مواصفات خاصة، منها أنه لا يختلط ببقية الشعوب التي تتكلم لغات أخرى و تأتي من جذور عرقية أخرى غير حقيقية و لا نقية و اذا حصل الاختلاط فذلك سيؤدي إلى

---

(1) - Reden Andie Deutsche Nation , Fichte , Traduction Balibar, Discours 13 eme , 1807 – 1808 .
(2) - Balibar Etienne , la crainte des masses , P 134 .

إقلاق و تعطيل التطور الثقافي و استمراريته للشعب بالاضافة إلى سوء توجيهه في المستقبل يقول فخته :" فمن الحدود الداخلية ، هذه المسيطرة من الطبيعة الروحية للإنسان ، اين يختصر فقط منحى الحدود الخارجية و سكنها ، الذي ليس الا النتيجة :يجب النظر الى الاشياء وفقا لطبيعتها و البشر لا يشكلون أبدا شعبا واحدا و فريدا ماداموا يسكنون بداخل بعض السلاسل الجبلية و الوديان و لكن بالعكس الناس يعيشون معا ، محميين بواسطة الوديان و الجبال إذا كانت أموالهم أوجبت ذلك ، لأنهم يشكلون شعبا فريدا طبقا لقانون طبيعي عال وسام إلى أقصى حد " [1].

و ما نفهمه من هذا النص، أن الحدود الداخلية تكمن أساسا في داخل الانسان أي في جانبه الروحي و الفكري و هي التي تحدد خط الحدود الخارجية الجيوسياسية و السياسية كذلك، كما أنه لا يكفي السكن على حدود طبيعية واحدة لتكوين و تشكيل شعبا فريدا و واحدا بل بالإضافة إلى وحدة المنطقة الجغرافية التي يسكنها الشعب ، فإنه يجب توفر القانون الطبيعي السامي من جانبه الروحي و ذلك قصد تكوين الشعب الواحد الفريد .و من هنا نلمس النزعة القومية لدى فخته التي ينادي بها قاصدا الأمة الألمانية و التي يجب أن تكون من جذور عرقية صافية و اللغة الواحدة بالاضافة إلى أن الشعب يشكل كلا واحدا لا يقبل التفرقة و الانقسام. حقيقة ، إن الحدود الداخلية للديمقراطية ، هي ذات طابع نفسي ثقافي و تاريخي ، تتعلق بهوية شعب و إنتمائه ، و هي موجودة في كل مكان كما عبر عن ذلك فخته بقوله : " هي حدود غير مرئية ، موجودة في كل مكان و في اللامكان" [2].

إن الاستعمار ، بالأمس، ترك آثاره واضحة على مستوى الذهنيات و على مستوى الحقوق و أدى إلى ظهور أزمة الدولة – الأمة فظهرت تفردات جيوسياسية في أوروبا و التي ضيقت أكثر من مفهوم و مجال الحدود و منه فبأي مستوى من الاستقلالية الوطنية يمكن أن

---

[1] - Reden Andie Deutsche Nation , Fichte , Traduction Balibar, Discours 13 eme , 1807 – 1808 .
[2] – Ibid, P 134 .

تصبح بها هذه الحدود الفائقة قابلة للتلاحم و ذلك بمراعاة وظيفتها العسكرية و الاقتصادية و الايديولوجية و الرمزية ؟ يرى باليبار ، أنه بهذه الانقسامات الداخلية ، الاثنية ، الاجتماعية، الدينية ... الخ، لكل دولة – أمة ، تكون المسألة مقلقة فعلا و هي غير مصرح بها ، و تكون تقريرية لتحديد الحدود الوطنية و التي لها مقاومة لكل تغيير أوروبي ،و لذا فالحدود في أوروبا في تزايد مستمر في الحاضر و غير محدودة أو معرفة جغرافيا يقول في هذا الصدد المفكر داشوجان بيار :" إن الحدود الأوروبية هي من الناحية الجغرافية غير " غير محددة " " و من الناحية التاريخية هي غير معروفة " ، سياسيا هي " في نمو "... " [1].

فإذا كانت الحدود السياسية في نمو مستمر بمعنى أنها تتزايد ، فأين نضع صفاء و نقاوة الأصل للشعب كما وضعها فخته في الشعب الألماني Urvolk ؟ و كيف يتشكل الشعب في نظر فخته ؟ لقد حدد فخته أربع نقاط أساسية فيما يشكل الشعب و هي :

1- الوحدة الطبيعية للشعب و التي تكون الدولة و تشكل كلا واحدا لا ينقسم و هي غير إقليمية ترابية لكنها لغوية .

2 – اللغة هي جوهر الترابط الاجتماعي لأنها تشكل العنصر الوحيد للتفاهم و التواصل لكل الأطراف المشكلة للكل الواحد .

3- طبيعة الجانب الطبيعي للغة هي روحية و من هنا فإن الحدود اللغوية أو الحدود التي تظهر بواسطة الهوية اللغوية هي " حدود داخلية " و ليست حدودا خارجية .

4- ان الجانب الخارجي يستطيع أن يؤثر سلبا على الجانب الداخلي حيث أن الخليط المتنوع و المتعدد التاريخي و الثقافي للشعب يهدم الهوية الروحية بمعنى تاريخ شعب معين و يغلق عليه مستقبله [2].

---

(1) - Dacheux Jean – Jean – Pierre , les frontières tsigane de l'Europe , P 1 sur 5 .

2 - Balibar Etienne , la crainte des masses , p 135.

نفهم من هذا ، أن اللغة عند فخته تشكل المحور الرئيسي و أساس كل ترابط روحي للشعب كما أنها الوسيلة الوحيدة للتكافل و الوحدة الاجتماعية للشعب و ما يهمنا أكثر هي الحدود اللغوية أو بتعبير آخر الهوية اللغوية التي تصون و تحفظ أصالة و هوية الشعب و لذلك يرفض فخته كل ما هو غريب و خارجي و يعتبره عنصرا هداما لهوية و حقيقة الشعب الألماني و لذلك ارتبط مفهوم الحدود اللغوية عند فخته بمفاهيم فختوية خاصة مثل : Ursprache الذي يعني اللغة أو الأصل اللغوي و Urvolk الذي يعني وحدة العرق و الأصل للشعب و اللغة .لكن : هل الاختلاط بين الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة و التي هي جذور عرقية مختلفة سيؤدي حقا إلى تعطيل التطور الثقافي و استمراريته ؟ و هل ذلك سيضرب وحدة الشعب و الدولة معا ؟ ألا يمكن أن يشكل الاختلاط عاملا ايجابيا للتطور بحكم التنوع و الغنى الثقافي ؟ إن الشعب الامريكي USA عبارة عن خليط من الاجناس البشرية و اللغات و الثقافات و الأديان و على الرغم من ذلك فامريكا هي أكبر قوة عالمية في جميع المجالات حتى انها تصدر ثقافتها الأنجلوساكسونية إلى الخارج . فما هو السر في ذلك؟ أليس ذلك راجع إلى الفلسفة البراغماتية المعتمدة هناك و التي شعارها هي المنفعة و المصلحة الاقتصادية قبل كل شيء، يقول المفكر بوربلان :" الولايات المتحدة أصبحت القوة الوحيدة العالمية ، إقتصاديا ، سياسيا ، ثقافيا، أمريكا يجب أن تقود " [1]. كما أنه يضيف في ذات السياق :" في سنة 1999، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية، هربارت فيدرين ، وصف الولايات المتحدة " بالقوة الفائقة " في وسائل الاعلام و كذلك في مقالاته الأكاديمية ، و تكلم المصرحون عن الهيمنة لكي يصفوا الولايات المتحدة في علاقتها مع بقية العالم " [2].

لقد أراد فخته إيقاد الهمم و بعث الروح القومية لدى الألمان و دفعهم إلى النهوض ، يقول :" منهزمون ، هذا هو وضعنا و الآن هل نحن غير محترمين كذلك ؟ هل نحن نستحق

(1) - Ruano – Brobalan Jean Claude , le pouvoir,ed.sciences humaines,Paris,2002, P 181 .
(2) - Ibid, p 181.

ذلك ؟ هل نريد مع كل ما خسرنا ، أن نخسر الشرف كذلك ؟ كل ذلك لا يتعلق إلا بنا ، إن المقاومة المسلحة انتهت : لكن إذا أردنا سنبدأ مقاومة جديدة، مقاومة المبادئ و القيم الاخلاقية و السلوك " [1]. إن هذا الخطاب يعيد في أذهاننا تشابه حوادث تاريخية معينة مثل ما حدث في يوغسلافيا سابقا – ميثاق 77 – حيث أن الفيلسوف لا ينهي المعركة عند الكفاح المسلح بل يجعله في الكفاح الفكري أو ثورة الأفكار و هذا ما يذكرنا بالفيلسوف هيغل حين جمع بين الثورة و الفكر و لذلك يبدأ فخته ثورة المبادئ و الاخلاق و السلوك كبديل عن الثورة المسلحة. بالاضافة إلى ذلك يتكلم عن دور الاخلاص للوطن و الأصدقاء و عن الحس الفردي للقيام بالواجبات و كل الفضائل سواء كانت فردية أم جماعية يقول في هذا الصدد :" إلى أسيادنا : لنعطي للاحتفال باخلاص إلى الوطن و للأصدقاء و بكل صدق و إحساس بالواجب و بكل الفضائل العامة و الخاصة : ليكون عربون وداع الذي تمليه صداقتنا عندما يعودون إلى أوطانهم و هذا ما سيحصل في يوم ما " [2] .

و لكن هل تكفي نقاوة الأصل و عامل اللغة لتحقيق التطور الثقافي ؟ و هل الهوية الفختوية تصدق على الأمريكان اليوم ؟ و كيف نتعامل مع مفهوم الإنسان السياسي العالمي (الكوسمو بوليتيزم) ؟ للإجابة على هذه الأسئلة، يكفي أن نتمعن فيما وقع بيوغسلافيا من حروب أهلية، بين أفراد الشعب المشكل لدولة واحدة، فقد يرجع ذلك إلى الاختلاف العرقي كما يظن حاملوا السلاح و كذلك الاختلاف اللغوي و الديني على الرغم من توفر عناصر ثقافية مشتركة، فلقد كتب الصحفي ديرانس جان أرنو في مقال عنوانه : ذكريات في التجديد الديمقراطي ما يلي : " على بعد بضعة كيلومترات من مدينة بريستينا عاصمة كوسوفو، إثنان من الأماكن الذكرى يتقابلان، الأولى قلعة تجسد معركة كوسوفو بولج التي ضاعت يوم 28 جوان من سنة 1389 بواسطة جبهة الشعوب المسيحية للبلقان و التي قادها الأمير السربي

(1) - Balibar Etienne, la crainte des masses, P 135.
(2) - Ibid, P 136.

لازار هريبا لزانوفيتش ، ضد الغزاة الأتراك، في هذا المكان الذي دارت فيه المعركة ، المسمى كازيماستان حيث ألقى السيد سلوبودان ميلوزوفيتش، يوم 28 جوان 1989 خطابه المتعلق ببعث الوطنية السربية و ماضيا بالفعل نفسه موت يوغسلافيا، أمام حوالي مليون من السرب"[1].

و من خلال هذا النص ، نكتشف الجذور التاريخية لأزمة كوسوفو حيث بدأت بالحرب ضد الغزاة الأتراك لكنها انتهت بحرب أهلية،اساسها الاختلاف الديني ، يقول المرجع نفسه : " عشر سنوات فيما بعد ، يوم 28 جوان 1999 ، السيد بافل بطريرك الكنيسة الأرذوذكسية السربية، أحيا في المكان نفسه البراستوز (حفل ذكرى) للأمير لازار امام مجموعة من المؤمنين، تحت حماية محدودة لجيش منظمة حلف الشمال الأطلسي (OTAN) التي دخلت كوسوفو " [2]. و من خلال هذا ، لا تزال كوسوفو ، نقطة ساخنة بالنسبة للبلقان و السرب و الألبان و حتى بالنسبة لشعوب أخرى مرت عليها حيث جاء في المرجع نفسه :"بعد ست (06) سنوات من القصف من طرف منظمة حلف الشمال الأطلسي ربيع 1999 ، فإن كوسوفو تمثل دائما المقر الوحيد للضغط بالنسبة للبلقان. إن الانسدادات السياسية تحيل إلى قراءات مختلفة لتاريخها : إن كوسوفو تقع في مفترق الذكريات المتناقضة للبلقان، الذكرى السربية و الذكرى الألبانية ،و بكل تأكيد ، لكل الامبراطوريات و لكل الشعوب التي التقت بها كذلك " [3].

و منه ، فإن نظرة فخته لمسألة وحدة الأصل العرقي و اللغوي تصبح صادقة في المحافظة على وحدة الأمة و سلامة الدولة من الحروب الأهلية ، فما حدث في كوسوفو ، يرجع بالأساس إلى الخليط الجنسي التاريخي الذي مر عليها بالاضافة إلى الاختلاف الديني.

إن فخته ، يرفض عدم الاحترام الصادر عن أعداء الأمة و يرفض كذلك ذلك الخوف

---

(1) - Derens jean-Arnault , les memoires de l'innovation démocratique, le Monde diplomatique, juillet 2005, n 616.
(2) - Ibid, P 24.
(3) – Ibid, p 24.

القائم في نفوس مواطنيه و هو خوف مبالغ فيه طالما أنهم يرفضون التغير و التغيير و يبقون دائما يتشبهون بأعدائهم الذين يرفض أن يجرى معهم علاقات إلا ما تفرضه الضرورة و المصلحة يقول :" لكن ما يكون طريقة فعالة ، هو أن نسير دائما في طريقنا حيث تكون لدينا قضية ، كما لو كنا وحدنا مع أنفسنا و لا نقيم " معهم" علاقات أخرى إلا ما كان مفروضا علينا بحكم الضرورة " [1].و يعطي فخته طريقة فعالة للوصول الى الهدف المنشود حيث يدعو كل واحد إلى التمسك بتلك الروابط الوطنية التي تمكنه من تحقيق أهدافه و أن يحمل ثقة تلك المسؤولية كما يجب عليه أن يرفض كل امتيازات من الخارج لأنه يشكل بالنسبة للأمة الألمانية الحط من قيمتها و يطعن في شرفها يقول :"لدينا لأجل ذلك طريقة فعالة : كل واحد يكتفي بما تضمنه و تحققه له العلاقات الوطنية القديمة ، و أن يحمل المسؤولية الواحدة بكل قواه و أن يعتبر كل امتياز آت من الخارج هو طعن في الشرف و حط من القيمة " [2].و من هذا النص ، يتجلى الجانب الاخلاقي الذي يحملنا إلى الحدود الداخلية و التي يمكن أن تقرأ أو تسمع بطريقتين مختلفتين مما يجعل الغموض و احتمال التأويل قائما .

الأولى : على مستوى الحدود الخارجية : هشاشة سيادة الدولة الألمانية التي تم هدمها و تجاوزها حيث ما فعله نابليون بونابارت في برلين حين ضم جزء من المانيا الى كونفيدرالية الراين يدل على ذلك و منه تبقى الحدود الخارجية لا تشكل مصدر قوة الألمان و وحدتهم .

الثانية : على مستوى الحدود الداخلية : إنها تتعلق بقدرة الإنسان الألماني و هي حدود غير قابلة للعبور أبدا ، فبلغته و ثقافته ، كل فرد الماني يحمل في نفسه كا ما يوجد في مجتمعه بالاضافة إلى أن كل فرد مسؤول بصفة شخصية ، بسلوكه الأخلاقي ، عن كل مجتمعه ، لكن كيف ذلك ؟

يرى فخته ، أن الالمان ، إذا كانوا يعيشون لوحدهم كما لو كانوا فيما بينهم فقط ،

---

(1) - Balibar Etienne , la crainte des masses, p136.
(2) - Ibid, p 136 .

فثمة " حدود غير مرئية " تفرقهم عن المستعمر ، فكل ذلك سيرد إلى الداخل في مجال هو في كل مكان و لا مكان . فالحدود الداخلية تمر أولا في فكر ثم روح كل ألماني الذي يفرق بين الخضوع و العزة، الخضوع للأفكار الأجنبية و الغريبة على الجرمانية التي يجب الدفاع عنها و ذلك بمحاربة أنفسنا من الداخل [1] .

إن القوة الحقيقية للكل هي داخلية فهي تحضير أو تسلح فكري الذي يسبق و يقيد كل تسلح عسكري مثلما أن التخطيط التربوي الألماني الذي هو في قلب نظام اعادة بعث ألمانيا ، فكل ذلك يسبق كل مقاومة حربية عسكرية لأن الحرب في الحقيقة ما هي إلا تكملة للسياسة و لكن بطرق أخرى أو لنقل أن الحرب لا تستمر إلا إذا أسست السياسة على جانب روحي مدني حيث أن العسكر هم مواطنون لمجتمع أخلاقي لأن الوحدة السياسية لألمانيا عند تأسيس دولة وطنية ، تستدعي أولا فكرة الوحدة الروحية و منه فتسطير الحدود الداخلية للحرية هو شرط لتحرير الحدود الخارجية و التي تأتي في وقتها [2] .

إذن ، يركز فخته على الهوية الأخلاقية و التي لها ملجأ واحدا و بصفة دائمة و هي " الذات " الخاصة بالألمان ، و هذا الملجأ هي الرابطة غير المرئية التي تنسجها الروابط اللغوية و هي وحدة غير مرئية تسمى Kulturnation .

لقد أعتبر ، فخته ، أن الحدود الداخلية ، حدود تمر أولا في فكر و روح كل فرد ألماني الذي يميز تمييزا عميقا بين الخضوع و العزة حيث يجب عليه الدفاع عن الجرمانية و ذلك بمحاربة أنفسنا (نفوس الألمان) من الداخل ، كما دافع عن فكرة : أن السياسة تبنى على جانب روحي، فالوحدة السياسية لألمانيا تستدعي أولا فكرة الوحدة الروحية.

إن خطابات فخته السالفة الذكر ، جاءت في فترة تاريخية خاصة حيث كانت ألمانيا تعيش أزمة و الغاية منها أن الهدف الانساني لا يمكن بلوغه إلا بالنوع الانساني و منه فمن حالة

---

[1] - Balibar Etienne, la Crainte des masses , p 137 .
[2] - Ibid, p 138 .

كل فرد يمكن تكوين ثقافة وطنية ، لقد جاء في مقال للمفكر ما سشالك مارك Maeschalk Marc عنوانه : فخته و المسألة الوطنية ما يلي : " إن الوطني الفعلي ، الذي يتحدث عنه فخته ، يتكلم عن " رفضه اللامشروط للوطنية الخاصة هو ألماني قح " ، و كما ذكر به في خطاباته ، فخته هو ألماني يتوجه للألمان في حالة أزمة، إن مصلحته تبرر بمبادئ فلسفية ، و أن هدف النوع الانساني يمكن بلوغه حقيقة في النوع الانساني " [1].

إن النوع الانساني المقصود هنا يمثل عظمة و قوة الانسان الألماني و الملجأ الذي تكلم عنه فخته سابقا موجود في تلك الحقيقة الخفية لعالم الألمان الداخلي أين يمكنهم التطور بصفة دائمة دون لقاء أحد إلا ذواتهم ، و لا يصطدمون إلا بجمودهم الأخلاقي ، فالأمر هنا ، لا يتعلق باعادة اكتشاف الحدود و لكن باكتشاف الأخلاقية و السياسية . و من هنا ، توجه فخته إلى الأمة الألمانية بخطاباته من أجل تحريكها و اشعال نار الثورة فيها لكي تصون و تحافظ على حدودها الداخلية يقول في خطابه الرابع عشر :" إن الخطابات التي أنهيها اليوم ، موجهة إليكم و بصوت عال : إنها الأمة الألمانية برمتها التي يقصدها، و ينتشر على مستوى أبعد كما يحمله الكلام الألماني " [2]. و من هنا يحاول فخته تحريك ضمائر الألمان و قلوبهم بقوله :" إلى كل الذين يستطيعون فهم المعنى و الذين اجتمعوا في هذا المكان أين أراكم تتنفسون. إذا حدث و نجحت في اخراج شعله في واحدة من الصدور التي حاربت تحت أعيني، و التي تعلقت بالحياة و أوقدت قلوبكم". [3]

كما يسعى إلى جمع شمل الالمان بتذكيرهم بترابهم الواحد و يقترح عليهم حلولا و قناعات شخصية و هي مستمدة من قناعاتهم و كل ذلك في سبيل الوحدة الوطنية ، يقول في هذا الصدد :" إنه لا يجب أن تبقى لوحدها : فمن حد لآخر من ترابنا الواحد ، أريد أن أجمع قناعات و حلولا مشابهة لقناعاتكم و حلولكم ، و أن أربطها معكم لكي نتبع من هذا

---

(1) - Maeschalk Mark , Fichte et la Question nationale , toudi, décembre 1988 , n:15 , P 1 sur 5 .
(2) - Fichte , Discours a la nation Allemande , 14 eme discours , Traduction , Balibar Etienne .
(3) - Balibar Etienne, la Crainte des masses , p 140 .

المكان المركزي شعلة تفكير وطنية واحدة توحد كل شيء في فنائها و تصل إلى الحدود البعيدة جدا من التراب الوطني و تشعله كله " [1]. لقد لقت خطابات فخته تجاوبا كبيرا عند الألمان ، فلقد كان من بين الذين نظموا و حضروا حرب التحرير الوطنية سنة 1813 ، شباب تـــأثروا كثيرا بتلك الخطابات سنة 1808، و لهذا تكلـــم فختـــه عن القرار الذي وجب أن يتخذه كل الألمان و هو قرار أخلاقي و يعتبر حدودا داخلية حيث يقول :" إن القـــرار الـــذي يجـــب أن تأخذونه و الذي يجب على كل انسان تنفيذه في نفسه... ما هو مطلوب منكم هو اتخاذ قـــرار يمكن جعله معاش فورا ، حركة داخلية تدوم من غير تردد و لا برودة ، لا يمكن كســـرها أو هزمها إلى غاية الهدف النهائي"[2]. فهذا الهدف النهائي ، يكون هدفا أخلاقيا و روحيا و منـــه فإعادة بناء مجتمع ألماني بمعنى الكلمة ، يتأسس على الترابط الضروري و الذي لا يقبل الانقسام و هو عملية متبادلة بين اللغة الألمانية كلغة حقيقية و الثقافة الأخلاقية و الغاية القصوى هـــي تحقيق مجتمع روحي متحرر من كل الدوافع الحساسة مجتمع كما عبر عنه فخته " مملكة الحقوق و العقل و الحقيقة " [3].

إن هذا المجتمع ، يتطلب نوعا إنسانيا رفيعا من جميع الجوانب ، و لذلك تكلم فخته عن العبقرية الألمانية ، بنوع من الأنا المتضخمة ، المتعالية حيث يصفها في خطابه الثامن فيقـــول :

" العبقرية الأخرى تفرق ورود في المضيق المهزوم و تنسج معطفا ملائما لحكمة الحياة و التي يأخذها بجزم مأخذ الفلسفة، الفكر الألماني بالعكس يفتح مجالات أخرى ، إنه يـــدخل النور و النهار في الظلمات و يهز مجموع من الأفكار حيث تستعملها القرون المستقبلية لبناء إقاماتهم. إن العبقرية الأخرى تكون نحلة تستخدم و تقطف العسل بحكمة ... لكن الفكر الألماني يكون نسرا الذي بجناح قوي ، يرفع جسمه الثقيل و بطيران صارم و ممارس طويلا ، يصعد عاليا للاقتراب من الشمس حيث يستهويه التأمل " [4].

---

(1) - Balibar Etienne, la Crainte des masses, P141.
(2) – Ibid, P 141 .
(3) - Ibid, p 142 .
(4) - Fichte , 8 eme discours , Traduction Balibar .

ألا يبالغ فخته كثيرا عندما يضع العبقرية الألمانية هذا الموضع ؟ ما قاله عن الألمـــان ألا يمكن أن يصدق على الشعب الياباني أو الشعب الصيني أو أي شعب آخر؟ هل أصيب فختـــه بالشوفينية ؟

إن الشوفينية تعني :" هو من يدعي وطنية عمياء و مبالغ فيها "[1]. حقيقة ، إذا تأملنـــا الخطابات السابقة ، نستطيع أن نقول أن فخته أصيب فعـــلا بالشوفينية ، حيث أن كلامـــه تكسوه عاطفة جامحة بعيدة عن العقلانية و لقد قال هو نفسه عن فلسفته ما يلي :" إن فلسفتنا هي تاريخ قلبنا ، و بحسب ما نكون عليه من حال نتصور الانسان و مصيره "[2] . فإذا راعينا الطبيعة الإنسانية الواحدة ، فما يصدق على الشعب الألماني ، قد يصدق على أي شعب آخـــر بشرط أن تتوفر نفس الشروط التاريخية . و عند جمعه بين الأخلاقية و السياسة ، ألا نجد هـــذا العنصر قد توفر عند المسلمين سابقا و خاصة في الخلافة الراشدة؟! حتى أن كلامه عن التـــرابط الاجتماعي من خلال الرابطة الروحية الخفية غير المرئية ، أليس هذا ما يوحد المجتمع الاسلامي بواسطة الايمان حيث جاء في الأثر عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – عن النبي عليـــه الصلاة و السلام قال:" المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضـــا "[3]. حـــديث صحيح و عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – قال : قال رســـول الله عليـــه الصـــلاة و السلام:" مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا إشتكـــى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى" [4]. حديث صحيح . و قد وصف المفكـــر علي عبد الرازق (1888 - 1966) المجتمع الاسلامي من خلال الترابط الروحـــي و سمـــوه الأخلاقي قائلا :" **رفعت الدعوة الاسلامية شأن الشعوب العربية من جهات شتى ، و لم يكن إلا ريثما أهاب بهم الداعي إلى الاسلام ، حتى إستحالوا أمة واحدة من خير الأمم في زمانهم ، و استعدوا بمثل ما يستعد به شعوب البشر لأن يكونوا سادة و مســـتعمرين . عقيـــدة صافية من دنس الشرك ، و إيمان راسخ في أعماق النفس ، و أخلاق هـــذبها رســـول الله،**

---

[1] - Dictionnaire du francais, Hachette , ENAG, Algerie , 1992 , p 77.

[2] - طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1979 ، ص 483 .

[3] - محمد عبد العزيز الخولي ، كتاب الأدب النبوي ، تحقيق عبد المجيد طعمه الحلبي ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الثالثة ، 2000 ، ص 59 .

[4] - المرجع نفسه ، ص 121 .

و ذكاء أئمته الفطر السليمة ،و نشاط أمدهم به الطبيعة ، و وحدة في الله قاربت منهم ما تباعد ، و لاءمت ما تباين ، و جعلتهم في دين الله إخوانا ، ذلك شأن العرب يوم مات رسول الله عليه الصلاة و السلام"[1].

أليس هذا دليل على الوحدة الروحية للمسلمين التي تحققت عبر التاريخ و جعلت من الأمة الاسلامية سيدة على جميع الامم الأخرى؟! و من خلال هذا، يتضح لنا دور الاخلاقية التي تكلم عنها فخته في توحيد الشعب و جعله وحدة واحدة .

إن الطموح الداخلي للشعوب ، للأمن و السلام العالمي، و طموح الألمان الداخلي للحرية ،لا يشكلان طبيعة مختلفة ، لأنها حادث روحي واحد حيث يكون معنى التاريخ حاضر، فهذه الوحدة لها من الشروط الايجابية ما يجعل الأشكال الخارجية للهوية الألمانية قابلة للتنفيذ و هي في الحقيقة على علاقة بتلك المرحلة التاريخية. إن المفتاح يكمن في معنى و دلالة " المهمة العالمية " للأمة الألمانية بموجب الترابط الموجود بين خصوصية الشعب الألماني و هذا الانتخاب التاريخي الفريد من نوعه و كل ذلك في فائدة عالميته و علامات الانتخاب التاريخي يمكن البحث عنها من خلال عدة حوادث تاريخية ، يقول باليبار في هذا الصدد :

" مقاومة الجرمان ضد الرومنة، الحريات المدنية للمدن الألمانية، الاصلاحات اللوثرية، صرامة الفلسفة الألمانية ، لكن لا يحملون معنى إلا منذ اللحظة الحاضرة للأزمة الراديكالية"[2].

و ما يحرك هذه الأزمة في نظر فخته من الجانب السياسي ، هو ذلك الصدام الموجود بين مبدأين سياسيين في أوروبا : الامبريالية و التوازن الأوروبي ، حيث يظهر و لأول مرة امكانية نظام آخر و هو نظام سلمي بصفة طبيعية ، و من الجانب الاخلاقي ، فهي تمهد لفكر جديد و ذلك بثورة تعيد خلق الانسان .

و يرجع فخته الى موضوع الدولة التجارية المغلقة ، على شكل تسبيق للتخطيط الاشتراكي و الوطنية الاقتصادية ذلك لأن موضوع الدولة التجارية المغلقة هو موضوع مزدوج،

---

(1) - عبد الرازق علي ،الاسلام و أصول الحكم ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر ، 1988 ، ص 110 .

(2) - Balibar Etienne , la Crainte des masses , p141 .

حيث أن السلام الاجتماعي الداخلي و السلام العالمي الخارجي يصطدمان بعائق واحد هو القدرة المالية: فالانتشار اللامحدود للتجارة و بالأخص التجارة العالمية هو شكل آخر للامبريالية. إن تجاوزات الدولة التجارية المغلقة (كحذف حق ملكية الأراضي باسم حق العمل الذي هو مضمون من طرف الدولة و كذلك غلق الحدود أمام كل التنقلات – الأشخاص و البضائع – باستثناء بعض العلماء و الفنانين المسؤولين عن تنظيم التبادل الثقافي)، و هذا الأمر يبرز لنا عدة أصول إيديولوجية و هذا ما يفسر، عندما نحلل نتيجة توصل إليها فخته حيث يتهاجم على مبدأ يجمع بين اللامساواة و الحروب، فمن جهة يوجد تقسيم العمل و ما يتبع من الملكية التجارية و تضاد الظروف الاجتماعية ، و من جهة أخرى يوجد التناقض الاقتصادي للدول التي أصبحت دول اقتصادية مفتوحة " حيث أن الاستعمار هو لحظة تاريخية مهمة " [1].

إن غلق الحدود بقرار سلطوي هو وسيلة للقضاء على العملة النقدية العالمية – كتفريق العملة النقدية الداخلية عن العملة النقدية العالمية – و منه القضاء على الفضاء العالمي لتراكم رأس المال و منه يجب ايجاد حل لهذه المشكلة المزدوجة و في مرة واحدة يقول باليبار :" عند المواجهة بين الدولة التجارية المغلقة و الخطاب الموجه للأمة الألمانية نستطيع أن نخرج بدرس مهم جدا و يتعلق بالأسباب التي على أساسها يبني نقده للكوسموسياسي " [2].

إن مفهوم الكوسموسياسي يعني :" هو الذي يعلن أنه مواطن عالمي ، و يرفض أن يبقى محصور في إطار ضيق للانتماء إلى أمة معينة" [3].

و من هنا يتضح لنا ذلك التضاد بين الحدود الداخلية في علاقتها بالكوسموسياسي أو السياسي العالمي و هذا ما سنراه لاحقا .

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p143 .
(2) - Ibid, p 144.
(3) - Dictionnaire du Francais , p 144 .

المطلب الثاني : الحدود الداخلية و الكوسموسياسي

يظهر مفهوم الكوسموبوليتيزم على أنه العالمية إذ يتعدى كل الحدود التاريخية كما يظهر على أنه " الإنسانية " إذ يتعدى الفوارق الاجتماعية ، سواء كانت للأقلية أو للاغلبيـــة . إنـــه مظهر إيديولوجي ، حيث أن الحقيقة تكمن في تلك الاعمال و التصرفات التي تنجـــز باســـم الكوسمو سياسي ، لأن ما يقع ، هو أنه من جهة يفرض " لغة عالمية " في الفلســـفة و العلـــوم لجميع الشعوب ، و من جهة أخرى يشكل قانون الفصل بين الشعب البسيط ، و هو الأغلبية، و الطبقة المثقفة لجميع الأمم، و الاجراءان هما بطبيعة الحال مرتبطان، إنه إســـتيلاب مـــزدوج للمثقفين و للشعب البسيط لأن البعض لا يشعر بشيء بما يتكلم أو يقول بلغة أجنبية (مفاهيم فارغة) و البعض الآخر لا يعرف شيئا من الناحية العقلية لما يشعر به (حدو ســـهم عميـــاء) و يصبحون أجنبيين بالنسبة لتفكيرهم في حد ذاته [1]، يقـــول باليبـــار :" إمبرياليـــة حديثـــة (نابليونية) و ليبيرالية إقتصادية أو كوسموسياسي " على طراز فرنســـي " و " علـــى طـــراز إنجليزي"، هذان الشكلان لتحلل و اختلال التوازن الأوروبي حيث أن اللاتناسق المتبادل يوضح الأزمة الحالية، و يبعث من جديد الحرب، فهما يشكلان ظاهرتين من طبيعة مختلفة " [(2)].

و من خلال هذا النص ، يبدو أن هذين الشكلين و المتعلقان بالأزمة الأوروبية الحاليـــة، هما شكلان للتعبير الخارجي و للرابط الاجتماعي أين " الذات " تضيع و تبحث عن نفســـها ، دون جدوى خارج الذات ، و هذا الاستيلاب يبدأ بفيتيشية الملكية سواء تعلق الأمر بالتوســـع الجغرافي للدولة أو بالامتلاك الفردي للأرض كما يعبر عن ذلك باليبار :"وضع الكائن و مـــا لدينا للكائن و ما يستعمل بالكائن للشيء و هو شيء في عالم الأشياء للكائن بالفعل"[(3)]. مـــا يهمنا في هذا ، هو أن هذا الشكل هو الذي يعطي للألماني مهمة عالمية من خلال وضعية تاريخية حيث الواقع الأمبريقي يصطدم بحدوده الداخلية ، فبالنسبة لألمانيا ،هو ضياع أو إعادة بعـــث أو إحياء على مستوى آخر ، أما بالنسبة لأوروبا ، فهي حرب شاملة أو إعادة التـــاريخ علـــى أسس و مبادئ أخرى. إنها تريد تكوين أمة، أمة أفكار موحدة حول مبدأ أخلاقي و أســـاس سليم ، إنها ستعطي مثال تاريخي حيث ستبدأ مرحلة جديدة [4] .

---

[1] - Balibar Etienne , la crainte des masses , p 145 .
[(2)] - Ibid, p 145 .
[(3)] - Ibid, p146 .
[3] - Balibar Etienne , la Crainte des masses , p 146 .

لقد أراد فخته، أن يجعل من الشعب الألماني أصل كل الشعوب الأخرى و شعب أصيل في حد ذاته لأنه شعب بامتياز ، و لكن ألا تقتضي هذه العملية أولوية سياسية؟ إن تعريف الجرماني، لا ينفصل عن اللغة الألمانية، كلغة أصيلة أو كلغة أولى حيث ربط فخته بين الهوية و الأصالة الوطنية و اللذان تم تحريكهما بواسطة السياسة اللغوية للدولة الوطنية و التي كانت تشكل مطالب للحركات " المواطنية " و التي ستظهر على شكل الحقيقة الوطنية ، يقول فخته " الشعب الأصيل أو الشعب المتأصل هو شعب اللغة المتأصلة " [1]. و من خلال ذلك ، فإنه لا توجد حتمية جغرافية أو جيوسياسية مما يجعل اختلاف المعاني موجودا بين التاريخ الألماني و تاريخ الشعوب الآتية من طبقة جرمانية و القضية لا تتعلق بأصالة البعض بالموازاة مع هجرة البعض الآخر و لكن ذلك بعلاقته بالأصل اللغوي . و لقد كتبت الفيلسوفة حنا آرندت * Hannah Arendt :" الحدود الأولى هي طبيعية، و هي كل ما تتحصل عليه الأرض من طرف أمها، أما الثانية فهي اللغة ... فالأرض التي تسمى اليوم " توتوني " يجب أن تملك الراين لوحدها ، و الأم من جهة أو من جهة أخرى للراين على شكل حدود طبيعية " [2]. و من خلال هذا النص ، ندرك موقف الفيلسوفة حنا آرندت ، أنها تدافع عن ألمانيا من حيث حدودها الجغرافية كما تدافع عنها من حيث اللغة الألمانية التي تجعلها كذلك حدودا داخلية و كذلك عند فخته، فالشعب ليس هو الأرض و إنما هو اللغة التي يحملها الناس معهم، فالوحدة الوطنية لها طابع أنثروبولوجي و ليس إكولوجي لأنها تكمن في نوعية الروابط المعاشة بين الناس[3].

---

(1) - Fichte , 6 eme discours , Traduction Balibar Etienne .

(2) - Hannah Arendt , qu'est – ce – que la politique , ed. du seuil, Paris , 1995 , p 119.

* حنا آرندت : (1906 – 1975) فيلسوفة و اختصاصية في النظرية السياسية . طرحت تساؤلات جديدة تتعلق بمفاهيم سياسية اساسية كالديمقراطية و السلطة و العنف و التسلط و السيطرة ... لها موقف نقدي من الديمقراطية الأمريكية المعاصرة من مؤلفاتها : عن الثورة (1967) ،أزمة الثقافة (1972) ،أصول التوتاليتارية(1951). راجع جورج طرابيشي ،معجم الفلاسفة ،ص09.

3 - Balibar Etienne , la Crainte des masses , p 147 .

إن مفهوم الاقليم و الحدود كانا مرتبطان بمفهوم السيادة أما الحدود الطبيعية فهي حدود إنسانية لمجتمع لغوي تلقائي حيث أن الحدود الترابية هي دائما حدود سياسية (بمعنى حدود دولة معينة)، تلك الحدود تبعثنا لإستعمال القوة، و هذه الافكار تعدل من أطروحة الدولة التجارية المغلقة و التي تطالب بالدولة التاريخية كمرحلة انتقالية نحو " دولة العقل " و منه تكوين حدود طبيعية (جغرافية) فتجعل من المعنى نسبيا [1].

و لكن فيما تكمن هذه الوحدة الجماعية و المجتمع الانثربولوجي ؟ إن الوحدة الانثربولوجية كما يرى فختـه ليست جنيالوجية و هنا يعارض كانط إمانويل Kant Emmanuel الذي يعطي للغة و للوحدة اللغوية قيمة أخلاقية و لكن يتبعه في التمييز التام لمفهوم " العرق " و مفهوم الشعب كما أنه يعارض وجود رابط تاريخي بين الاستمرارية اللغوية و الاستمرارية البيولوجية يقول فختـه :" إن اختلاف التأثيرات الطبيعية في تلك المناطق التي تسكنها الشعوب الجرمانية ليست كثيرة، ففي تلك البلدان المكتشفة، الطبقة الجرمانية إختلطت بالسكان الأوائل، حيث أن الجرمان الذين انتصروا و سيطروا أدهشوا الشعب الجديد الناتج عن هذا ، فذلك الخليط حصل على الأرض الأم مع السلافيين و في مجال كبير ، لا يستطيع أحدا من الشعوب الجرمانية – بالأصل – اليوم أن يدعى إنتماء عرقي صافي أكثر من الشعوب الأخرى " [(2)].و من هذا النص ، يؤكد باليبار عدم صفاء أي من الشعوب الجرمانية الأخرى، فالذين ورثوا لغة و ثقافة و هما يمثلان وحدة زمانية للأمة و على الخصوص الأمة الجرمانية ليست لديهم أية علاقة أساسية مع الأحفاد (الرابطة الدموية) للجرمان و السلاف، لأن فختـه يدخل عنصر اللغة التي تصنع الرجال يقول :" إن ما يحمل دلالة أكثر ، و ما هو حسب رأي يؤسس تعارض قائم بين الألمان و الشعوب الأخرى من أصل جرماني ، هو التحول الثاني، المتعلق باللغة ... و التي لا تتعلق بالأجداد و الذين لا يزالون يتكلمون اللغة

[1] - Balibar Etienne , la Crainte des masses , p 147.
[(2)] - Ibid, p 148 .

الأصل و لكن فقط كون هذه اللغة لا تزال دائما متكلمة دون انقطاع لأن ليس الرجال هم الذين يصنعون اللغة و لكن اللغة هي التي تصنع الرجال " [1]. إن ما جاء به فخته يقلب مفهوم الأصل و الذي يطلق على الألمان فهو يريد إعطاء لهذا المفهوم معنى آخر حيث يضع الألمان و ثنائية الألمان و الإغريق في التعدد المتساوي للمنابع الثقافية ، وطنية – شعبية ، و التي دافع عنها الفيلسوف الألماني هردر يوهان غوتفريد Herder Johann Gofried (1744 – 1803) حيث تكلم عن اصل اللغة و أكد أنها تنفرد بقاعدة علمية يقر فيها بقيمة العقل البشري في تكوين لغة من اللغات و لقد وضع هردر مؤلفا عام 1789 – 1791 : أفكار حول فلسفة تاريخ البشرية ، رسم من خلاله لوحة شاملة لتاريخ العالم و فسر العصور المختلفة تفسيرا عقلانيا ، باعتبارها تطورا طبيعيا للانسان نحو ولادة " بشرية خالصة " ، غنية بالمعرفة و الحب، قريبة من المثل الأعلى الذي حلم به لسينغ في كتابة تربية النوع البشري، و في سنة 1797 تمنى هردر شعرا ألمانيا خالصا يكون مستلهما من الشعب [2].

إن ما يجعل الشعب على أنه شعب، في نظر فخته ، هو وجود و توفر رابط ما و هو " الأصيل " الذي ليس هو الكائن الأمبريقي للشعب و إنما هو أثر علاقته الواقعية بالأصل اللغوي حيث تتوفر إستمرارية أساسية و لكنها ليست نتيجة طبيعية لتلاحق الأجيال و لكن يجب أن يعطي معنى مفهوما و معروفا أي تاريخيا . و لكن ما هي اللغة الأصيلة ؟ و ما هو الأصيل في اللغة ؟ إن اللغة الأصيلة حسب فخته هي اللغة الحية، فاللغة الحية هي لغة صافية و خاضعة بطبيعتها إلى الكوسمو سياسي كما يرى ذلك باليبار و منه يخضعها فخته إلى ثلاث مواصفات :

1- إنها ممارسة بصفة دائمة مما يجعلها تنتج تاريخها بنفسها و تتحول بصورة مستمرة.

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 149.

2 - طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، درا الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1997 ، ص ص 699 ، 700 .

2- إنها تستند إلى التواصل المباشر بين مختلف فئات الشعب مما يجعل الشعب يتثقف بمفكرين منه ، و يسمح بهؤلاء المفكرين من فهم بعضهم البعض .

3- لديها جانب رمزي فهي تعارض تلك الاتفاقيات الناتجة عن الخليط فهي تحقق في كل حركة لغوية تلك الوحدة الضرورية للإحساس و الروح . [1] .

و من خلال هذه المواصفات، نستنتج الأصيل في اللغة ، على أنه يتعلق بالابداع اللغوي الذاتي لأن اللغة في تطور مستمر و تنتج تاريخها بنفسها من داخلها بالاضافة إلى جانبها الرمزي حيث انها ترفض كل خليط لأنها تتعلق بالجانب الروحي للشعب و لكن باليبار يرى أن فختـه أفرغ مفهومي " الألمان " و " اللغة الألمانية " من مضمون طبيعي و تاريخاني ، فالجرمانية التي يبحث عنها لا علاقة لها أساسا بالماضي بما أن إمكانية الماضي مصعدة في إنتاج المستقبل. إن الحياة الأصيلة للشعب هي قبل كل شيء اللغة التي تنتج روابط المجتمع و حركة التكوين المستمرة، حركة واقعية و تجاوز كل ما هو معطى ، إنها ثورة داخلية دائمة. إن الأصالة لا تحدد ما يأتي من الشعب و لكن نحو ماذا يتقدم أو بالأحرى الوجهة الأخلاقية التي أسندت له، و منه يتناول فختـه بحديثه كلمات اللغة بمعنى أننا نعيش كما نتكلم و نتكلم كما نتصرف [2] .

إن اللغة الأصيلة و الحقيقية ليست فقط الفعل بل هي حركة أخلاقية في اللغة فهي كلمة حية تصنع تاريخا و التي يجب التمسك بها في لحظة صنعها للتاريخ، فالشعب الحي يصنع لغة حية و الكلمة الحية تعطي الحياة للغة شعب و تجعله يحيا من جديد يقول فختـه :" عند شعب اللغة الحية (الكلمة الحية) ، التكوين الروحي يثبت في الحياة: و لكن في حالة العكس، التكوين الروحي و الحياة يفترقان كل في اتجاهه " [(3)].إن الانسان ، عند فختـه ، ليس هو الأمبريقي و لكن هو الانسان السياسي و الإنسان الداخلي الذي يقرر طبقا لرؤياه المطلق للحياة الأبدية و في الوقت نفسه هو الإنسان الواقعي الذي هو ليس إلا فعله التكويني ، فهذا الانسان لم

[1] - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 150 .
[2] - Ibid, p 151 .
[(3)] - Fichte Discours à la nation Allemande, 7 eme Discour , Traduction Balibar Etienne.

يتكون من طرف اللغة و لكن عندما يتكلمها بصفة أصيلة فهو يحولها إلى اللاّنهائي و يـــدخل الفكرة في الحياة ، يقول باليبار :" إن تعالي اللغة ليس هو تعالي معطى، أين الفكر يكون مغلقا بأصناف أو وسائل تعبيرية ، و لكن الكلمة المتعالية هي في الوقت نفسه فعل التكوين الـــذاتي للفكر "[1].

إن هذين الوجهين غير منفصلين و يقابلهما الجانب الرمزي و الجانب الحسي و الجانب الروحي بالاضافة إلى الجانب الصوري و هو الجانب غير المرئي للغة و منه فإن نموذج الكلمة، و هي كلمة فخته بنفسه ، الذي يحاول إعادة خلق الوحدة (فهم الـــذات) للأمـــة الألمانيـــة و ذلك من خلال تبشيراته حيث يعطي معنى أصيل للكلمات الألمانية باعطاء صورة للشـــعوب القادمة و فاتحا إمكانية تاريخ جديد . و بهذا الفهم ، فإن مفهوم الحدود الداخلية للديمقراطيـــة يكتسب طابعه العميق، لأنه المجال حيث يمكننا التحدث عن التحول الى المســـتقبل بمعـــنى إلى تاريخ حقيقي و ذلك هو الماضي المحدد في " فضاء " قانوني . إنها تشكل النقطة أين تكون اللغة جوهر الرابط الاجتماعي حيث تتكلم في الشخص الأول ، و هذا المرجع الذاتي يحمل إسما ذاتيا و جماعيا في آن واحد ، و دونه فإن الكلمة لا تحمل أية لغة معروفة فتصبح اللغة فعل لا أحـــد و هذا الاسم يعطي فعلا داخليا [2] .و في هذا الصدد يقول فخته :" أنا ، فخته، رجـــل ألمـــاني جديد، أتحدث إلى الألمان لأنهم غير ما يعتقدون أنفسهم ، إنني أعطي معنى حقيقيا للكلمـــات لمجتمعهم – لكي يصبحوا رجال ألمان جدد " [3].

إن هذه الحدود لا تفوق أن تكون فضاءات وطنية أو ثقافية لكنها تمثل عتبـــة حيـــث يتحول الفضاء المكون في زمن تكونه و هو وقت القرار و الفعل المستقبلي الروحي. إنه يشكل المرور من خلال رمز اللغة، من الفضاء الثابت إلى الحركة الخفية للزمن [4] . و منه نطرح هـــذا السؤال: كيف نتطور نحو الكمال ؟

---

[1] Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 152 .
[2] - Ibid, p 153 .
[3] - Ibid, p 153 .
[4] - Ibid, p 153 .

يعرض فخته المسألة بصورة واقعية حيث يصنع المجال بامتياز من أجل ممارسة سياسته كسياسة للتربية الأخلاقية، فمن بعض خطاباته السابقة، تظهر صورا جديدة للحدود الداخلية بمعنى : التقسيم و الوحدة ، الغلق و الفتح ، و تغيير الحدود و منه يرى باليبار أن هناك ثلاث محطات كبرى لفلسفة فخته السياسية :

1- بناء نظام جديد للتربية و هو شرط ضروري، فهو شكل يجب أن تتخذه المانيا في إعادة بعثها الروحي، فهذا البعث الروحي يمثل تحيينا لصفة أصيلة و التي لم تبدأ بعد في الوجود التاريخي ، يقول باليبار :" إنه الشكل الذي يجب أن تأخذه ولادة ألمانيا و يتعلق الأمر بوسيلة و لكنها تحتوي في حد ذاتها تحيين نهايتها و التي هي حركية بامتياز " [1].

2- إن هذا الأمر ممكنا في الحالة التي تكون فيها التربية معتبرة على أنها تربية وطنية و ليس على أنها تكوين أدبي و كوسموسياسي للطبقات المثقفة فقط أو أنها مدرسة بسيطة للشعب مخصصة لأطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا.

3- و أخيرا فالتربية الوطنية يجب أن تكون منظمة من طرف الدولة و كذلك مسندة بصفة ثانوية إلى سلطة العائلة و الكنيسة و يجب أن تكون هناك تربية مدنية و يرى فخته أن هذه التربية و بهذه الصورة ستحقق الوحدة الجرمانية للتربية و المواطنة [2] .

و تجدر الإشارة في هذا المقام ، أن التربية الوطنية المقصودة تكون تربية لا تحمل مقابلة بين التربية الدينية و التربية المدنية ، و لا التفريق بين الأخلاق الجماعية و الإيمان الفردي. بل بالعكس، فالتربية الوطنية هي للإنسان الكلي كما يرى فخته، الإنسان الحساس و الروحي، البدني و العقلي و كل ذلك يكون في إطار الجمع بين الوطنية و الأخلاقية البحتة، أو بتعبير آخر، اختصار ذاتي داخلي للجماعة الوطنية لأنها تمثل الحريات الإنسانية و هو مجال التطور الأخلاقي للأجيال [3] .

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 153 .
2 - Ibid, p 154.
3 -Ibid, p 154.

و يضيف فخته، أن وظيفة التربية تكون هي الوظيفة الأساسية للدولة و هي التي تعطيها صفتها العقلية حيث أنها تتحكم في الوظائف العسكرية، الاقتصادية و القانونية . و إذا نظرنا إلى المسألة من جانبها التاريخي ، فعلينا المقارنة بين الدولة الواقعية (الأمبريقية) بالدولة العقلية و هو الإطار الذي يجب أن تنشده الدولة حسب فخته، و هي دولة تربوية و في نهاية الأمر فهي تحضر نهاية الدولة أي إندثارها لاستكمال جوهرها و من هنا نخلص الى ما يلي حسب رأي باليبار :

إن التربية الوطنية تخلق المجتمع الوطني و ذلك بنفي مختلف الشروط و هي تلك الحدود الداخلية و هي حدود اصطناعية لأنها توجد تحت غطاء هيمنة الأنانية، و لكن عند حذف هذه الاختلافات، فإنها ستضيف عنصرا روحيا للطبيعة الانسانية و هو عنصر روحي كما عبر عنه فخته Ein Mehr Surplus فمن دونه لا تكون هناك طبيعة إنسانية بصفة كاملة و هو في الحقيقة: الأخلاقية.

إن الأخلاقية، تعني الحرية الفردية، المساواة بين المواطنين مهما كانت ظروفهم و أخيرا فهي الأخوة الانسانية العالمية. و لكن الأخلاقية كذلك تعني " قرارا " روحيا مستقلا بصفة كاملة عن كل من لهم القدرة على الحب و الأمل في الكمال الإنساني [1] .إن التربية تهيء هذا القرار و بصفة خاصة عن طريق الانتظام تحت شكل الانغلاق ، الانغلاق البيداغوجي الذي يكاد أن يكون دينيا ذلك لأنه كما يرى فخته أن مهمة التعبير عن الطيبة الأصيلة هي حالة ممكنة على الأقل بالنسبة لأغلبية الناس.و من هنا نتساءل : هل هذا المنحى التربوي لا يؤدي إلى تغيير الأدوار؟

نعم، إننا ننتقل من هذا التقسيم التاريخي للظروف الاجتماعية إلى تقسيم آخر بين الطيبين و الأشرار و منه فهي حدود داخلية غير مرئية بين نوعين من الناس: الذين يعيشون في الأنانية و الذين يعيشون في سيادة الروح . و منه ينتهي فخته عند ثنائية متناقضة : الألمان

[1] - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 155.

الحقيقيون الذين هم موضوع و نتيجة لهذه التربية الوطنية ليسوا إلا ألمان أمبريقيين تاريخيين و هم ألمان حقيقيون إذ هم ألمان حققوا بالفعل المسار الروحي لألمانيا بمعنى الانسانية الأبدية و الذين الوطن بالنسبة لهم هو " السماء النازلة نحو الأرض " [1] أو لنقل : الألمان كما يجب أن يكونوا و ليس الألمان كما هم عليه .

و بصفة أحسن نقول : الألمان المستقبل ، الذين يعيشون أمبريقيا في الحاضر، في مجال الأزمة مع ألمان الماضي و هذا يعني أن الأمة الألمانية لا تستطيع أبدا التوافق مع الدولة الألمانية، و هذه الدولة التي يمكن أن تكون وحدة موحدة و مستقلة ،إنها دولة تربوية تحقق المساواة ، إنها جمهورية. و منه فمفهوم الأمة يتعلق بالانسان ، و ذلك في علاقته باللغة و التي تنقسم إلى أمة إمبريقية و أمة متعالية و التي هي أيضا أمة روحية حيث أن: الأمة الأمبريقية هي ناتج للدولة و كل ما هو ناتج عن الانسان هو أساسا تربية. و لكن الدولة لا تنتج الأمة كمجتمع واقعي بالخضوع إلى تفوق الأمة المثالية و التي ليست إلا وسيلة، و إذا أردنا تركيب معاني الحرية الخارجية و الداخلية نقول :إن الدولة لا تستطيع إنتاج الاستقلالية الخارجية للأمة لأنها الشرط المادي لثقافتها و التطور المستقل " لذاتها "، حياة لغتها و آدابها ... الخ، إلا إذا كان فاعل التنظيم التربوي للنموذج المثالي للأمة الداخلية ، أمة غير مرئية بالروحيات بشرط أن يكون هذا النموذج الحي في حد ذاته مثل أي حل أخلاقي صارم و شجاع [2] .

و من هنا ، نخلص إلى أن الحدود الداخلية للديمقراطية تكمن أساسا في تلك الجوانب الروحية للأمة و تتمظهر في اللغة التي تعبر عن شخصية الأمة و آفاقها ، و أخيرا فهذه الحدود هي من أقوى الحدود لأنها تتعلق بالكائن الانسان من حيث كونه إنسان بجميع ابعاده و كما يقول الفيلسوف قرين آندريه في هذا الصدد :" يمكن أن نكون مواطنين لكن يصعب علينا أن نتصور على أننا نشكل حدودا "[3].

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 156 .
2 - Ibid, p 156 .
(3) - Green André , la Folie privée : psychanalyse des cas limites , ed. Gallimard, Paris , 1990 , p 107.

يرى باليبار أن فخته يتلاعب بالألفاظ أي بكلمة اللغة و كلمة الحياة لأنه يجهل القضية الوراثية المتعلقة باللغويين الرومانتيكيين حيث وضع مكان العقلانية الكلاسيكية لأصل اللغة، و المسألة التاريخية للغة الأم للآخرين كلهم مع الأولية الجرمانية أو بالأحرى الهندو – جرمانية بالاعتماد على تقنيات القواعد المقارنة. و منه يؤكد باليبار أن فخته كان جاهلا بهذه النقطة الوراثية و كذا الحقيقة اللغوية و على الأخص القواعد، فاللغة الحية هي تلك اللغة التي لها قابلية للتفاعل بمعنى لها طبيعة كوسموسياسية بمعنى عالمية مثل اللغة الانجليزية اليوم، يقول باليبار : " إن فخته يجهل الحقيقة اللغوية (اللسانية) و على الخصوص القواعد ، و التي لا علاقة لها بمشكلته ... إن اللغة الحية هي لغة نقية بتأثراتها ، تفر بطبيعتها من الكوسمو سياسي " [1] إن فخته قد ثبط مفعول اللغة من حيث أراد بعثه من جديد و جعلها لغة ميتة من حيث أراد أن يجعلها حية و جعلها حدودا جامدة من حيث أراد أن يجعلها نقطة توسع و هيمنة على اللغات و الشعوب الأخرى، لماذا ؟ إن الجرمانية التي يبحث عنها فخته ليست لها علاقة بالماضي إذا لم يكن هذا الماضي يحيل الى مشروع مستقبلي ، فحياة شعب أصيل هي قبل كل شيء تلك الروابط الجماعية و الحركية المستمرة و فاعلية واقعية و أخيرا هي تجاوز لكل ما هو موجود إلى مرحلة الإبداع، و منه فهي ثورة دائمة ، فالأصالة بالنسبة لشعب معين لا تعني بالضرورة عرقه، و لكنها تعني إلى أين يتجه هذا الشعب بمعنى إذا تمكن فعلا من تجسيد و بصفة واقعية تلك المعطيات الفختوية: نعيش كما نتكلم و نتكلم كما نتصرف، يقول باليبار :" إن اللغة الأصيلة، الحقيقية ، ليست فقط لغة الفعل، إنها فعل أخلاقي، ليست اللغة التي لديها تاريخ،و لكن هي " كلمة حية " تصنع تاريخا و التي يجب استغلالها في لحظة صنعها له" [2].

و يرى باليبار، من جانب آخر ، أن فخته يعرض أفكاره بطريقة واقعية عند ما يدخل عامل التربية الأخلاقية في تحقيق سياسته إذ يقول :" إنه يصنع المجال بامتياز لتحقيق سياسته

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses , P 151 .
(2) - Ibid, p 153 .

كسياسة بواسطة التربية الاخلاقية و بها " [1]. كما أن إصرار فخته على عنصر التربية كتربية وطنية و ليس كتكوين كوسموسياسي خاص بطبقة مثقفة جعله يتميز بوضع حركة واسعة للتربية من أجل وضع نظام إجتماعي عام و جديد يقول ما سشالك مارك:" **هكذا، فخته يرى في الوطنية الألمانية الفرصة لتحريك الشعب و على أنها حركة واسعة للتربية المدنية و التي تسمح من وضع نظام اجتماعي جديد على أسس تضامنية، و مستلهما من بستالوزي، فهو يعتقد إمتلاك مبادئ تربية قادرة على رفع كل فكر لإدراك واضح للنظام الروحي و شعور قوى،كتب فخته: أعطوا مثل هذه التربية للمواطنين و أنكم ستكتسبون أمة أخرى " بمعنى العلم و الفن " لتطور منظم و متواصل للانسانية نحو اتجاهها " للاديولوجية الحربية، يقابل إذن مشروعا شعبيا و الذي سيكون في قلب الخطابات لسنة 1808 " [2].**

و عندما تكلم فخته عن الفصل بين التربية المدنية و التربية الدينية فإنه لا يقصد بذلك اللائكية و لكنه يقصد تربية الإنسان الكلي و يجعل من الدولة الفاعل الأساسي في تحقيق هذا الهدف السامي و العقلاني و منه يعتقد أننا نمر من الدولة الحقيقية إلى الدولة العقلانية و التي هي دولة تربوية و عند ما نصل إلى هذا المنحى فإننا نهيء المجال إلى نهاية الدولة و هذا ما يذكرنا بالطرح الماركسي بنهاية و زوال الدولة و لكن من وجهة نظر مختلفة ، فإذا كانت نهاية الدولة عند الماركسية هي حتمية تاريخية بحكم الديالتيك التاريخي فإنها عند فخته هي حتمية أخلاقية لأنها مرحلة متعالية، يقول فخته :" إن التربية تهيء هذا القرار (القرار الروحي) ، و على الأخص بالانتظام تحت شكل انغلاق، بسياج بيداغوجي قريبا دينيا ، و الذي يجعله ممكنا على الأقل لمعظم الرجال، التصريح بطيبتهم الأصيلة " [3] .

ألا يمكن أن يؤدي هذا النظام التربوي الفختوي إلى تقسيم داخل المجتمع ؟ألا يمكن أن يخلق حدودا داخلية بين الأشرار و الطيبين؟ أي بين من يعيش في أنانية حادة و بين من يعيش في

---

(1) - Balibar Etienne , la Crainte des masses, p 153 .
(2) - Maesschalk Mark , Fichte et la Question Allemande , Toudi , décembre 1998, p2 sur 4 .
(3) - Fichte , Discours a la Nation Allemande , 10 eme discour, trad , Balibar Etienne.

سيادة روحية متعالية؟ إن فخته، في هذه النقطة بالذات ، يتوجه إلى الألمان الحقيقيين الذين يحققون الإتجاه الروحي لألمانيا أي الإنسانية الخالدة. و لكن ألا يخلق هذا الأمر أزمة للأمة الألمانية؟ بمعنى الأمة الألمانية التي لا تلتقي أبدا و تتقاطع مع الدولة الألمانية؟!

إن الأمة ، من هذا المنظور ، يمكنها أن تنقسم إلى أمة إمبريقية و هي التي تنتجها الدولة و أمة متعالية و هي أمة روحية و منه فالدولة لا يمكنها إنتاج الأمة على شكل مجتمع حقيقي.

ألا يظهر أن " الوطنية " الفختوية هي وطنية مشروطة؟ هي وطنية مشروطة على الرغم من أن فخته يعلنها غير مشروطة و هذا ما يظهر في نشاطات فخته من سنة 1808 إلى غاية سنة 1813 و ذلك في مشاريعه التنظيمية للجامعة ضد المطالبة بالحريات الأكاديمية و لكن باسم الحرية العالية للفكر و كذلك تردده الدائم بين الكلمة العامة و الكلمة الخاصة فيما يخص الحرب الوطنية كما أنه لم يتمكن من تحديد ما إذا كانت هذه الحرب مطابقة لمفهوم الحرب الوطنية أم لا ؟؟

و لكن كيف نقيم أفكار فخته فيما يخص الحدود الداخلية للديمقراطية التي وضعها؟ و ما مصداقية آرائه السياسية في هذا المجال؟ أين نضع الفيلسوف فخته؟ هل هو من دعاة الحرية و الديمقراطية أو من دعاة الديكتاتورية و النظام الشمولي؟ هل هو من المدافعين عن الحق و الضمير العقلي أم من دعاة اللاعقلانية و العنصرية؟ فعلا، لقد إختلف المفكرون و الفلاسفة حول وضعية الفيلسوف فخته، فهناك من يصنفه من دعاة الحرية و الديمقراطية و هناك من يصنفه بالعكس ، من دعاة التوتاليتارية و الديكتاتورية و العنصرية العمياء ، يقول دريدا جاك Derrida Jack :" يعرف فخته كواحد من المفكرين للوطنية الألمانية فجر القرن التاسع عشر"[1] . و يجعله المفكر فوجيرولاس بيار Fougeyrolas Pierre مفكرا انطلق من

(1) - Derrida Jack, Invention de l'autre , ed . Galilée , Paris , 1987 , p 63 .

الكوسمـــو سياسي نحو الوطنية بقوله :" أنه يقتسم مع المفكرين و المثقفين الألمان لعصره منعطفا ينطلق من الكوسموسياسي لـــ * L'Aufklarung و الفلسفة الشعبية نحو الحماســـة الوطنيـــة المستلهمة من الجنسين للإمبراطورية الجرمانية " [1].

إن وطنية فخته جعلته يتخذ لنفسه موقفا متحفظا من أحداث عصره كالثورة الفرنسية ، لقد جاء في الموسوعة الفلسفية :" وطنيته أدت به إلى أخذ إحتياطـــات و تحفظـــات بالنســـبة للأفكار العظيمة و الأساسية للثورة الفرنسية " [2].

إن خطابات فخته وضعت المجتمع فيما بين الكوسمو سياسي و الرومانتيكيـــة الوطنيـــة حيث حاول تحقيق الشكل الانساني إذ يقول المفكر بارجيس فان Parijis Van :" و لكـــن إنها النقطة حيث العقدة الانتربولوجية التي تؤخذ من هذه الخطابات و التي تسمح بوضع مجتمع للأفكار بين :" الكوسمو سياسي النير " و " الوطنية الرومانتيكية " من جانب و من آخر ، إننا ننادي إلى تصور محكم للكائن الانسان و الذي من خلاله الحياة الانسانية تســـعى الى تحقيـــق شكل الانسانية، لفكرة أو لماهية حيث يتعلق الأمر بالتطلع نحو الأحسن " [3] . و من خـــلال مفهوم التطور عند فخته ، فالكائن الانسان يعرف من خلال مستقبله التاريخي و ذلك عنـــدما يتجاوز خصوصياته الانسانية لتحقيق الكوسموسياسي ، يقول المفكران فـــيري ليـــو Ferry L و رانو Renault A في كتاب مشترك لهما عنوانه : فخته و ميكافيل :" **مفهوم التطور هو في قلب المسار الانساني. الكائن الانساني يكون معرفا كمستقبل تاريخي فيكون إما متجـــاوزا لخصوصياته لكي يسمح بالوصول إلى الأساسي الذي يجمعنا كجنس و إما بالاعتراف بميزة الخصوصية لكي تخدم تجاوز كل الخصوصيات ، بمعنى المهمة التي من خلالها تجمع الشـــعوب حول شكلها المنقى. من خلال هذا الرأي ، الوطنية لا تنفي الكوسموسياسي، و لكنها تدعى لعب تجاهه دورا تبشيريا . إنه الذي بواسطته يصل الى العالمية واقعيا ، مـــا دام هـــو نفـــي و تحويل للخصوصيات نحو الأجمل** " [4].

---

(1) -Fougeyrolas Pierre , la nation essor et déclin des sociétés modernes , ed . Fayard , Paris , 1987 , p 82 .
(2) - Internet , Johann Gohlieb Fichte, sa vie , son temps , 2005 , p 1 sur 4 .
* Aufklarung = عصر الأنوار في أوروبا
(3) - Parijis Van , qu'est – ce – qu'une société juste ? ed. du . seuil , Paris , 1991 , p 272 .
(4) - Ferry L et Renault A, Fichte , Machiavel , ed . Payot , Paris , 1981 , pp 94, 95 .

و من خلال هذا النص ، المفكران لا يقطعان صلة الكوسموسياسي بالوطنية بل تستطيع الوطنية بلوغ العالمية مادامت تسعى دائما نحو الأفضل و الأكمل و لذلك فقد أخضع فختـه الكوسمو سياسي إلى الوطنية الألمانية عند ما جعل من الكوسمو سياسي يرتد إلى النوع الإنساني فيصبح كل كوسموسياسي محددا في إطار الأمة و منه فكل فرد ألماني يتحول بهذه الصورة إلى مواطن للعالم ككل بفاعلية تامة لأن الهدف من كل ثقافة وطنية حسب فختة تمتد لتتحول إلى ثقافة النوع الانساني ككل ، يقول المفكر المعاصر ما سشالك مارك :" إن الكوسمو سياسي هي الإرادة المهيمنة حيث أن الهدف من وجود النوع الإنساني يمكن بلوغه في النوع الإنساني . إن الوطنية هي الإرادة من حيث أن الهدف يمكن بلوغه قبل كل شيء داخل الأمة حيث نكون نحن بأنفسنا أعضاؤها و أن هذه النتيجة تمتد من خلالها إلى النوع الإنساني ككل " [1].و عن عملية تحول الفرد الألماني إلى مواطن عالمي و امتداد الثقافة الوطنية إلى النوع الإنساني لأنه مواطن أكثر فعالية و وجودا ، يقول فختـه :" و بهذه الطريقة ، كل فكر كوسمو سياسي يصبح بالضرورة و بهذا التحديد وطنيا بالنسبة للأمة ، و كل فرد الذي يكون داخل أمتنا وطنيا، الأكثر قوة و الأكثر فعالية ، هو بالتحديد و بالطريقة نفسها مواطن للعالم الأكثر فعالية،لأن الهدف النهائي لكل ثقافة وطنية هو أن هذه الثقافة تمتد حتى إلى النوع الانساني ككل " [2].

إن أراء فختـه السياسية ، تبدو عند بعض المفكرين المعاصرين مظطربة و لا تستقر على موقف معين، فقد يقفز فختـه من معجب بالثورة الفرنسية إلى معاد لكل سياسة تمجد حقوق الانسان ، ثم من مساند للمجتمع المدني إلى مؤيد لسلطة الدولة المطلقة و من كوسمو سياسي إلى الوطنية الشوفينية العنيفة ، يقول المفكر المعاصر باسيني جان مشال * Besnier Jean Michel عن مواقف فختـه المظطربة :" فختـه ، يعلن على عكس ما كان : ليس فقط معجب بالثورة الفرنسية ، مثل في سنة 1793 ، و لكن معاد لكل سياسة مؤسسة على حقوق الانسان،

---

(1) - Maesschlk Mark, Fichte et la question Allemande , p 1 sur 4 .

(2) - Fichte , Discours à la nation allemande , 8 eme discours , tard . Balibar Etienne .

* بسنيي جان مشال : أستاذ مبرز حاليا ، للفلسفة و دكتور في العلوم السياسية و هو أستاذ للفلسفة بجامعة باريس السوربون. عن موقع الأنترنت:www.audencia.com

.

ليس كوسمو سياسي و لكن حاليا ، يحتفل بوطنية عنيفة " [1]. و من خلال هذا النص، نكتشف أن فخته من دعاة الديكتاتورية و التطرف و عدم التسامح ، يقول ياسبيرس كارل Jaspers . K : " فيخته : ذهن نظري متوتر إلى درجة التعصب، جهود عنيفة نحو " مستحيل " بناء عبقري ، منظر أخلاقي مؤثر و قد كان تأثيره ضارا من حيث أنه دفع باتجاه التطرف و عدم التسامح" [2].و لعل الأحداث التي عاصرها كان لها أثرا بالغا في نفسه و تفكيره المظطرب مثل انهزام ألمانيا أمام جيوش نابليون بونابرت ، جاء في الموسوعة الفلسفية :" و على الرغم من ذلك، فإن انهزام بروسيا أمام جيوش نابليون، جعله يعدل إلتزاماته الأولى لكي يتحول إلى وطنية نضالية" [3].

لقد كان فخته مستعدا للتضحية بنصف الجيش من أجل أمة المانية منتصرة دائما في حروبها، يقول فخته عن دور الدولة في الحرب :" إنني أعتقد البرهنة على أن هذه الدولة، عندما تندلع الحرب، تستطيع إذن توقيف النصف الاخر من جيشها ، و على العكس من ذلك ستكون هناك أمة توضع لخدمة عسكرية، أمة لا يمكن هزمها بأية قوة إنسانية إطلاقا " [4].

و من خلال هذا ، قام فخته بحل تلك الروابط الاجتماعية و ذلك بالفصل التام في العلاقات بين الوطنيين المسلحين و بقية الفئات الشعبية ، يقول المفكر المعاصر دروز . ج Droz . J في كتابه الرومانتيكية الألمانية و الدولة ما يلي : " في مجموع الدولة البروسية " الوطنيون " لا ينجحون في إقامة تواصل مع الفئات الشعبية ، الذين وحدهم كان لديهم أحلام القتال ، و يبدو أن هذه البنيات الاجتماعية تحرم على بروسيا الخضوع لمدرسة من هزمهم و انها تقوم بمقاتلتهم "[5].

و على الرغم من هذه الإنتقادات لشخصية فخته و فلسفته، فإن هناك من يرى أنه خدم الحرية و الديمقراطية و حقوق الإنسان ، يقول الفيلسوف موليتور.ج عنه ما يلي :" كان فخته طوال حياته خادم المثال ، خادم الحرية التي أرادها متعادلة مع الجميع " [6]، كما جاء عنه في

---

(1) -Besnier Jean – Michel , Histoire de la philosophie moderne et contemporaire , ed . Grassiet , Paris , 1993,p247.

(2) - طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، ص 483.

(3) - Internet , Johann Gottlieb Fichte , sa vie, son temps , 2005, p 1 sur 4 .

(4) - Fichte , Discours à la nation Allemande, Traduction Droz . J , 11 eme discour, 1808.

(5) - Droz J . le Romantisme Allemand et l'Etat , ed . Payot , Paris , 1966 , p 56 .

(6) - طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، ص 483 .

الموسوعة الفلسفية :" على عكس عصره و الفكر المسيطر ،فإن فكره كان مسخرا للدفاع عن الديمقراطية الجمهورية المؤسسة على حقوق الانسان"[1].

و يقول عن فلسفته الفيلسوف المعاصر غارودي روجيه Garaudi Roger ما يلي : " الفكرة المركزية في مذهب فخته هي فكرة الانسان الخلاق ، فكرة أن الانسان هو ما يصنعه بنفسه ، فلأول مرة في تاريخ الفلسفة توضع موضع الشك أولوية الماهية ، أولوية تعريف قبلي، لا هوتي أو أنثربولوجي للإنسان لصالح الفاعلية الخلاقة الحرة " [2].

وأخيرا ، مهما تكن المواقف الفلسفية متضاربة الأحكام حول شخصية فخته و فلسفته السياسية، تبقى الحدود الداخلية للديمقراطية من أعنف وأخطر الحدود على الاطلاق ، فهي تشكل عائقا حقيقيا أمام الحريات الفردية و الجماعية و بناء الدولة الوطنية الحديثة القائمة أساسا على حقوق الانسان السياسي المعاصر.وكل ما قيل عن ألمانيا و عن الشعب الألماني كما جاء به فخته ،يمكن أن يقال عن أي شعب آخر ، اليوم ، خاصة مع تصاعد موجة الوطنيات الحديثة و ظهور موجات من التطرف و العنصرية العمياء تجاه الشعوب الضعيفة و المقهورة سواء كانت تقيم بدول أوروبية أو ببلدانها الأصلية حيث أن خارطة العالم السياسية في تغير مستمر و متسارع بحكم نظام العولمة السياسي و الاقتصادي و هذا ما سنحلله في الفصل الثالث.

---

[1] – طرابيشي جورج،معجم الفلاسفة ، ص 483 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 483 .

الفصل الثالث

إشكالية حدود الديمقراطية عند باليبارإيتيان

المبحث الأول : الحدود غير المفكرة للديمقراطية

المطلب الأول : إشكالية العلاقة بين الاغتراب و الديمقراطية

المطلب الثاني : جدلية العلاقة بين الديمقراطية و حرب الحدود

المبحث الثاني : حدود العالم و حدود السياسة

المطلب الأول : جدلية العلاقة بين السياسة و العولمة الاقتصادية

المطلب الثاني : العولمة و حدود الديمقراطية

إشكالية حدود الديمقراطية عند باليبار ايتيان :

لقد ظهرت، في السنوات الأخيرة الماضية، تكتلات سياسية في العالم عموما و أوروبا خصوصا، منها اتفاقية شانغن الذي كان صداها عالميا من جانبه السياسي و الاقتصادي ثم ما عرف بالاتحاد الأوروبي و هو مشروع أوروبي طموح و على جميع المستويات حيث لا حدود معرقلة بين الدول الأوروبية الأعضاء. لكن وقعت أوروبا في أزمة سياسية، من حيث كونها تشكل في حد ذاتها، حدودا للديمقراطية حسب ما يرى باليبار حيث لم تفكر أوروبا، اليوم ، حقيقة قوتها و حقيقة عجزها . إنها تشهد، يوميا، مشاكل سياسية و إجتماعية، منها مشكلة العنصرية و الآبار تايد الجديد بتعبير باليبار أو الآبارتايد الزاحف حيث تقع حرب الحدود في صمت رهيب على حدود فضاء شانغن، و لعل مئات الضحايا ، غرقا أو ضياعا ، من الشباب الفار من بلدانهم الأصلية الفقيرة إلى دول أوروبية متطورة تحفظ لهم حياة كريمة، لهو أكبر دليل على أن حرب الحدود تشتد بصفة تصاعدية.

بالاضافة الى ذلك، ما يقع اليوم في الفضاء السياسي الأوروبي من إلحاح على التمييز العنصري ببعده الانثربولوجي و ما يصاحبه من عنف، مصرح به أو مكتوم، و بجميع صوره حيث يصنف الناس إلى متوحش و متمدن، الى ما دون الإنسان و ما فوق الانسان أو انسان بامتياز، إلى مواطن و رعية... الخ و كذلك ظهور مشكلة الهوية في علاقتها بالمواطنة لذوي الأصول غير الأوروبية و التي تكشف عن ذهنية تكلم عنها باليبار و هي ذهنية ما بعد الاستعمار، و لذلك يقترح مشروعا سياسيا هاما يتمثل في دمقرطة الحدود لأن مناطق العالم تشكل وحدة واحدة مع بقائها متعددة و هي تكاملية ممكنة.

لكن العولمة، اليوم ، و على جميع أصعدتها، أصبحت تشكل سلاحا ذا حدين، فمن جانب تعطي الطموح للإنسان المعاصر على أنه أصبح إنسانا كوسموسياسيا يتجاوز كل الحدود دون تمييز عنصري أو عنف أو شعور بالإحباط و ذلك بإستخدام الوسائل التكنولوجية العصرية

كنظام الانترنات. و من جانب آخر تقبل العولمة على السياسة لتلتهمها بواسطة البنية الإقتصادية أو كما سماها دريدا جاك، الرعب الاقتصادي القائم على اللاتوازن العالمي من حيث توزيع و استغلال الثروات و السيولة المالية من خلال إحتكار رؤوس الأموال بظهور شركات كبرى متعددة الجنسيات او ما يعرف اليوم بالرأسمالية المتوحشة.

و من خلال هذا، تكلم باليبار، عن ظواهر جديدة في الممارسة السياسية، كظاهرة العالمي – المحلي من جانبيه السياسي و الإقتصادي. فتصبح ، إذن ، وظيفة الحدود ، وظيفة الطبقة ، تتمظهر في تقسيم الغنى و الفقر في مناطق وطنية معينة و هي مناطق مميزة و منه فدخول الفقراء لمناطق الغنى يستدعي بالضرورة التصفية و التعديل و لذلك ظهر ما يسميه باليبار، الآبارتايد العالمي.

المبحث الأول : الحدود غير المفكرة للديمقراطية

إن الشعار الأوروبي الداعي للديمقراطية و السلام العالمي يصطدم بتلك الممارسات اللاديمقراطية على مستوى الواقع السياسي للشعوب و منها العنصرية العمياء و" العنف الأمني المقنن" ضد أولئك الرعايا الأوروبيين المحرومين من حقوقهم السياسية و المدنية مما جعل أوروبا ككل تقف على محور متناقض ،بين الحق واللاحق،بين القوة و العجز وبين الديمقراطية واللاديمقراطية.

المطلب الأول :إشكالية العلاقة بين الاغتراب و الديمقراطية

إن الوجود القوي و الشرعي لتلك الشعوب و التي كانت مستعمرة سابقا، داخل المجتمع الأوروبي اليوم، و هو مجتمع ينتمي لمعسكر استعماري سابق ، يشكل بالنسبة لأوروبا اليوم، دروسا يمكن أن تستنبطها من تاريخها لكي يمكنها ان تفكر حقيقة قوتها أو عجزها في العالم.

يعتمد باليبار إيتيان ، في شرح هذه الفكرة على عالمين إجتماعيين هما آلسندرو دال لاغو *Allessandro Dal Lago و ساندرو ميزادرا *Sandro Mezzadra اللذان التزما و لمدة زمنية معتبرة بتحليل آثار الهجرة ،للبلدان المستعمرة سابقا، في الفضاء الأوروبي الذي هو في طريق العولمة. فلقد تعرضا إلى قضية تلك الحدود غير المفكرة في أوروبا حيث يؤكدان أن الحدود ليست لها وظيفة جيوسياسية فحسب بل إبستمولوجية كذلك فهي تجربة متناقضة لوجود أو عدم وجود هويات مقدسة .

إن نهاية الحرب الباردة، فتحت من جديد النقاش حول مسألة تاريخية و فلسفية و هي معنى " أوروبا " ، فالحروب الدموية بيوغسلافيا ، أعطت لها شكلا دراميا. و يتطرق هذان العالمان الى مسألة تطور الامبريالية حيث أن مقاومة القوى الرأسمالية لمراقبة الموارد العالمية

---

* ألسندرو دال لاغو : أستاذ علم الاجتماع و التطور الثقافي بجامعة جين و هو مؤلف على الخصوص كتاب اللا – شخص – non personne

* - ساندرو ميزادرا : باحث في تاريخ الأفكار السياسية و مؤلف كتاب : Ombre , Carte , Verone 2001 .راجع : Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre , ed . la découverte, Paris , 2003 , pp158,159.

و فرض نموذج اقتصادي " غربي " تحول اليوم إلى " مقاومة و حرب " بصفة كلية حيث أدخلت جميع مظاهر العلاقات الاجتماعية، الديمغرافية و الإنسانية و التي تسعى الى فرض ضغط كلي على تنقل الشعوب . تلك السيطرة يمكن ملاحظتها و بصفة واضحة في تلك " مناطق الحدود " حيث توجد المراقبة السياسية مع المراقبة العسكرية مثلما يوجد بيوغسلافيا، و هما بعيدان عن بعضهما و هنا نلمس عمق المسألة بمعنى غموض معنى المشروع الأوروبي الطموح؟!

يقول آلسندرو ميزادرا : " **إننا نؤكد أن الحدود في أوروبا تكاثرت و تعددت، و منه فمفهوم السياسة في أوروبا هو كذلك إنفجر بصفة واضحة ، و نستطيع القول أنه يوجد اليوم أعدادا من أوروبا متمايزة أكثر من تلك الوظائف المنجزة على الصعيد الدولي بواسطة هذا الغموض القاري ... إن هذا التكاثر لا يصل إلى اخفاء تلك الهوة و الفراغ الذي يحفر بين تلك الادعاءات الايديولوجية و اليوتوبية للاستقلالية الذاتية للمجموعة الأوروبية و التي هي ضرورة الاصطفاف استراتيجيا في قلب المعسكر الغربي بمعنى الولايات المتحدة الامريكية التي تتكفل حروب الخليج و حروب افغانستان بالتذكير بها بصفة مرحلية** " [1].

فمن خلال هذا النص ، نستنتج أن الحدود في اوروبا، في نمو و تكاثر مستمرين، و لذلك ظهر أعداد من أوروبا بدلا من أوروبا واحدة ، و هذا الأمر يفضح مباشرة تلك الادعاءات الاوروبية المتعلقة بالمشروع الطموح و الذي يعتبر في نظر العالمان السابقان ، أمرا يوتوبيا، حيث وجب على أوروبا أن تصطف خلف الطابور الذي يخضع و بصفة غير مشروطة لأكبر قوة عالمية و هي الولايات المتحدة الأمريكية.و يؤكد باليبار، و منذ التسعينيات ، أن هذا الأمر ، اتضح ليس فقط عند مستخدمي الشعبوية من النمسا إلى الدانمارك الى ايطاليا و الذين أسسوا تطور الانتخابات على معادلة " الاختلاف غير المتكافئ " و اللاأمن ، بل و كذلك ظهر عند ممارسات الدولة و الظروف

(1) –Alessandro .L et Mezzadra.s, les frontieres impensées de L'Europe , trad.Balibar Etienne,ed.Manifestolibri,Rome ,2002,p 145.

السياسية للمجتمعات . و من دون شك ، " فبناء الهوية " بعد الحرب الباردة لم تنتج عنه بوادر ايجابية لتشكيل الهوية الاوروبية، و لكن هذا الامر ادى الى تعيين و تحديد مجموعة من الاشخاص المقصيين حيث يتم تسجيل الفارق بين اوروبا و بقية العالم ، و هؤلاء الاشخاص ، كانوا عمالا مغتربين شكلوا بالنسبة لأوروبا أعداء سياسيين داخليين، فوضعية المغتربين المسلمين في أوروبا هي على شكل وضعية المغتربين المكسكيين في الولايات المتحدة الأمريكية و الذين دخلوا في مفهوم " حرب الحضارات " أو " الصراع الحضاري " ، و هم في الغالب أشخاص غير مؤتمنين و لا آمنين ، يقول ألسندرو و ميزادرا : " **إن هذا التعريف للمغترب هو على شكل ممر خطير جدا يحيط بتلك الإجراءات التي من خلالها الدول الأوروبية سيرت الاغتراب فيما بعد الحرب: من التمييز المعماري و المحيطي المميز على النموذج الفرنسي إلى بناء الغيتوهات الثقافية و الاجتماعية على النموذج الانجليزي، و من الاقصاء السياسي على النموذج الألماني ، إلى المحو البسيط الجذري لوجود المغتربين على النموذج الاسباني و الايطالي. إن النتيجة إجمالا ، هي تقليص عدد المغتربين على مستوى الطبقات الشعبية السفلى و التي تخضع للمراقبة البوليسية و هم اللا مواطنين و هذا له علاقة مباشرة مع اقامتهم الاجبارية في مراكز سفلى لسوق العمل و في مجالات خفية لممارسات اقتصـــادية غير شرعيـــة**" [1].

و يتبين أن :تعامل أوروبا السياسية مع الاغتراب ، أخذ اشكالا و مر بمراحل مختلفة حيث بدأ بالتمييز المعماري المحيطي بمعنى حصر المغتربين في أحياء خاصة أو غيتوهـــات ثم التمييز الثقافي إلى الاقصاء السياسي وصولا إلى التصفية الجسدية للمغتربين مثلما يقع بايطاليا و اسبانيا و الهدف النهائي هو اللجوء إلى تخفيض عدد المغتربين ، عدديا ، بالمجتمع الاوروبي و اعتبارهم لا مواطنين ، محرومين من حقوقهم السياسية و الاجتماعية و الثقافيـــةو حـــــتى الانسانية و هذا يذكرنا بالاتجاه العنصري المعـــادي للمغتربـــين ، و هو اتجـــاه اليمـــــين

[1] - Alessandro .L et Mezzadra.s, les frontieres impensées de L'Europe ,trad.Balibar Etienne,ed.Manifestolibri,Rome ,2002,p 146.

المتطرف، الذي يتزعمه لوبان جان ماري Le Penne Jean – Marie و الداعي الى طرد كل المغتربين مـــن فرنسا .إذن ، مشكلة الحدود في أوروبا ، و التي هي حدود لم تفكر إلى حد اليوم، من طرف مفكريها و فلاسفتها و سياسيها و بجدية معتبرة كما يرى ذلك باليبار، ترتبط و بصفة وظيفية بمسألة الهجرة، شرعية كانت أو غير شرعية، و اللجوء السياسي، و لذلك فالحـــــدود في تزايـــد متواصـــــل كما يعبر عـــن ذلك المفكر داشـــــوجـــــان بيار Dacheux Jean-Pierre : " إن الحدود في أوروبا غير معرفة جغرافيا، تاريخيا غير محددة، سياسيـــــا هـــــي في تنامي " [1]. و لكن هل تطور الامبريالية و الاقتصاد الغربي أدى إلى تطور الحدود في أوروبا؟ فعلا، و كما حلل ذلك ، العالمان آلسندرو و ميزادرا، نحن نشهد اليوم و بصفة واقعية، ظهور و تطور مناطق الحدود حيث توجد مراقبة سياسيةومراقبة عسكرية قوية جدا مثل يوغسلافيا سابقاو بعض مناطق الشرق الأوسط[2].إن الحدود عند باليبار ، تتمحور حول ثلاث فضاءات: الفضاء الأطلسي و الفضاء المتوسطي و الفضاء الشرقي و هذه الحدود تعدها أوروبا اليوم و بشكل واسع ، يقول باليبار في حديث له مع بايارجان فرانسوا Francois Bayart Jean .بمجلة النقد العالمي:" أوروبا، كما قلت، لا تستطيع شيئـــا آخر إلا الالتقاء الدائم لثلاث حدود: حدود أطلسية، حدود متوسطية ، حدود شرقية. إلا أنه اليوم، توجد مشاكل مطروحة للتلاقي الدائم لهذه الفضاءات الثلاث " [3].

و لكن لماذا !؟ يجيب باليبار : أن السبب يتعلق بموقف أوروبا ككل بما في ذلك بريطانيا العظمى، من خلال تلك العلاقة بين أوروبا و دول البحر الأبيض المتوسط و دول المشرق مما خلق حائطا صعبا للعبور بين الغرب و الشرق، يقول في نفس السياق:" **إدوار سعيد أظهر جيدا في " شرقيته " و التي تبقى أساسية على الرغم من أن بعض النقاط قابلة للنقاش فيها، أن الطريقة التي تصور بها الشرق المتوسطي، كيف يظهر و كيف هو مهمش ، في القرن التاسع عشر و القرن العشرين، مما سمح لأوروبا بإدراك و بصفة سهلة هويتها، و على أنه هناك نوع من الحائط و في الوقت نفسه مرآة- صعب جدا للعبور . اليوم، حدود الشـــرق**

---

(1) - Dacheux Jean, Pierre, les frontieres tsigane de l'europe, octobre 2003 . p 1 sur 5 .

2 - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre , ed . la découverte, Paris , 2003 , p 161 .

(3) - Bayart Jean – Francois , Critique Internationale , Janvier 2003 , n18 , p01.

و الغرب أخلطت و بصفة واحدة " [1].و منه تظهر أوروبا على شكل حائط كبير أمام الشرق و الغرب فمشكلة الاغتراب في أوروبا، اليوم، تشكل حدودا ضد الديمقراطية حيث نلحظ رجوع التمييز العنصري على عدة نماذج فرنسي، ألماني ،إسباني،إيطالي ...الخ، مما سيؤدي إلى التساؤل عن الفكرة التي أقترحها باليبار سابقا والمتعلقة بفكرة محو الاستعمار والتحرر منه ،هل يمكن تجسيدها في الواقع ؟فوضع الحدود في أوروبا، على شكل تضامني ، هو تمييز عنصري انتربولوجي فريد من نوعه. أليس الاتحاد الأوروبي في حد ذاته هو شكل من أشكال العنصرية الأوروبية على الرغم من طابعه الاقتصادي البارز والمميز؟وهل له مصداقية ديمقراطية؟ يقول المفكر دوفارج فيليب مورو Defarges Philippe Moreau متسائلا:"هل أن الدول –الأعضاء تبقى هي الحاملة للمصداقية الأوروبية؟**!** " [2].

و منه فالعنصرية الحقيقية موجودة في القوانين و ذلك بتمييز المواطنين الذين هم في داخل المجتمع و أولئك الذين هم خارجه، فالحماية التي تم اختراعها ضد حالة اللاأمن قد تخلق مجالات من اللاأمن عند المواطنين، يقول باليبار :" في الواقع، الحماية ضد اللاأمن هي عدم حماية مجموعة من المواطنين، ليست هذه الفكرة اساسية على الخصوص، و لكل هل يجب استخلاص النتيجة على أن الطريقة الوحيدة لمنع المواضيع الأمنية التي تلتهم السياسي هو أن تعدل رفض " الشطحات " الأمنية لعلاج واقعي للذي يشكل اللاأمن الموجود بالنسبة لمجموعات هامة من مواطنينا " [3]. إن وضعية اللاأمن، حسب هذا النص، صادرة أولا عن المنظومة القانونية الأوروبية الخاصة بالتعامل مع المواطنين المغتربين كما أن القانون الذي وضع لضبط الهجرة اللاشرعية هو عدمية للمواطنة حيث يقول :" إن الاطار القانوني للمغترب اللاشرعي ظاهريا، هو مشابه للاشخاص اللاموجود قانونيا "[4]. و إذا رجعنا الى علاقة البنية الاقتصادية بالهجرة الشرعية أو اللاشرعية وجب التساؤل : هل العولمة الاقتصادية اليوم تسعى إلى الغاء الحدود بالنسبة للسلع و الأموال و " الآخر " الذي يقوم بتموين نظام من العراقيل و الحواجز ضد حيوية قوى العمل و كذلك " حق الهروب " الذي ينتهجه الشباب المغترب أمام البؤس و الفقر و الحروب و كذلك ديكتاتورية الأنظمة في بلدانهم الأصلية؟

---

(1) - Bayart Jean – Francois , Critique Internationale , Janvier 2003 , n18,p02.
(2) - Defarges Philippe Moreau, Que peut L Union Européenne, ed. Sciences Humaine , Paris, 2002 , p 195 .
(3) - Balibar Etienne, l'Europe , L'Amérique , la Guerre, p161.
(4) - Ibid , p162.

يرى باليبار ، أن تاريخنا الحالي، يعيد تلك الصورة المتعلقة بشروط الأجر الرأسمالي و الذي يستند الى تحرير قوى العمل على عكس الأنظمة التقليدية التي تعتمد على الهيمنة و التبعية من جهة، و من جهة أخرى، على تأطير دقيق للحركات على حساب منظومة مواطنة مختلفة مثل المغتربين غير الشرعيين. و من خلال هذا ، يقترح وجوب تحويل التفكير حول العلاقات الموجودة بين التاريخ الأوروبي و الفترات التاريخية للاستعمار ثم فترة التحرر من الاستعمار [1] .

كما يذكر، في هذا الصدد، العالمان الايطاليان ألسندرو و ميزادرا، أن صورة المحيط الذي وضع الحدود ، أصبح ممتدا إلى العالم ككل بواسطة الاستعمار الأوروبي على شكل أن كل وضع للحدود في أوروبا و بواسطة أوروبا هو شكل تضامني لمؤسسة عالمية. و من هنا، ننسى أن حد هذه الحدود يستند إلى تمييز شامل لفضاءات و ريتم من التطور و الذي يضم لمفهوم المواطنة السياسة ، تمييز عنصري أنثربولوجي فريد من نوعه :" ففي الوقت الذي توجد فيه شعوب في قلب التاريخ ، توجد شعوب أخرى في مقام انتظار التاريخ " [(2)].

إن فكرة التحرر من الاستعمار،في القرن العشرين ، أعطت فكرة أخرى و هي محو و زوال الحدود في العالم و لكن ظهور الحروب الجديدة تكفي لإزالة هذه الفكرة من جديد، يقول باليبار في هذا الصدد :" **إن ممارسة الحرب إلى درجة قصوى (درجة الصفر) و التي استعملت لأول مرة في الخليج و كوسوفو، أعطت الفرق اللامحدود بين قيمة الأشخاص من جانب الغرب و من جانب الاخرين – حيث أن الموتى كانوا قبل كل شيء مدنيين – و لسنا في حاجة لكي نغامر على مسارح العمليات العسكرية لكي تلقى تلك الانثربولوجيا السياسة الأساسية التي تستند إلى اللاأوروبيين أو عموما إلى من هو ليس مواطنا لدولة غربية أو متطورة – قيمة فارغة بالنسبة لأنواع القانون الأوروبي أو الغربي – إن قانون المغترب**

[1] - Balibar Etienne, l'Europe , L'Amérique , la Guerre, p163.
[(2)] - Ibid, p 161.

اللاشرعي ظاهريا هو مشابه للاشخص غير الموجود قانونيا "[1].

حسب هذا النص، تتضح معادلة التحرر من الاستعمار و قيمة الاشخاص غير الأوروبيين، حيث أن الحروب الجديدة التي افتعلت في كوسوفو و في الخليج، تضرب عرض الحائط فكرة محو الاستعمار لأن الموتى و الضحايا في هذه الحروب هم قبل كل شيء مدنيون لا علاقة لهم، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، بتلك الحروب المفتعلة ، بالاضافة إلى كل ذلك، فالقوانين الموضوعة و المتجددة و الخاصة بالهجرة، تترجم الى حد بعيد العنصرية الانثربولوجية العمياء و التي تجعل من الشخص المغترب لا شخص لا وجود له في الفضاء السياسي . و منه ، فالنتائج التي تتداعى يوميا، تجعل من المراقبة على الحدود و التي هي تحت غطاء قانوني يتمثل في القبض على المزورين و المهربين لليد العاملة ، حربا برية أو بحرية خفية و شرسة جدا و احيانا ممتعة جدا و كل ذلك على حدود فضاء شانغن على الرغم من أن الضحايا يقدرون بالآلاف يقول جوتيسولو ج . * Goytisolo . J في هذا الصدد :" **إنه الحائط الواقي الجديد ... و لكنه اكثر فعالية و أكثر موتا (خطرا) ، إنه يحيط بالمحيط القوي لمجموعة الاثنى عشر ... إن تراجيديا النتائج " لممر الموت " ممر المضيق بالمنطقة الساحلية الاندلسية المحاذية للمغرب الأقصى ...حيث أن البوليس الاسباني لا يطلق النار عليهم، إنه يكتفي بإلقاء القبض عليهم لكي يقوم بارجاعهم أحياء أم أموات ، إلى نقطة انطلاقهم. في حين أن " أوروبا المتحررة " التي كانت بالأمس القريب مسلطة أعينها على حائط برلين لكي تستقبل و بكل روح تضامنية كل من يقوم بعبوره، هي اليوم تدير ظهرها و بكل لامبالاة لمسألة هؤلاء الهاربين و كأن هذه المشكلة لا تعنيها ... مثل هؤلاء الكاليفورنيين أو ألئك على خليج المكسيك على الحدود و الذين تشكل المطاردة و القبض عليهم بواسطة حراس الحدود، الحادث الوحيد المسلي في يومهم الروتيني الممل ...إن الاسبان المقيمين في وضعية مريحة أغنياء**

---

[1] - Balibar Etienne, l'Europe , L'Amérique , la Guerre, p161.

*- خوان جويتيسولو Juan Goytisolo ، ولد سنة 1931 من أسرة بورجوازية ببرشلونة، إسبانيا ، و منذ صغره نفر من عالم بورجوازي يكاد يختنقه.اكتشف بمدريد عالم الاداب و الشيوعية ، كان معارضا للتيار الفرانكي ؛ عاش بباريس ابتداء من سنة 1957. له عشرات المؤلفات، كانت ممنوعة باسبانيا حتى موت فرانكو ، نال جائزة أوروبالية europalia لمجموع مؤلفاته سنة 1985 . يعيش حاليا بمراكش. عن موقع الأنترنت :.www.editions-fayard.fr

و أحرار و أوروبيين جدد ، يشهدون و بكل برودة أعصاب تمثيلية إعادة ماضيهم التاريخي،إنه أصابهم فقدان تاريخي للذاكرة يكاد يكون كليا " [1] .

و من هذا النص ، نستنتج أن المراقبة على الحدود تحولت إلى حرب برية أو بحرية خفية و لكنها عنيفة جدا و عنصرية كذلك، ففي مقولة جويتسولو عدة دروس يمكن أن نستنبطها حيث هناك جدلية تاريخية، بالأمس كان حائط برلين يشكل الحد الذي يجب تجاوزه بالنسبة للألمان ، و هذا الفعل يشكل مظهرا من مظاهر الديمقراطية في أوروبا آنذاك و حق من حقوق الانسان المدني و منه كانت اوروبا متحدة على استقبال كل من يعبر هذا الحائط التاريخي، بل و يعتبر بطلا شجاعا تتكلم عنه الصحافة و وسائل الاعلام و لكن ، من جهة أخرى اليوم ، كيف يستقبل الاسبان الفارين و المهجرين عبر مضيق جبل طارق و بأية طريقة يعاملونهم ؟!!.

يرى باليبار ، أن كل تفكير نقدي ، يجب أن يبدأ باعادة طرح مسالة وجود الحدود الخارجية و الداخلية لأوروبا و رفض اجراءات الطرد، و بهذا الشرط الوحيد فقط يمكن النظر في المطالبة بأوروبا سياسية و في اعادة بعث حركتها القانونية غير الكاملة و كذلك تطورها المادي . [2] و من أهم مطالب المغتربين ، اليوم، الذين يتعرضون يوميا لحرب الحدود هو ما سماه باليبار معادلة المساواة - الحرية و الحقوق التابعة لها ، فالمغتربون يريدون اختراق مفهوم " العنصرية " الغربية و التي هي تعبير سياسي ثقافي عن الهيمنة الاقتصادية للدول الاكثر تطورا، لأنها، حسب باليبار امبريالية اقتصادية و عسكرية، و هي تعبير صادق عن العولمة يقول كارسانتي برونو Karsenti Bruno في هذا الصدد :" مشكلة الديمقراطية تكمن إذن، و قبل كل شيء، في ذلك التناقض و الذي تتركه يعيش بين أشكال المساواة و ميكانيزمات اللامساواة، بين " المواطنة و الرعوية " ،... إن خيط التحليل يقودنا إلى مواجهة العنصرية في بعدها القانوني " [3].

---

[1] - Goytisolo. J, un Nouveau mur de la honte : les boucs Emisaires de l'Espagne européene ,le Monde diplomatique , Octobre , 1992 , p 15 .

[2] - Balibar Etienne, l'Europe , L'Amérique , la Guerre, p 162 .

[3] - Karsenti Bruno , la Politique et la démocratie, Internet , 30 aout 2004 , p2 sur 4 .

و من خلال هذا النص، نستنتج أن مشكلة الديمقراطية اليوم، تكمن في مستواها الواقعي– السياسي من خلال ذلك التناقض الناتج عن جدلية المساواة و اللامساواة أو بين المواطن و الرعية و منه فالعنصرية الجديدة في أوروبا هي كما سلف الذكر، كامنة في منظومتها القانونية قبل أن تكون في المواجهة على الحدود. و لذلك تتركز كل مطالب و آمال المغتربين اليوم معادلة المساواة – الحرية ، و كل ما يتبعها من حقوق مدنية . يقول العالمان آلسندرو و ميزادرا:" **إذا رفعنا اعتقاد العيش حيث تستهلك الثروات التي ينتجونها ، فالمغتربون يعترضون على هذا اللاتناسق الذي يريد أن يبقيهم في مكانهم على شكل منتجين و بهذا المعنى فإنهم لا يتهربون فحسب من مختلف أشكال العمل الشاق الناتج عن الصناعات غير المحددة في مكان ، و لكنهم يخترقون حتى مفهوم " العنصرية " الغربية و التي هي التعبير السياسي الثقافي للهيمنة المادية المسبقة للدول الاكثر تطورا ... ان الاعتراضات السياسية التي يتبناها المغتربون لوحدها قادرة على تفسير ذلك العنف الخارق للعادة و بسببه يرمون و يطردون عندما يصبح تواجدهم غير ضروري في سوق العمل الغربي** " [1].

و من هذا النص ، يبدو واضحا ، كيف هو الميزان غير العادل الذي يوزن به المغتربين، حيث يتم استغلالهم في العملية الاقتصادية و سوق العمل إلى اقصى حد من دون حقوق ضامنة لمستقبلهم حيث يتم الاستغناء عنهم في أية لحظة يصبحون فيها غير ضروريين و من خلال هذه الوضعية ، يظهر من حين لآخر العنف داخل المجتمع الاوروبي ككل.

من خلال هذا ، يرى باليبار، أن تأويل هذه المقاومات و الاشكالات تفرض في وقت واحد تصور لتاريخ ما بعد الاستعمار الاوروبي و تفكير حول مصير العالمية. فما وحد حقيقة العالم ، ليس هو التوسع الاستعماري لوحده، و لكن هي تلك الحروب و الثورات التحررية و التي طرحت من جديد " الاختلاف الطبيعي " فيما بين انسانية الدول المستعمرة و الدول المستعمرة ، أو لنقل ديالكتيك قلب الأدوار، استثنائيا للاستعمار القديم و عالمية المستعمرات القديمة و نلمس النتائج ، في أوروبا ، من خلال الاختلاط العرقي و تنقل الشعوب [2] .

---

(1) - Alessandro . L et Mezzadra . s , les Frontières Inpensées de l'Europe, Traduction Balibar Etienne , ed . Manifestolibri , Rome , 2002 , p 152 .

(2) - Balibar Etienne , l'Europe , l'Amerique, la Guerre , p 163 .

المطلب الثاني :جدلية العلاقة بين الديمقراطية و حرب الحدود .

لا يمكن رفض العالمية و الاحتفاظ بمفهومها الاوروبي او امتلاكها من طرف اوروبـــا، و في هذه الحالة و التي نستطيع أن نسميها " ما بعد الاستعمار " و ليس " الاستعمار الجديد "، فان العنصر المميز هو النوعية الجديدة لحركات الهجرة و المطالب التي يحملها المهاجرون حيـــث أنهم يعطون سرعة للحداثة و يسيرون في اتجاه واحد ضد الامبريالية الاقتصـــادية و العســـكرية و ذلك باشكال أخرى للعولمة و يبدو واضحا ، كما يرى باليبار، من خلال تلك الديناميكيـــة من " سياتـــــل " * Seattle إلى جين * Genes و من " جين " إلى بورتـــو آليجـــــــــر * Porto Alegre .

إن هذا النوع من التفكير ، لا يمكن رفضه ، حيث يتضمن حقيقة ما تعيشه أوروبا اليوم و كذلك مدى " تبعيتها " ، إذا تمعنا في تلك الادعاءات القانونية و الأخلاقية لما يـــــسمى " المسالمة " الأوروبية [1] . ففي الواقع يوجد ما يمكن أن نسميه " حرب الحدود " و التي تقع في صمت ، فهي من أعالي البحر الأدرياتيكي الى مضيق جبل طارق و في كل المناطق اللامعينة المحيطة بالمراسي و المطارات و مناطق العبور من دولة لأخرى، و حتى في الاحياء الخارجية للمدن الاوروبية. إن هذا المجال هو مجال " مطاردة الانسان " و المضاعف بمطاردة فئات شعبية تحمل صفات فيزيولوجية معينة، و كل هذا يشكل نظاما من الفوارق و التمييز السوسيوسياسي الاوروبي الحالي او " الحرب الجديدة " بتعبير العالمين آلسندرو و ميزادرا أو بتعبير باليبار الآبارتايد الزاحف حيث يقول : " نموذج الابارتايد هو الاشارة الى المشاكل التقنينية و التمييزية (بما فيها الاستغلال ، التمييز العنصري ، و الأشكال المالية للعنف و الرقابة البوليسية حول الاقامة و الهوية و الحياة العائلية ...) هي برنامج اليوم منتشرة في كل مكان في العالم " [(2)]. و بالتالي فإن الاثنيات الأقلية في أوروبا تعاني اليوم من شبه حصـــار قانوني عليها و في بلدان تدعي الديمقراطية، يقول في هذا الصدد ليونال آرنـــــــــو Lionel Arnaud :

---

[1] - Balibar Etienne , l'Europe , l'Amerique, la Guerre , p 163.
[(2)] – Ibid,p163.

*- سياتل Seattle: مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية ..
*- جين Genes: مدينة بإيطاليا .
*- بورتو آليجر Porto Alegre : مدينة بالأرجنتين .

" ما هو تأثير السياسات المعتمدة من الاتحاد الاوروبي على حالة المغتـــربين داخـــل الدول الأعضاء ؟ إنه السؤال الذي تحاول أن تجيـــب عنـــه تلـــك المشـــاركة المتعـــددة الاختصاصات للباحثين الاوروبيين. الاتحاد الاوروبي يثمن المنابع الثقافيـــة و الاجتماعيـــة للأقليات و يساهم في رسم آفاق جديدة في الادماج. و رغم ذلك ، فإن الاحتفال المشترك للاثنيات المتعددة للمدن المعنية،يستطيع أن يمررمخطط ثاني للممارسات مثل التمتع بالحقوق بالشغل، و مختلف المصالح. و ذلك ، بتوجيه نداء للشعور بالمسؤولية من طرف الأفراد ، إن المبدأ العام الليبيرالي للاتحاد يتجنب تعريفاشاملا للمشاكل المتعلقة بالتمييزواللامساواة " [1].

و من هذا النص ، تبدو قضيتان متعارضتان ، فالأولى تتعلق بموقـــف الاتحـــاد الاوروبي اليوم من المغتربين و هو موقف متفائل حيث ان الاتحاد الاوروبي يثمن كـــل المنـــابع الثقافيـــة و الاجتماعية للأقليات الموجودة في أوروبا كما يمنحها آمالا جديـــدة مـــن أجـــل الادمـــاج الاجتماعي في حين أن القضية المعارضة لها هي أن الاتحاد الاوروبي يتجنب الخوض في معالجـــة تلك المشاكل المتعلقة بالتمييز العنصري و اللامساواة و لا يريد طرحها للنقاش إطلاقا.

فإذا رجعنا الى وضعية الأقليات الموجودة في أوروبا مثل الروم * Roms و التزيغـــان * Tsiganes ، و هم الغجر عموما ، فإننا نجد فعلا وضعية متناقضة للغاية ،فمـــن جهـــة هـــم مواطنون أوروبيون من أصول أخرى منذ مئات السنين و من جهة أخرى ، فهم ، لا يزالـــون يبحثون عن انفسهم ، يقول داشو :" إن التوسيع القادم للاتحاد سيضع في الضـــوء الوجـــود الأساسي للروم و التزيغان في اوروبا . هذا الوجود يستدعي اكثر اعادة طرح الطريقة التي تبني بها اوروبا حدودها، و اقتلاع المواطنة الاوروبية للانتماء إلى دولة من الدول الأعضاء " [2].

---

(1) - Arnaud Lionel, les Minorités ethnique dans l'union Europeenne , ed la découverte , Paris , 2005 , p 250..
(2) – Dacheux Jean Pierre ,les frontieres tsiganes de L' Europe ,Octobre ;2003,p2 sur 5.

* - الروم و التزيغان : يعرفون عادة بالغجر gitans ، و هو شعب من أصول آتية من مناطق تقع بين الشمال الغربي للهند و الهضاب الايرانية و اليوم هم متفرقون في كل مكان و خاصة باوروبا.معظمهم يتكلم لغة " الروماني rromani " و هي لغة تشبه بصفة ضيقة اللغات العصرية الهندو – أوروبية لأوروبا و على الخصوص اللغات الهندو – إيرانية لأوروبا و بالتحديد للغات الهندو – إيرانية الباكستانية و الشمال الغربي الهندي ، كما ان الروم يتكلمون لغة البلد الذي يقيمون به، فمثلا روم البريزران بكوسوفو يتكلمون أربع لغات هي الألبانية و الرومانية و السربو – كرواتي و التركية . إن الروم تشكل أقلية بأوروبا الوسطى و الشرقية و هم حوالي عشر (10) ملايين بأوروبا، و هم في الدول الجديدة بالاتحاد الأوروبي كالاتي : 10 % سلوفاكيين و 5 % مجريين و 2 % تشيك و 8 % بلغار و 6 % رومانيين. إن الشيوعية اعطت للغجر نوعا من الحماية و لكن بعد ما حدث من ثورات بأوروبا و خاصة ابتداء من 1989 ، تغيرت وضعية الشعب الغجري باوروبا حيث أصبح يعاني من القهر و التعسف و العنف. في سنة 2003 ، عملية صبر للآراء أعلنت أن 91 % من التشيك كانت لديهم مواقف معادية للغجر و 50 % من البوليس المجري يعتبر أن الاجرام يرتبط بالغجر من الناحية الوراثية. و اليوم و على الرغم من انضمام الكثير من دول اوروبا الشرقية للاتحاد الاوروبي يبقى الشعب الغجري يعاني من التهميش و القهر .عن موقع الأنترنتwww.wikepedia-org :

كما يضيف عن وضعية هؤلاء بالمجتمع الأوروبي :" إن الروم و التزيغان يعلنان أنهما " أمة دون إقليم " و " شعب أوروبي " . إن العشر إلى الاثنى عشر مليون من الروم، و الذين هم ، منذ أكثر من نصف ألف سنة يعيشون بأوروبا، هم في ديارهم ، و هذا ليس كمبدأ و لكن كواقع " [1].

إن هذه الأقلية الموجودة في أوروبا و على الرغم من جنيالوجيتها البعيدة عن الأوروبيين تطرح من جديد إشكالية الحدود في أوروبا؟! و في هذا الصدد يقول داشو :" في الواقع لا أحد، يجهل على الأقل الوقوع في سياسات ترقية الإنسان أو تصفوية أو تمثيلية حيث التاريخ قد جرمها ، أوروبا لا تكون دون الروم، و حيثما كان الروم ، يطرح السؤال و لا يتوقف عن الطرح من أن أوروبا هي على الخصوص في حدودها! " [2].

و من خلال هذه النصوص، تبدو جليا وضعية الأقليات الأوروبية من أصول عرقية أخرى على أنها حد من حدود الديمقراطية. و يتمسك باليبار بتحفظين اثنين على مستوى هذه المشكلة حيث يقول في هذا الصدد : " في حين، اذا قدرنا بكل دقة أننا في قلب المسألة التقريرية من أجل تفضيل نموذج سياسي أوروبي، إنني أريد تقديم تمييزيين في التأويل ، و اللذان هما مترابطان بصفة ضيقة، الأول يتعلق بالتحليل و الثاني يتعلق بالتنظير المستقبلي " [3].يتضح تحفظان من النص ، لباليبار،هما: التحفظ الأول يتعلق بمعرفة ما اذا كان النموذج الامثل لفهم نظام الفوارق و التمييز السوسيوسياسي الأوروبي الحالي هو نظام الحرب او كما قلنا سابقا " الحرب الجديدة " أو " الآبارتايد الزاحف " و هو يشكل الواجهة السوداء لانتشار مواطنة أوروبية ما فوق – الوطني أو ما بعد – الوطني و هي واحدة من العراقيل الأساسية للتطور ؟!في أوروبا ، اليوم ، المملوءة بهويات و وظائف متعددة و مختلفة ، و بمصيرها غير الأكيد و الذي يبدو لنا على شكل حدود عندما نلاحظ ما تعلق بوضعية و وظيفة الحدود لكي نحدد

---

(1) - Ibid, p 2 sur 5 .
(2) - Dacheux Jean Pierre ,les frontieres tsiganes de L' Europe ,Octobre ;2003,p2 sur 5.
(3) - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre , p 163 .

مفهوم النظام . يرى باليبار، أنه توجد ، و في آن واحد ، العنصرية القانونية و الحـــرب الاجتماعية سواء كانت دموية أو غير دموية، و من الواضح ، فتفضيل هذا الأمر أو ذاك، يجعلنا نتحصل على مفتاح التحليل السياسي الذي يمكن أن يؤدي إلى اختلافات جدية في النتائج. [1] .

يؤكد باليبار على خطورة التمثيل بين أشكال العنصرية القانونية في الفضـــاء الاوروبي و الآبارتايد في جنوب إفريقيا في الماضي القريب، كالاستفزازات الايديولوجية ، فمـــن جهـــة يوجد خط يقسم و يميز بين من هو مواطن و بين من هو لا مواطن – و هو شكل مقـــنن – و كذلك بين تلك الميول لما هو فوق الوطني و المواطنة و ذلك " بإرغام " فئة المغتـــربين علـــى اللامواطنة حيث يوجد حاليا بأوروبا، مغتربون مؤقتون بمعنى معين ، لأن مجموعة منهم و التي كانت على هذه الحالة لم يصبحوا عليها حاليا حسب تطور الـــتلاحم الأوروبي ، و مغتربـــون بالامتياز من جهة أخرى ، ذلك لأن " الأوروبانية " تعمل الآن على شكل ما فـــوق الـــوطني أو وطني اضافي [2] .يعطي باليبار مثالا على ذلك: عند لقاء الرئيس الفرنسي جاك شيراك برئيس الوزراء الألماني شرويدر خلال الاحتفالات بالمصالحة الفرنسية - الألمانية فيما بعـــد الحـــرب (عقد المصالحة دوغول – آندوار) حيث اقترحا قانونا رمزيا للجنسية المزدوجة الفرنســـية – الألمـــانية بينما عند لقاء الرئيس شيراك بالرئيس الجزائري بوتفليقة عبد العزيز لم يتعرضا الى هذا الموضوع اطلاقا أي مسالة الجنسية المزدوجة الفرنسية – الجزائرية و التي كما يظن باليبار انهـــا كانت ستكلل بنتائج ايجابية إن حصلت فلقد طرح في كتابه : الحق في المجتمع السياسي، المسالة حول العلاقة بين الجزائر و فرنسا : هل هما أمة واحدة أم إثنان ؟ و منه طـــرح استفســـارات كثيرة حول هذه المسألة التاريخية المحرجة جدا إذ يقول في هذا الصدد :**"من يريد إذن العـــودة حول موضوع الاستقلال ،" مراجعة " معنـــى و آثـــار حرب التحرير الجزائريـــــــــة؟ و رغـــــم ذلك، في الوقـــــت الذي فيـــــه، من جانـــــب و من آخر للبحر الأبيض**

[1] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre , p 164 .
[2] - Ibid, P 165.

المتوسط ، أصوات تتعالى لكي تعلن أن الجزائر و فرنسا لم ينفصلا بصفة تامة و تتأسف على انهما ليسا إثنان (بمعنى أن كل واحدة لا تكون حقيقة واحدة : الجزائر اكثر " فرنسية" أو مفرنسة ، و فرنسا أكثر مجزأرة ...) ، إشارة من هذا النوع، أليست ضرورية ؟! و اذا كانت الفكرة الزمكانية ، أو السوسيوزمانية ،لهذه الثنائية ذات الاتجاه الوحيد، العلامة ليست على اللااستعمار، و لكن على إصرار استعماري في التاريخ؟ " [1].

يتضح من هذا القول أن باليبار يعود إلى هذا الموضوع التاريخي الذي أحرج بعض المؤرخين في كلا البلدين، و ذلك بمراجعة آثار ثورة التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، حيث تتعالى اصوات من هنا و هناك، لتقول للعالم أن الجزائر و فرنسا لم ينفصلا إلى حد اليوم، فالجزائر لا تزال مفرنسة و فرنسا لا تزال مجزأرة ، فهذه القضية بالنسبة لباليبار، رغم إطارها السوسيوزماني، لا تدل على الاستعمار التاريخي فحسب و انما تدل على اصرار استعماري في التاريخ لا يزال قائما إلى حد اليوم**!.**

و يواصل باليبار في تساؤلاته حول هذه المسألة فيقول :**" إننا نتساءل ماذا كان تاريخ الجزائر " قبل و بعد فرنسا " ، " قبل و بعد الاستقلال " ، و لكن يجب أن نتساءل كذلك ماذا كان تاريخ الشعب الفرنسي و الدولة في فرنسا ، " قبل و بعد الجزائر "، لأن فرنسا اليوم تكونت (و بلا شك تتكون دائما) في الجزائر ، معها و ضدها . هذه الأسئلة دون إجابة بسيطة ، ممكن أننا نطرحها لأول مرة، إننا نستطيع أن نرى فيها العودة إلى مكبوت معين . إنها كذلك قضية جيل ، المظهر الاساسي لإشكاليتنا "** [2].

إننا لا نوافق باليبار عن تساؤلاته عن الجزائر و تاريخها قبل فرنسا و بعدها ، لأن ما فعلته فرنسا في الجزائر منذ سنة 1830 الى غاية 1962 يشهد ضدها ، خاصة ما تعلق منه من تجهيل للشعب و تدعيم الشعوذة و الطرقية و تشجيع النعرة الشعبوية و القبلية في إطار سياسة " فرق تسد " ، لكننا نوافقه في تساؤله الثاني و المتعلق بفرنسا ، لأنها تكونت و تتكون دائما في الجزائر ، معها و ضدها ، خاصة ما تعلق بالمصلحة الاقتصادية ، كما أن هذا الموضوع لا يزال يشكل " طابو " لا يمكن التطرق إليه بصفة موضوعية.

---

(1) - Balibar Etienne , Droit de Cité , ed. de L'aube , Paris , 2002 , p 73 .
(2) - Ibid, p 75 .

إن إشكالية العلاقة بين الهوية و الأخروية جعل باليبار يطرح سؤالا يتعلق بها :" هل يمكن لكل واحد أن يتحرر من هويته التي تسجنه؟ و هل يمكنه أن يعترف بالأخروية التي تكونه؟ و هل يمكن أن يكونا خطابا واحدا و في الوقت نفسه خطابا مشتركا" ؟ [1].

إن هذه التساؤلات مشروعة ، فالذات لها علاقة بنفسها و بالاخر في آن واحد ، يقول دريدا جاك عن الغيرية في هذا الصدد :" جعل من الآخر غيرية للأنا ... هو القضاء على غيرته المطلقة " [2] . إن هذا الخطاب ليس خطابا مجردا كما يبدو لأول وهلة و لكنه ينم عن تجربة مؤلمة و ان كانت متبادلة كما أنه مشكلا عالميا و يخص وقتنا الحالي فلقد تكلم دريدا جاك عن لغة " العالمي الجديد " متسائلا عن طبيعتها و منه فالعالمية الكلاسيكية كانت لها مرجعية هي " الضمير الطبقي " و التي كانت معبأة من أجل تجاوز الحدود [3] . و لقد ذهب بعض المناضلين إلى صنع لغة مشتركة لجميع الشعوب، و منه فجميع المحاولات لإنشاء ما بعد الخطاب ، و ضمير عال ، باءت بالفشل و السبب كما يرى باليبار انها لم تأخذ بعين الاعتبار خصوصية الحالات و كذلك خصوصية الاشكالات يقول في هذا الصدد :" أريد اقتراح هنا، أنه يجب البدء بطريقة جديدة لتفكير العلاقات المنطقية التاريخية بين الأمم، و العلاقة ذاتها مع التاريخ على شكل الأمة، مثلما يفرضه الوقت الحالي " [4].

و يجيب باليبار عن مسألة تلاحم الجزائر و فرنسا بأنها لم تتحقق بعد لعدة اعتبارات تاريخية و ثقافية حيث يقول :" يجب إذن اقتراح على الاقل بوصف رقمي، أن الجزائر و فرنسا، إذا أخذناهما معا ، لا يشكلان اثنين ، و لكن شيء مثل " واحد و نصف " ، مثل أن احداهما ، في علاقة الجمع، تشارك دائما في جزء من الأخرى " [5].

صحيح ، أن الجزائر و فرنسا ، لهما قواسم مشتركة ، منها نشر الثقافة الفرانكوفونية في الجزائر و لكن هل ذلك يعني أنهما شيئا واحد ؟! إذن ، أين نضع مشكلة الهوية التي تكلم عنها

---

(1) - Balibar Etienne , Droit de Cité , ed. de L'aube , Paris , 2002 , p 75 .
(2) - Derridat Jack, Dictionnaire Philosophique , ed . de L'aube , Paris , 1992 , p 35.
3 - Balibar Etienne , Droit de Cité , p 75 .
(4) - Ibid, p 75 .
(5) - Ibid, p 76 .

باليبار سابقا و التي تشكل في أوروبا ، في حد ذاتها، عنصر من عناصر التمييز العنصري الجديد؟! ثم اذا رجعنا الى مسألة ما هو مكبوت عند الاستعمار الفرنسي ، فلماذا لا تريد فرنسا التاريخية اليوم ، الاعتراف بكل جرائمها التي اقترفتها في حق الشعب الجزائري، نذكر منها فقط مجازر 08 ماي 1945 ؟! و لماذا يصادق البرلمان الفرنسي على مشروع قرار يتضمن تمجيد الاستعمار في مستعمرات سابقة و منها الجزائر، و بل يتكلم عن محاسن و آثار إيجابية تركها من ورائه ؟! ... الخ .

إن إعادة خلق مناطق الاقامة المكملة، كاطار تكميلي غير متكافئ للحقوق على أنها شروط للحياة، ذلك لأن استقلالية الظاهرة تخفي و بصورة سيئة، حقوق التنقل و المراقبة بالعنف ، فالفوارق الأنثربولوجية و ما يصاحبها من عنف لا محدود كتقسيم الناس الى متمدن و متوحش و إلى ما دون الانسان و ما فوق الانسان، وصولا الى المراقبة و التصفية البوليسية و الحرب على المسافرين اللاشرعيين ، كل هذا يجعلنا نندهش إذا قلنا إنه يشكل الجانب الاخر للمسألة حيث أن كثافة الممارسات الأمنية تتصاعد في أوروبا و ستنتهي إلى إلغاء الحدود بين البوليس و الحرب . و يرى باليبار ، أن هذه الممارسات الأمنية المرئية تنتج حالة من اللاأمن لتلك الشعوب " الوطنية " و الذين هم في الحقيقة آباء و أصدقاء أو خلف للمغتربين، فهذه الإجراءات لا تشكل عائقا فقط للمواطنة و لكنها تفك و تلغي مواطنة موجودة و مكتسبة [1] .

و من جهة أخرى، فإن المفكران آلسندرو و ميزادرا، يفضلان تأويل مفهوم الحرب بارجاعه الى تلك الرقابة العنيفة للمغتربين و يضعانها في خانة " الحرب الجديدة " و التي تعطي أشكالا جديدة من العقاب و تحويل و تفكيك مجتمعات من العالم الثالث – يوجد عالم ثالث في أوروبا ذاتها مثل ما وضحه تاريخ البلقان – فكل هذا العنف هو جواب لتلك الحركية الأساسية لمجموعة الشعوب العالمية التي تتآلف مع مستوى التقدم الرأسمالي و كل ذلك يؤلف إطارات و حدود منها وسائل الرقابة و ميكانيزمات الدفاع للرأسمالية الأمبريالية ضد تلك البروليتاريا ما فوق – الوطني و التي تعتبر مهدرة حسبهم [2] .

---

[1] - Balibar Etienne , l'Europe , l'Amérique , la Guerre , p 164 .
[2] - Ibid, p 165 .

إن الحرب الجديدة في أوروبا و الممارسة تجاه المغتربين من الدرجة السفلى حسب الفوارق الأنثربولوجية المفتعلة حيث صنف البعض منهم في خانة المتوحش أو دون الانسان، جعلها تخلق نظاما من التصفية البوليسية و المراقبة الدائمة على المسافرين اللاشرعيين مما سيؤدي الى الغاء الحدود بين البوليس و الحرب، فأشكال العقاب الموجودة تمس دولا من العالم الثالث و هذا ما يؤلف حدودا لصالح الراسمالية الامبريالية على الرغم من وجود عالم ثالث في أوروبا مثل البلقان كما ذكرنا يقول المفكر مودري تيري Mudry Thierry في كتابه : حرب الديانات في البلقان :" **فكرة " حرب الديانات " غالبا ما كانت مقدمة كشبه تفسير للاشكالات اليوغسلافية لسنوات 1990 . و استنادا الى دراسة معمقة بارعة ، و التي ترجع إلى وقت طويل للتطور التاريخي لشبه الجزيرة الكبيرة، خاصة تلك الفترات غير المعروفة جيدا لغرس المسيحية و وصول السلاف في البلقان، و دون التردد لمحاولة المقارنة مع مناطق أخرى مثل إيرلندا : فالاشكالات الحالية هي أقل ما بين – الأديان على أنها ما بين الايمان الداخلي** "[1]. و لهذه الأسباب ، فالصراع الذي بدأ دينيا انتهى بحروب أهلية عنيفة جدا و لذلك ظهرت عدة نداءات في أوروبا من أجل انضمام البلقان للاتحاد الأوروبي لاستكمال توحيد القارة الاوروبية، ففي تاريخ 06 ديسمبر 2002 ، و في محاضرة عنوانها " سلم ، أمن و استقرار " قدمها رئيس الجمعية ، برودي رومانو Prodi Romano ببروكسل أكد فيها أن إدماج البلقان في الاتحاد الاوروبي من شأنه أن يستكمل اتحاد القارة ككل ، و علق النائب البرلماني الأوروبي بانيلا ماركو Pannella Marco عن ذلك بقوله:" نحن نشكر رئيس الجمعية الذي أعطى، أخيرا و على الأقل عشر سنوات من التأخر، محاولة جادة، للانضمام إلى بلدان يوغسلافيا – سابقا و إلى بقايا البلقان – الآن يجب تحديد جدول يسجل هذه المحاولة على جدول شرعي"[2] .

---

(1) - Mudry Thierry, Guerre de Religions dans les Balkans, ed . Eclipses , Paris , 2005 , p 270 .
(2) - Pannella a Prodi , les Frontieres de L' Europe , Internet, Association Radicale de Belgique , 11/04/2005 , p 1 sur 3 .

و لكن هل تقف حدود أوروبا الديمقراطية عند هذا الحد؟ ، بالطبع لا ، فهي ستمتد إلى بلدان أخرى حتى تبلغ اسرائيل، يقول النائب بانيلا ماركو دائما :" و لكن حدود أوروبا التاريخية و السياسية تسير الى ما بعد جغرافيتها : إنها قبل كل شيء، من حدود تركيا التي هي في طريق الديمقراطية، و بلدان القوقاز، و أرمينيا ، و جيورجيا و أذربيجان و اسرائيل التي تخشاها الأنظمة الديكتاتورية و المهيمنة بالقوة للشرق الأوسط، على أنها (إسرائيل) " خلية " ديمقراطية و التي ستوصف على شكل سرطان سيتكاثر " [1]. و من خلال هذا النص، نستنتج أن حدود أوروبا السياسية تتجاوز الحدود الجغرافية و لا تعترف بها، طالما هي في اطار نشر الديمقراطية كما يظن هذا النائب في البرلمان الاوروبي، الذي انتقد و بشدة الدول العربية و اعتبرها دولا ذات نظام ديكتاتوري، بل و يتفاخر بأوروبا الديمقراطية قائلا : " أوروبا برودي هي أوروبا " السلم ، الأمن و الاستقرار " ، هي القيم المحتفل بها على أنها ضمانات ممنوحة من طرف الديكتاتوريات السيئة. أوروبا دي كاسبيري سبينيلي ، آدنوار و شومان، هي على العكس ، أوروبا الحق و الديمقراطية و الحرية على انها شرط للسلم، الأمن و الاستقرار " [2].

و يعود باليبار الى مسألة الارتباط الموجود بين فكرة " ما بعد الاستعمار " و فكرة " الاستعمار الجديد " على اعتبار ان جميع المجتمعات اليوم هي مجتمعات " ما بعد مستعمرة " و بهذا المعنى المزدوج و الذي تشكل في القرن العشرين على نتائج الاستعمار و الاثار اللامتوازية للتحرر من الاستعمار و التي تركت من ورائها استعمارا جديدا و منه نفهم اشكال ما بعد الاستعمار و ما يتعلق باطار الشعوب المحركة للاستعمار القديم في معسكرات – الدول الاستعمارية – القديمة او تلك التدخلات للدول الاستعمارية في السياسة و الاقتصاد لتلك الدول المستعمرة من طرفها، فهذا الالحاح على الاستعمار الجديد (حيث أن التحرر من

---

(1) - Pannella a Prodi , les Frontieres de L'europe , Internet, Association Radicale de Belgique , 11/04/2005 , p 2 sur 3 .
(2) - Ibid, p 2 sur 3 .

الاستعمار لم يكتمل و هو دائما يتجدد) ، داخل اطار ما بعد الاستعمار ، يظهر جليا كما يرى باليبار في التشكيلة الديموغرافية ببوبيني (شمال باريس) و داجنهام (شرق لندن) و في ساشنهاوزن (جنوب فرنكفورت) و كذلك في طريقة تصرف البوليس ، و في تلك البعثات العسكرية الفرنسية الى كونغوبرازافيل و ساحل العاج . و في هذا الصدد يقول :" في الحقيقة إنه أقصى التناقض في العلاقة بماضي الاستعمار الذي يجعل من أوروبا، بمعنى واحد ، مكان " ما بعد الاستعمار " بامتياز و أين تقرر الفعاليات السياسية المعترف لها بها "[1].

من هذا النص ، يتضح أن " ما بعد الاستعمار " ينم عن مكبوت نفسي استعماري لا يزال قائما و يتمظهر في التدخلات المتكررة من طرف دول استعمارية سابقة في الشؤون الداخلية للدول المستعمرة من طرفها و اعتبار شعوبها شعوبا صغيرة لم تنضج سياسيا بعد وكأنها الوصي التاريخي لها. و لذلك يطرح باليبار تلك الجدلية التاريخية و التي تذكرنا بجدلية البروليتاريا و البورجوازية حيث أن سلاح البورجوازية ينقلب ضدها فكذلك بالنسبة لأوروبا أو جزء منها، و التي استعمرت العالم أو جزء منه و في النهاية هي التي ضربت من جديد. فقد تبرر أوروبا تدخلاتها السياسية و الاقتصادية و حتى العسكرية في شؤون الدول الفقيرة المستعمرة سابقا ، بمبررات سياسية كخرق حقوق الانسان و حماية الأقليات أو محاربة الارهاب أو غير ذلك يقول المفكر سوناركلانز . ب . Senarclens.P :" **في سنة 1981 ، الجمعية العامة للأمم المتحدة، تقر حلا مخصصا لنظام إنساني عالمي جديد [...] ، بعد ذلك بقليل ، إنها تعطي دعمها الى انشاء لجنة مستقلة حول مسائل انسانية عالمية ، و التي تجمع شخصيات عالية [...] العلاقة بين اللجنة تسجل في سنة 1986 ، في اطار برنامج انساني تلك التحديات السياسية و الاجتماعية الاساسية الاتية ، مثل انحطاط البيئة، النمو الديمغرافي، الحركات الشعبية ، خروقات حقوق الانسان ، أسلحة الدمار الشامل ، القطبية بين الشمال و الجنوب ، الارهاب و المخدرات** " [2].إن الاستعمار الجديد متجذر في أوروبا و لا شرعيته

---

(1) - Balibar Etienne , l'Europe , l'Amérique , la Guerre , pp 166, 167 .
(2) - Senarclens . P , L'humanité en Catastrophe , ed . Presses de Science Politique , Paris , 1999 , p 65.

ظاهرة في ذلك الخليط الديمغرافي لمدة قرن و نصف من الزمن بالاضافة الى الالحاح و المطالبة بالمساواة و الحقوق المدنية للمغتربين و الاقليات التي تعيش بأوروبا.

إن هذه المقاومة مسجلة في الحق الثقافي و الذي تثمنه علاقات القوة الممدودة و الهشة في آن واحد – الأمر يتعلق هنا بالجيل الثاني و الثالث – و إذا تكلمنا عن تلك المظاهرات و الاحتجاجات الحالية للشعوب و الوطنية و العنصرية العرقية الأوروبية – عودة الاستعمار المكبوت و تسجيل الشكل الاستعماري في الفكر الاوروبي الحضاري – ذلك ما يؤخذ من وظائف الاقتصاد العالمي احيانا باعطاء نظام سياسي و أحيانا بإثارة مسائل الوطنية و المحلية و الأصولية الدينية (إسلامي أو مسيحي) و هذا ما تنتج عنه أزمات العولمة .

ينتقل باليبار إلى التحفظ الثاني ، و هو أكثر تجريدا و عمقا حيث لا يظن أن الطلبات السياسية للمغتربين (سواء كانوا هاربين أو لاجئين أو عمال) هي في الحقيقة طلبات قوية و التي كانت دائما مرفوضة لكنها غير منتهية بصفة مطلقة ، و ذلك يعتبر شيئا أساسيا بالنسبة للتحول الديمقراطي. و لا يهم أن كانت هذه الطلبات هي طلبات اعتراف بالعضوية الحركية كما هي غير محددة بالمنطقة و خارجة عن الاقليم و هي ذات علاقة منطقية بالبناء الأوروبي الذي يشكل بمفرده تلك العلاقة بأداة المراقبة في العولمة الرأسمالية و من دون شك فإن حرية التنقل تشكل المطالب الأساسية التي تتعلق بادماج المواطنة في كل شيء . لكن الحق السياسي في التمدن يتضمن كل العناصر الوسيطة بين الحق في الاقامة على شكل عادي للوجود الاجتماعي أو على شكل ممارسة للحقوق السياسية في الأماكن و المجموعات حيث الأفراد أو المجموعات كانوا " مرميين و مرفوضين " من طرف التاريخ و الاقتصاد و هو يشكل الوجه الآخر الذي لا يمكن فصله [1] .

إن المغتربين ليسوا فئة اضافية مهملة، هم في الواقع مسافرون (مرغمين ، محررين ، معزولين) و الذين وضعوا في مجتمعات غربية (يعمل باليبار على تخفيض انغلاقهم

[1] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre, p 167.

نسبيا و ليس القضاء عليهم) على اتصال بمناطق بعيدة أو قريبة (وجب العمل على تقليص المسافات و بناء الجانب الانساني الآخر لعولمة الاتصالات و السيول الاقتصادية) ، و في تجاربهم المعاشة التي ساهمت في إنشاء " ذاتية " سياسية للعولمة (و هي التي يطور باليبار من خلالها معادلة المساواة – الحرية) ، فظاهرة تفريق إثنيات معينة تشبه ظاهرة تفريق اليهود في التاريخ و هي تشبه كذلك ظاهرة الجوالة ، فتفريق الاثنيات يشكل مجالا محكوما بعقد نفسية – تاريخية في حين أن الجوالة تشكل سفرا و تجوالا لا نهائيا و دون عودة [1] .

و تاريخيا ، نلاحظ ، أنه مع استفحال الأزمة الاقتصادية في العالم، في نهاية القرن الماضي، و التي بلغت حدودا لا تطاق في بلدان العالم الصناعي نفسه ، بدأت فكرة العنصرية في الانتعاش من جديد ، و أخذ الخطاب العنصري يستجمع ملامحه المكتملة سواء في كلام رجل الشارع أو في كلام عنصر النخبة الاجتماعية في المجتمع الأوروبي. لكن الخطاب العنصري الجديد يختلف عن الخطاب العنصري الكلاسيكي، لا من حيث آلياته الاستدلالية ، بل من حيث مضمونه نفسه ، يقول الدكتور سبيلا محمد في هذا الصدد :**"العنصرية القديمة عنصرية عرقية، و دموية، لكن نتيجة التطور الذي حدث في الوعي الاوروبي، سواء من حيث الوعي بالأهمية التاريخية للامتزاج الفعلي للعروق عبر التاريخ، أو تحت تأثير الاكتشافات المعرفية في مجال الاثنوغرافيا و المتعلقة بالشعوب البدائية و شعوب القارات و التحجم التدريجي لفكرة المركزية الاوروبية في وعيه، بدأ الحديث على العنصرية لا في معناها العرقي و الدموي، بل في معناها الثقافي . لقد اتخذت الفكرة العنصرية بالتدريج في الغرب صورة عنصرية ثقافية أو إثنية أكثر فأكثر ، و اخذت العنصرية نفسها تتخذ شحنة سلبية في وعي النخبة و كأنها شيء لا يليق بدولة متحضرة متقدمة تدعى العقلانية و التمدن "** [(2)] .

---

[1] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , la Guerre , p168.

[(2)] - سبيلا محمد، السياسة بالسياسة ، في التشريح السياسي، إفريقيا للشرق ، بيروت، لبنان، 2000 ، ص 42 .

إذن ، حسب هذا النص ، بدأت العنصرية كعنصرية عرقية دموية مثل احتقار الزنـــوج و اعتبارهم ما دون الانسان سابقا و حرمانهم من أبسط حقوقهم، الى درجة أنه خصصت لهم وسائل نقل خاصة و أماكن عمل خاصة و حتى مقابر خاصة ، ثم تطورت العنصـــرية بفعـــل تطور البحث العلمي في مجال السوسيولوجيا و كذلك علم الوراثة، فوصل التمييز العنصـــري العرقي الى تمييز عنصري ثقافي و هذا يذكرنا بنظرة عالم الاجتماع ليفـــي بريـــل Levi Bruhl عندما تكلم عن شعوب ما قبل المنطقي حيث اعتبر هذه الذهنية " سابقة علـــى المنطـــق " ، و لهذا ظهرت نخبة في أوروبا و دول أخرى، فندت العنصرية الثقافية تفنيدا عالميا، حيث يذكر المفكر و عالم الاجتماع " لوي Lowie" أن ليفي بريل قد تجاهل ذكاء الفرد البدائي و عقلـــه و منطقه، حين طلع علينا بقانون المشاركة، إذ أن قول ليفي بريل ، بأن العقلية البدائية ســـابقة على التفكير المنطقي، و أنها لا تعرف القواعد المنطقية قول لا يطابق الحقيقة ، فلا مشاحنة في أن الرجل البدائي يفكر ، و أنه حين يفكر إنما يفكر داخل نطاق منطقي، و حســـب أقيســـة منطقية أيضا ، فلا يصح اطلاقا أن ننفي قدرة البدائي على التفكير المنطقي، أو أن ننكر قـــواه الذكائية و الفكرية، فمن الثابت أن البدائي " إنسان منطقي " بل إنه فيلســـوف لـــه موقـــف و فلسفـــة في الحياة ، و نظراتـــــه في الله و في نفســـه و في العـــــــــالم [1] . يقـــــــول قباري محمد اسماعيل : " و لعل مصدر الخطأ الذي وقع فيه " ليفي بريل " أنه أصدر " فرضـــا ميتافيزيقيا " و حاول أن يدعمه بشتى الظـــاهرات السوسيولوجية المؤيـــدة ، و هذه محاولـــة فاشلة من وجهـــة النظـــر الميثودولوجية البحتة، إذ أننا ينبغي أن " نضع فروضا " تحت محـــل التجارب و الوقائع حتى تؤيدها أو ترفضها " [(2)]. كما أن الفيلسوف شـــتراوس ليفـــــــي Strauss Levi يساهم كثيرا في تغيير صورة المجتمعات " البدائية " في ذهن النخبة عامة مساهمة لا نظير لها ، يقول الدكتور نظير جاهل في مقدمة كتاب " الفكر البري ": " **يختزل شـــتراوس علم " البدائيين " الاحساسي و خبرهم الى الاسطورة و السحـــــر ثم يختـــزل الاسطـــورة الى روابـــــط الذهن روابط دائما وجوديات تترابـــــط ، فتستوي الأشياء و تبدو حيـــاة البدائيـــين مرآة مصقولة لا تحكي عن نفسها بل عن ذات الغرب و علمه ... فلنصـــــغ**

[1] - قباري محمد اسماعيل ، علم الاجتماع و الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، مصر ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول ، ص 195.

[(2)] - المرجع نفسه ، ص 196 .

إذن إلى " البدائيين " وراء الخطاب الأنثربولوجي، فندرك حديث فطـــرتهم و هـــو مكمن عظمتهم و لنر مرايا سحرهم و كيف يدور أمرهم متجاذبين بين توحيد الموجودات و فراغ الأسماء ... يصبح الوجود رموزا حين تصبح اللغة إشارات " [1].

و يزيح شتراوس ذلك التعالي الاوروبي الثقافي عما يسمى " البدائيين " بل يصبح البدائي أصل لجميع الحضارات، يقول : **" و الغرب بعد أن دمر " البدائيين " لم يبرزهم إلا كمـــرآة تظهر وحيدا متفردا و في هذه الثنائية الخادعة يغيب ما تبقى من حضارات فهي إما أن تشبه الذات فيكره الرحالة الباحث فيها أصله الأوروبي و يسقط عليها عقـــده، إمـــا أن تشـــبه الصورة فتتحول حينها إليها ... و يرتاح . بين الذات و الصورة، بين المعلوماتية و السحر ، ينغلق في نظر شتراوس مدار المعارف البشرية، لتصبـــح كافة الحاضرات " نيوليتيـــة " أي أقرب إلى البدائيين"** [2]. إن مثل هذه الأفكار أدت إلى طمس معالم الصورة السلبية التي رسمها من قبل ليفي بريل عن ذهنية الشعوب البدائية و منه فقد أعادت الانثربولوجية البنيوية للشعوب " البدائية " مكانتها كشعوب لا تختلف عنها من حيث أن لها طريقتها الخاصة في التعامل مـــع المكان و الزمان و الموضوعات ، و أن لهـــا ثقافتها الخاصة التي تشكل صلة وصل لها مع العالم، و أن الأسطورة ليست خيالا تافها بل هي طريقة لإدراك العلاقات و لفهم العـــالم و لتفســـير ظواهره، بالاضافة الى دورها الادماجي – الاجتماعي العام .

و إذا قمنا بتحليل الخطاب السياسي في أوروبا عموما حول الاقليات العرقية الموجـــودة في اوروبا ، نجده في عدة أصناف كما يبرز ذلك الدكتور سبيلا محمد :

1- " إستراتيجية التقديم الايجابي للذات او كما يسميها الباحث غابل جوزيف : إضفاء الصبغة المثالية على الذات " [3] و تظهر هذه الاستراتيجية في الأقوال و المقالات التي تشير أن هذا البلد مضياف و متسامح كفرنسا و ألمانيا ... الخ و أن له تقاليد عريقة في تقبل الأجانـــب و استضافتهم كما أن قانون هذا البلد هو من أكثر القوانين تسامحا تجاه الأجانب و أن هـــذا البلد هو بلد الحرية في كل التاريخ ...الخ.

---

[1] - شتراوس كلود ليفي، الفكر البري ، ترجمة . د . نظير جاهل ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1987 ، ص ص 5 ، 6.

[2] - المرجع نفسه ، ص 08 .

[3] - سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة ، مرجع سابق، ص 44 .

و لكننا نجد ، على العكس من هذا ، أن العنصرية صارخة في الأقوال و السلوكات و الكتابات و الرموز ... الخ . و قد يلجأ الأوروبيون إلى اختزال هذه الفكرة بنسبها إلى فعل أقليات مثل النازية الجديدة في ألمانيا على أنه من فعل الشباب الطائش أو الهوليكانز في بريطانيا... الخ ، و كما يدعي الفرنسيون أنهم ليسوا أبدا عنصريين لأنهم ورثة عصر الأنوار و أفكار الثورة الفرنسية المنادية بالأخوة و الحرية و المساواة بين بني البشر جميعا، لكن التزايد المستمر لعدد من الأجانب في بلادنا ، و عدم احترامهم لقوانيننا و اعرافنا و معاييرنا يفسح المجال أمام ظهور شكل من أشكال النفور من الأجانب و هذا يشكل إنكارا ظاهريا لما يراد إقراره عموما، فالتقديم الايجابي للذات و التقديم السلبي للآخر ليس في الأغلب الأعم إلا مقدمة لإقرار خفي و رفيع العنصرية و تبريرا غير مباشر لها .

2- " استراتيجية القلب : أي قلب العلاقة بين المقدمات و النتائج " [1]. و يقصد بها أن إجراءات الحد من الهجرة أو التضييق على المهاجرين هي إجراءات لصالحهم حتى لا يصطدموا بطريقته في العيش و التي هي مختلفة تماما عن طريقتهم أو الإدعاء بأن هذه الإجراءات الحدودية هي في صالحهم لأنه من الأحسن لهم أن يبقوا في بلدانهم الأصلية ... الخ ، يقول سبيلا :" هذا الخطاب في عمقه خطاب النفاق المطلق و الخبث و الدهاء المطلقين ، فهو خطاب ذو مسحة وجدانية و أبوية واضحة حيث يظهر حرصه على مصلحة المهاجرين، و تخوفه على مآلهم و على الصعوبات الإدارية و التشغيلية التي يمكن أن تعرضهم ... الخ إنه خطاب دموع التماسيح " [2]. و من مظاهر قلب العلاقة بين المقدمات و النتائج ، قلب المسؤوليات ، و قلب المعاني كالقول مثلا أن المغتربين هم الذين لا يريدون التكيف معنا و مع نمط حياتنا ... الخ .

3- " إستراتيجية صوت الشعب بطريقة ديمقراطية للتعبير عن المعتقد العنصري مع نفيه في الظاهر بارجاعه الى الشعب لا إلى النخبة السياسية " [3]. يظهر ذلك في القول بأننا بلد

---

[1] سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة ، ص 46 . .

[2] - المرجع نفسه ، ص 46 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 46 .

ديمقراطي تمثل فيه النخبة السياسية تمثيلا صادقا رأي الشعب و فكر الأغلبية ، فنحن نعبر عن رأي الشعب الذي لا يريد أجانب في بلاده . و منه ، فالنخبة السياسية تنفي عن ذاتها المذهب العنصري و ترجعه الى الجماهير ، و بهذا فهي تخفي ذاتها في الصياغة القبلية للمفهوم العنصري و دورها في توجيه الشعب نحوه .

4- " إستراتيجية لعبة الأرقام و الاحصائيات بإبراز مضخم للعدد اليومي للمهاجرين أو لنسبتهم في الدخول مع إخفاء ضآلة حجمهم العام بالقياس الى عدد السكان " [1] . و الغاية من هذه الاستراتيجية هو تبيان العدد الهائل للمهاجرين الداخلين يوميا للمجتمع الأوروبي على شكل " السفينة الملأى بالأجانب ".و منه إظهار تجاوز الحدود الطبيعية و العتبات الدنيا مثلما تحدث الرئيس الفرنسي السابق ميتران فرانسوا عن " عتبة التسامح " . إن هذا العرض ، يشكل جزءا قليلا من استراتيجيات الخطاب السياسي العنصري السائد لدى النخبة السياسية في أوروبا و هو فرع من الخطاب الايديولوجي عموما لكن له خصوصياته التي تميزه عن خطابات عنصرية أخرى موجودة ، كونه تخفيفا للعنصرية و تحويلا لها من مجال الدم و العرق إلى مجال الخصوصيات الثقافية و في كونه نفيا ظاهريا للعنصرية بنقلها في الزمان و المكان و الموقع الطبقي و المدلول استجابة لمتطلبات العقلانية المجملة عن الذات [2] .

و لكن لنتساءل : ماذا يطلب المغتربون اليوم ؟

في الحقيقة، إنهم يبحثون عن حرية التنقل بين عدة مناطق في العالم أو بين " عوالم " كثيرة في الاتجاهين : ذهابا و ايابا ، محققين بذلك " تحرر استعماري " حقيقي و كذلك بناء مواطنه دون تأسيس عرقي أنثربولوجي دون أن يعني ذلك عدم وجود اختلاف ثقافي أو حضاري و كذلك صراع بين مصالح سياسية . إن المسألة تتعلق بآفاق تفكير في مصير هؤلاء ، السياسي ، و مساهمتهم اليوم في المفهوم السياسي . [3]

---

[1] - سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة ، ص 47 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 47 .

[3] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , La Guerre , p 169 .

يرى آلسندرو و ميزادرا ، بأن هذه الآفاق تتعلق بالعولمة " من أسفل " حيث يربطان هذه الفكرة بالأسماء الرمزية لسياتل Seattle و جين Genes و برتو آلجر Porto Alegre كما يتمنى باليبار أن لا يؤول تحفظه الثاني على أنه عداء أو حرب ضد تلك الحركات " المعادية للأنظمة السياسية " و التي تبحث عن الاطار التطوري و إجراءات الوحدة من خلال تلك المظاهرات و النقاش حيث يتم بناء نظام تواصل العولمة الليبيرالية . فمن جهة ، لا يرى باليبار ، في تلك الانقلابات المتجذرة حاليا ، دليلا على المقاومة ضد الرأسمالية العالمية من خلال حركة و تغير الهويات و تمزق البلدان بعدما تجذر مؤخرا فيما يسمى " العيش و العمل في الوطن " داخل المجتمع الاوروبي و كذلك الدفاع عن الثقافات و الانتماءات المهددة بالدوس عليها من طرف الالة الضخمة [1] .

و من جهة أخرى ، يرى باليبار أن نموذج المقاومة الذاتية و العالمية السياسية و التي تبنى فقط على جعل من قوى العمل و استغلالها من طرف الرأسمالي – ذلك منذ زمن طويل و هي غير مفصولة عن العنف و المنفى – يجعلنا نفرق و نميز بين اقتصاد تقليدي و اقتصاد مستقبلي . فمن جهة ، لدينا فكرة أن المستقبل السياسي للمغتربين يكمن في المطالبة بالحقوق الاجتماعية و الانخراط في البنى النقابية للديمقراطية الاجتماعية الغربية (و يدخل باليبار كذلك الشيوعية بمعنى التغيير و التصحيح الثوريين) و العجز المالي لتلك البنى في تنظيم البروليتاريين ما بعد الوطنيين الجدد و بكل بساطة إعطائهم الكلمة . و من جهة أخرى ، سنحصل على فكرة : أن المستقبل السياسي للمهاجرين هو التحول الى " قاعدة شعبية " و كذلك إلى النموذج الأمثل للمناضلين ضد العولمة، أو كما يعبر عنه حاليا، و الذي يحمل نضال الطبقات و على نفس مستوى العمومية لتمركز الرأسمال العالمي ، بسبب أن الوضعية اللاأمنية و الاحتقار و القمع الأقصى للذين إقتلعوا من جذورهم ستنقلب بصفة أوتوماتيكية على وضعية الطليعة [2] .

---

[1] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , La Guerre, p 170.
[2] - Ibid, p 170 .

إن دمقرطة الحدود و التي يصر باليبار من خلالها ، الحصول على نظام أساسي للمقاومة ضد منطق التمييز العنصري و الاقصاء و في الوقت نفسه بناء أوروبا ديمقراطية بمعنى أوروبا في حدود هذه الكلمة و ليس أوروبا مثالية، ذلك لأن باليبار ، لا يريد أن ينادي أوروبا، تلك التي أدارت ظهرها لمثلها و التي كانت تنادي بها و بكل قوة ، و لكن كما يقول " أوروبا و بكل واقعية " [1]، لأنه في التقدم الحقيقي للديمقراطية القارية بعيدا عن تقاليدها الوطنية و الاجتماعية و الذي يضع شرطا في الانخراط الشعبي للمشروع حيث يبقى ذلك ، مشكلة مطروحة بدلا من حل ، يقول باليبار :" إنه مبدأ غامض و لكنه يحمل هذا التدقيق السلبي : نظام الحدود " الخارجية " و " الداخلية " ، يبقى بصفة جذرية غير ديمقراطي بصفة طويلة مادام غير مصرح به و ليس هناك أية إمكانية " لمستعملي " الحدود ، فرديا و جماعيا للتفاوض حول نموذج الادارة و قوانين العبور " [2]. و من خلال هذا النص ، يؤكد باليبار على استمرار نظام لاديمقراطية الحدود من خلال لاديمقراطية المنظومة القانونية .

و من جهة أخرى، فهي عبارة عن مبدأ متناقض، لأنها تنتهي عند أفكار مثل مراقبة ، " شعبية " لمراقبة " دولة " للحركات الشعبية ، و التنظيم اللامتحيز للأمن و الذي نحن متأكدين، كما يقول باليبار، و بصفة مسبقة، أنها تتعلق بعلاقات قوة و أنها سقوط من هنا و هناك للنموذج المثالي للمواطنة و كل ذلك يكون مستعملا بأجهزة من السلطة ، يقول: " لكن هذه النقطة المتناقضة لها كذلك الأولوية لتعيين سياسيا المكان المشكلة أين تلعب إمكانية تجاوز تواصل الانغلاق الوطني الامني و الامبراطورية بلا حدود (اللذان هما نموذجان تقليدي و معاصر للبوليس)" [3]. لقد اعتبر باليبار، من خلال هذا النص ، البوليس ، امبراطورية بلا حدود بالاضافة الى كونه انغلاق وطني امني و منه فاوروبا الحدود و أوروبا الديمقراطية ، هما في الحقيقة ، مفهومان لهما معنى واحد لفظيا : إنهما يحددان الاستحالة في عالم اليوم لمعالجة

---

(1) - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , La Guerre, p 171 .
(2) - Ibid, p 171 .
(3) - Ibid, p 172 .

و من جهة واحدة المسألة التي أصبحت غير متجاوزة و هي أنظمة التنقل و اندماج " المجموعات " [1] . ففي الميدان الثقافي و ميادين الحضارة ، تنتقل من البروليتاريين إلى الطلبة ، إلى المهنيين ، إلى المثقفين .

يرى باليبار ، أن مناطق العالم اليوم ، تتبادل فيما بينها ، لتكون " وحدة واحدة " مع بقائها متعددة ، و هذا ما يفسر لنا أن شمال البحر الأبيض المتوسط هو في حاجة إلى جنوبه في الوقت الذي فيه جنوب البحر الأبيض المتوسط هو في حاجة إلى شماله و هذا ليس فقط لفتح مناصب عمل و لكن لخلق و ابتكار حقوق و إطارات لتعريف القوانين و هذه التكاملية ليست ضرورية عند باليبار لكنها ممكنة ، في حين أن اللاإستقرار العام ، يعجل حروب و اشكالات محلية وطنية و مواجهة داخلية أو عالمية، و يزيد من الهاربين أو الفارين ، و يقوي من الضغط الأمني و يجعل كل من " مفاوضات " لعبور الحدود مستحيلة و لمدة طويلة. لكن باليبار يظن أنه لازالت هناك فرصة لأوروبا لكي تقدم مؤسسة اللااستعمار المحلي و الذي يسمح لمقاومة " المملكة " أو " الامبراطورية " و تشارك في إعادة بناء العالمية على أسس أخرى لا إقصائية و لا متحيزة ، و في هذا الصدد يقول :" **هذه التشكيلات تشير من نفسها في اتجاه مشكلة أخرى ، لها تقرير تمثيلي لتلك التي تتعلق بالاجراءات المؤقتة في أوروبا : جعل من اللااستعمار مهمة واحدة لكل أوروبا ، و هو بالضرورة التساؤل على أي نماذج تستطيع الامم المتكونة تجاوزه و وصله بتاريخه الاصلي ، إنه من البديهي ، ألا يكون بنفس الطريقة بالنسبة للدول الاستعمارية القديمة " الامبراطوريات العالمية " (التي لا تحدد بالديمقراطية الغربية) و " للامبراطوريات القارية " القديمة و للأمم دون امبراطوريات (مشهورة سابقا بهذا الاسم : دون تاريخ ") مثل ايرلندا أو الدول السلافية بقلب أوروبا .**

[1] - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , La Guerre, p172 .

و رغم ذلك يجب أن تجد هذه الميزات كيف تدخل في إطار اشكالية واحدة و هـــي أن المغتربين يدركون أوروبا على شكل : كل واحد " [1].

من خلال هذا النص ، تبدو فكرة اللااستعمار المحلي التي جاء بها باليبار أنها مهمة الجميع من دون استثناء ، مع العلم أن الادوار مختلفة من الدول اللاستعمارية القديمة و هي عبارة عـــن الامبراطوريات العالمية سابقا ، إلى الدول او الامبراطوريات القارية و هي الدول و الأمم القديمة و التي عرفت بأنها ليست لها تاريخ كايرلندا أو الدول السلافية المتواجدة بأوروبا حاليا ، و على الرغم من هذا الاختلاف التاريخي ، يصر باليبار على الوصول إلى الغاية الواحدة و هي القضاء على الفكر الاستعماري داخل هذه الدول التي استعمرت العالم سابقا او جزء منـــه لأن الفئـــة المغتربة ، داخل أوروبا اليوم ، لا تميز بين دولة أوروبية و أخرى و انما تعتبر أوروبا بصفة عامة عبارة عن كل و هذا يبين وحدة موقف المغتربين على اختلاف انتماءاتهم و اصـــولهم العرقيـــة و الثقافية.

و لكن كيف نصل حقيقة إلى دمقرطة الحدود ؟ و هل توجد الآن أوروبا بلا حدود ؟

لقد وجهت عدة أسئلة لباليبار حول دمقرطة الحدود في أوروبا على إعتبار أنها فكـــرة يوتوبية لا يمكن تجسيدها في الواقع السياسي ، يقول باليبار في هذا الصدد :" إنها نقطة ، و التي يمكن أن نعتبرها يوتوبية ، هذا ما يقال لي غالبا . لا أكون واهيا حول امكانات التقدم بسرعة في هذا المجال دون ملاقاة مقاومات كبيرة جدا: إننا هنا في قلب مسألة أوروبا المحصنة : و لكن لا أنطلق من لاشيء :هي تجربة و تمثيل منطقي أسسا " تفكيري " " [2].

و منه ، نلمس هذه المغامرة الفكرية و التجربة الديمقراطية الجديـــدة الـــتي أراد باليبـــار خوض غمارها للوصول إلى تحديد مجتمع أوروبي ديمقراطي حقيقي ، و لذلك فعبور الحـــدود ، لا يكون بالمعنى الاداري و القانوني عند باليبار و لكن يتعداه إلى المستوى السياسي ، و في هذا

---

(1) - Balibar Etienne , L'Europe , L'Amerique , La Guerre, p 173

(2) - Bayart Jean – Francois , Critique Internationale , n 18 , Janvier 2003 , p 171 .

الصدد يقول :" إن عبور الحدود ليس كما نظنه بمنطق اداري بحت أو قانوني، فعل مؤقت ليس له ماضي و لا مستقبل و الذي يعاد كل مرة من جديد . في الحقيقة ، بالنسبة لعدد من الناس، هو مجرد ذهاب و إياب ، تنقلات إذا نظرنا اليها من قريب فهي في صالح الجميع ، و لكنها تصطدم بعراقيل ليست بيروقراطية فحسب و لكنها سياسية "[1]. و منه فإننا لا نصل إلى دمقرطة الحدود دون دمقرطة المنظومة البوليسية ، فالبوليس الديمقراطي هو البوليس الذي ، حقيقة ، يراقب المواطنين و لكنه مراقب هو كذلك ، و هنا يحيلنا إلى فكرة العنصرية التي تكلمنا عنها سابقا في حرب الحدود و في هذا المعنى يقول :" التمثيل المنطقي كان يخص دمقرطة المنظومة البوليسية ، إن البوليس الديمقراطي هو البوليس الذي ، حقيقة ، يراقب المواطنين و لكنه مراقب هو كذلك ... الحدود ، حتى و إن لا نستطيع أن نقارنها بالبوليس ، هي رغم ذلك قوانين ، إن لها تاريخا ، إنها كذلك نموذج للقوانين المتروكة للتقديرات، المجال حيث حقوق المواطنين تتوقف لأنهم مبدئيا راجعون للدولة " [2].و من هنا ، فدمقرطة الحدود لا تعني إزالة الحدود من الوجود و لكنها تعني القضاء على العنصرية المقننة و التمييز المفضوح بين المواطنين و في هذا الصدد يقول باليبار :" إن إزالة الحدود أو مسحها تدريجيا لا هو ضروري و لا نتمناه. إن الازالة تعني تطوير غابة متوحشة ... لكنني أعني بامكانية رفع مطالب، مثل المقاومة الجماعية ضد الوظائف الجماعية التمييزية للمنظومة الحدودية، و التي تسهل التنقل للبعض بينما تجعله للبعض الاخر صعبا جدا. هذه هي الأهداف الديمقراطية بالمعنى اللفظي للكلمة " [3].

لقد طلبت لجنة المجلس الاقتصادي و الاجتماعي بفرنسا من باليبار أن يوضح لها كيفية تطبيق هذه الافكار التي تبدو انها أكثر مجردة و بعيدة نوعا ما عن الواقع السياسي الممارس يوميا في مناطق الحدود و في غيرها من المجالات السياسية الاخرى، فقدم مثالا واقعيا لحادثة طرد

---

(1) - Bayart Jean – Francois , Critique Internationale , n 18 , Janvier 2003 , p 172 .
(2) - Ibid, p 172 .
(3) - Ibid, p 172 .

وقعت لأشخاص من المالي و السينغال ، من طرف السلطات الفرنسية نحو بلـــدانهم الأصـــلية و سميت بحادثة شارتارز Charters و منه فقد تم حسب باليبار إجراء مفاوضات ، كما إستدل بتلك المفاوضات حول طلب تأشيرة الدخول إلى فرنسا من طرف الجزائـــريين الفـــارين مـــن الجزائر، و منه فالدولة الفرنسية أو باقي الدول الاوروبية عليهم بقبول التنـــازل عـــن بعـــض " الحقوق" و بعض " السيادة " و عليهم كذلك بعدم تحديد من الآن و بطريقة " مبدئية " تلك القواعد المتعلقة بعبور الحدود لأجل طائفة معينة من الناس .

إن هذا الأمر لا يعني تعيين سياسة العدد (الكوطا) بالنسبة للمغتربين أو مفاوضـــات دولية على المستوى الرسمي لأن هناك شركاء آخرين غير الدولة ، منها جمعيات تجمع المهاجرين و المفكرين و المثقفين و رجال القانون الذين يقطنون أوروبا أو خارجها، يقول باليبـــار عـــن نموذج هذا التفاوض :" إن هذه المفاوضات الدائمة تستطيع حتى في البداية ، أن لا تكون لها إلا وظيفة إستشارية (بشرط أن لا نتعامل معها بداية على انها حجة) . إن إجراء بهذا المستوي لا يؤدي بالضرورة إلى إشكال أكثر أو أقل من احتمالات التسوية ، حتى في المجال الامني ، بـــل يؤدي إلى الفوضى البيروقراطية الحالية " [1]. و لكن هل يمكن الوصول إلى أوروبا بلا حدود ؟ إن أوروبا ، إن كانت بلا حدود اليوم ، فلأن العالم اليوم هو عالم بلا حدود ، بحكم العولمـــة التي طعنت في حدود الدول و جعلتها مجالا للتساؤل ، يقول المفكر داشوجان بيـــار في هـــذا الصدد :" أوروبا، هي بلا حدود ، ليس فقط لأنها غير محدودة و لكن الأرض في حد ذاتها هي التي ليس لها حدود ... على منطقة، الفتوحات تكون دون جدوى و الحدود دائما مرفوضة ، غير محدودة ، لكي نعود دائما إلى نقطة البداية ! أوروبا ، هي بلا حدود لأن العالم لم تعد لديه حدود " [2].

إننا نتفق معه في هذا الرأي ، فأوروبا بلا حدود ، هي اوروبا التعددية الثقافية و التعددية العرقية مع تحقيق سياسة التسامح و قبول الاخر كما هو ، يقول المفكر ذاته :" إن أوروبا بـــلا

---

(1) - Bayart Jean – Francois , Critique Internationale , n 18 , Janvier 2003 , p 172 .
(2) - Dacheux Jean , pierre , les frontières tsiganes de l'Europe, internet , octobre 2003 , p 4 sur 5 .

حدود التي ينشدها العشر أو الاثنى عشر من الأعضاء الجدد الذين سينضمون إلى الوحدة ، لكن الشعوب التي تحيط بها (أو التي تقع على حدودها) ، أوروبا هذه ليست هي أوروبا الامم – الدول ... إنها أوروبا الشعوب المفكرة على شكل أمم لا إثنية . إنها أوروبا التعددية غير المتفرقة، إنها أوروبا الكثرة " [1].و من خلال هذا النص ، يبدو الاعتراف بارزا بالاثنيات التي تكون أوروبا كالمغتربين و الروم و التزيغان ... الخ و هذا كله يشكل أوروبا التعددية التي تقف على عتبتها الديمقراطية اليوم.

و لكن، هل يمكن لأوروبا اليوم أن تتجاوز حدودها ؟

يرى المفكر داشو، أنه على أوروبا أن تتجاوز حدودها على اختلاف مستوياتها حين يقول :" في كل مرة ، إنها الحدود التي يجب تجاوزها و التي تشكل المسألة : حدود اجتماعية ، حدود إثنية، حدود إقليمية و حدود قانونية " [2]. و من خلال هذا ، نجد عدة أنواع من أوروبا اليوم ، فمن أوروبا الليبيرالية إلى اوروبا ما بين الدول ، و من أوروبا القوة – المكثفة إلى اوروبا القوانين ، و كل واحدة لها ميزتها الخاصة التي تميزها ، و في هذا الصدد يقول داشو : **" أوروبا الليبيرالية تكون أوروبا عنصرية : المواطنون المحترمون لا ينخرطون فيها . أوروبا ما بين الدول المتواصلة ، تكون أوروبا الضائعة للدول – الأمم : التنوع الثقافي لأوروبا لا يجد حسابه و الاشكالات الاثنية ستظهر ،أوروبا – المحصنة ، المحمية من الداخل مثل الخارج، تكون أوروبا على الدفاع، و التي يسيطر عليها الخوف: المبادرة، اللقاء ، الثقافة، اللغات ، و حتى الحياة تجد نفسها مكبلة،و الارتباط بأوروبا سيتبدد. أخيرا ، أوروبا القانون ، اذا لم تكن الا القاسم المشترك فيما بين الدول، دون أن يكون هناك قفزا نوعيا، ستمنع بدلا من أن ترقي المواطنة الاوروبية، و التي تستطيع و يجب عليها تجاوز المواطنات الوطنية بدلا من الرجوع إليها "**[3].

---

[1]- Dacheux Jean , pierre , les frontières tsiganes de l'Europe, internet , octobre 2003 , p 4 sur 5 .
[2] - Ibid, p 4 sur 5 .
[3] - Ibid, p 5 sur 5 .

من خلال هذا النص، الذي يعطينا أصناف " أوروبا " اليوم ، يبدو موقف داشو موقفا متشائما من تحقيق الديمقراطية الحقيقية في وسط المجتمع الاوروبي ، فمن أوروبا الليبيرالية و هي ذات نظام عنصري لأنها قائمة على المصلحة الاقتصادية فقط، إلى اوروبا ما بين الدول و الـــتي تضيع فيها الدولة – الأمة حيث لا اعتراف بالتنوع و التعدد الثقافي ، و لا اعتراف بالأقليـــات و الاثنيات التي تعيش فيها، إلى أوروبا – المحصنة و المحمية داخليا و خارجيا ، و هذه أوروبـــا مبنية أساسا على القوة و الخوف و منه فهي تنفي الحرية و تقيدها ، و أخيرا نصـــل إلى أوروبا القانون التي تمنع تحقيق المواطنة الاوروبية الحقيقية لأن المشكلة كامنة أصلا في منظومتها القانونية كما اشرنا إلى هذا سابقا . و منه يصر المفكر داشو على أوروبا اليـــوم ، أن تتجـــاوز هـــذه المواطنات الوطنية و لا تفكر في الرجوع اليها لأنها ضرب من العنصرية الجديدة حتى يمكنها أن تنفتح على العالم و على ما تحمله العولمة من تغيير على جميع المستويات .

المبحث الثاني: حدود العالم و حدود السياسة.

إذا كانت حدود الديمقراطية في أوروبا كامنة في منظومتها القانونية على حدود فضاء شانغن ، فان نظام العولمة السياسي و الاقتصادي يقتضي تجاوزا لكل الفضاءات الجيوسياسية و الاقتصادية و منه تتضح العلاقة الجدلية بين الفضاء السياسي وبين نظام العولمة الاقتصادية.

المطلب الاول : جدلية العلاقة بين السياسة و العولمة الاقتصادية .

كل تفكير حول العلاقة بين السياسة و العولمة يجعلنا نقف أمام لعبة الكلمات التي تحيل إلى مختلف معاني مفهوم " الحدود ". هذه الحدود التي تناولها السياسيون كما تناولها المفكرون الاقتصاديون من حيث أن الحدود بين الدول بلغت حدا تاريخيا و هذه المسألة أثارها المفكر الاقتصادي المعاصر فوبريبا Vobruba.G حيث يقول في هذا الصدد :"إن فكرة حدود الدول بلغت ما بعد حدها التاريخي حيث أن الوظائف الداخلية و الخارجية هي في تناقص من حيث اكتمال وظائفها " [1]. فهذا المفكر لا يرفض فرضية زوال الحدود في العالم و الذي بدأ يتكون من جديد حسب رأيه. و يريد باليبار ، من خلال موقف فوبريبا جورج ، أن يتناول مسالة العلاقة الموجودة بين السياسة و ما يمثله اليوم مفهوم العالم حيث يقول :" و لكي لا تأخذ هذه المسالة مسارا تجريديا أكثر فإنني أوضح الموقف بطرح السؤال الآتي : ما هي المقاييس و التي من خلالها غالبا ما نؤكد أن العالم دخل في عهد العولمة أو أن فعل العولمة في العالم تخطى و بطريقة غير مرتدة حدا تقريريا "[2]. من خلال تساؤل باليبار حول المقاييس التي من خلالها نؤكد أن العالم دخل في عهد العولمة، فإنه يجب توضيح هذه المسألة من خلال العلاقة الموجودة بين السياسة و الاقتصاد حيث يركز باليبار على البنية الاقتصادية و يجعلها أساس التحول في هذه الفترة لأن رجال الاقتصاد هم الذين وضعوا مفهوم العولمة، و من الجانب الضمني فإن العولمة تحيل و بقوة إلى السياسية و لكن ببنية اقتصادية، فهذه الحالة غير المتجانسة تفتح المجال لتأويلين:

التأويل الأول : فإما أنها حالة اندثار و تآكل للسياسة في صالح الاقتصاد مثلما صرح بذلك رئيس شركة فولكسفاغن الشهيرة بقوله:" إن السياسة ليست سوى مجالا للممارسات الاقتصادية و الاقتصاد محاصر و بصفة تصاعدية بنظام البورصة " [3].

---

(1) - Vobruba George , the limits of borders , Trad Balibar , ed Abram de Swann, Amsterdam, 1994, p54.
(2) - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, ed . la decouverte , 2001 , p164.
(3) - Ibid , p165 .

التأويل الثاني: و إما أن ذلك يعني أن كل سياسة أصبحت اليوم سياسة اقتصادية و أن مجال الضغط الاجتماعي أصبح مشحونا بضغوط و استراتيجيات اقتصادية[1].

من خلال هذا ، تتضح العلاقة الجدلية بين السياسة و الاقتصاد في نظر باليبار حيث أن العامل الاقتصادي يشكل عاملا حاسما و فعالا في كل تغير اجتماعي و سياسي مما يذكر بالطرح الماركسي في هذا المجال . فغالبا ما يتم التركيز اليوم على العولمة من جانبها الاقتصادي كحركة رأسمالية على كوكب الأرض ككل، على الرغم من بقايا النظام الاشتراكي في كوبا و الصين. إن هذه الحركة الرأسمالية " الجديدة " تستهدف تحطيم كل الحدود الجغرافية و الحدود الجمركية و الحدود السياسية و حتى الحدود الثقافية للشعوب قصد غزوها و جعلها سوقا كونية و لكن اختزال العولمة في بعدها الاقتصادي هو وجهها الظاهر و الواضح و لكن هذا لا يلغي أبعادها الأخرى السياسية و الإعلامية و الثقافية.

فمن الناحية الاقتصادية، العولمة تعني سيطرة اكثر من عشرين دولة متقدمة بدرجات متفاوتة على بقية بلدان العالم و سيطرة أكثر من مئتي (200) شركة عالمية كبرى على كل أسواق العالم . و من الناحية السياسية، فالعولمة هي تسويق الديمقراطية و الليبيرالية السياسية كأسلوب للحكم و إدارة الشأن العام في الدولة مما يرافقها من ثقافة سياسية كحقوق الإنسان و الحرية... أما العولمة الثقافية و اللغوية فهي تعني انتشار اللغة الانجليزية و تحويلها تدريجيا إلى لغة عالمية، و كذا الثقافة الجماهيرية المرتبطة بها خارج كل استثناء ثقافي. و العولمة العسكرية تعني تحويل الكرة الأرضية إلى شاشة تحصى سكناتها و أنفاسها بالمراقبة الدقيقة و المتواصلة دون انقطاع عبر الأقمار الصناعية لكل شاذة و فاذة في العالم و تهديدها بالتدخل المباشر و السريع، لانظير له عبر التاريخ، يقول الدكتور سبيلا محمد عن العولمةالاقتصادية: **" و بما أن العولمة تعني من الناحية الاقتصادية إشاعة الليبيراليةعلى المستوى الكوني و تحويل العالم كله إلى سوق واحدة متجانسة تحكمها قوانين رأس مال**

[1] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, ed . la decouverte , 2001 , p165.

الليبيرالية الاقتصادية و تسيطر عليها الشركات الكونية العملاقة، فإن الخوصصة أو الخصخصة هي الوجه الآخر للعولمة، فالعولمة احتواء و هيمنة على الصعيد الكوني، و الخوصصة إحتواء و هيمنة على الصعيد المحلي و الجهوي، بل إن العولمة هي شرط الخوصصة و مقدمتها الضرورية. إن الخوصصة هي التطبيق العملي للعولمة و قرينتها المطيعة. العولمة خوصصة على الصعيد الكوني، و الخوصصة عولمة على الصعيد المحلي سواء إتخذت لها إسم اللبننة أو الجزأرة أو السنغلة أو المصرنة " [1].

نتفق مع سبيلا محمد على أن العالم اليوم لم يعد إلا سوقا كبيرا تحكمه المنافسة الشرسة من أجل تحقيق أكبر ربح ممكن على حساب المردودية و على حساب الانسانية و هذا يذكرنا بمفهوم الرعب الاقتصادي الذي يتكلم عنه دريدا جاك ، فهناك شركات اقتصادية عملاقة تستحوذ على الكون اقتصاديا و تبتلع كل ما يقف في طريقها، و منه فالاشكالات الاقتصادية، كما يرى باليبار، تعمل على تضييق المجال أمام السياسة مما يؤدي إلى امكانية تجاوز السياسة لصالح الاقتصاد . و من خلال ذلك، فمجال الانتاج و السوق سيتعرض إلى اشكالات سياسية و كل عمل اقتصادي يصبح افتراضيا، موضوع اختيار استراتيجي و حماسا ايديولوجيا و ليس فقط مجرد حسابات و مصالح [2] .

يرى باليبار أن كل وصف للعولمة على أنها مجال تطور اقتصادي إيجابي حتى و ان كانت تعمل اليوم على تطوير و تثبيت هذا المفهوم، يبقى غير كاف لأن التطور الاقتصادي عبارة عن ظاهرة متواصلة كما أن نظام العالم الحديث كان معولما أو في طريق العولمة منذ البداية التاريخية حيث أن إنتشار رأس المال الذي رسمه كارل ماركس في بيان الحزب الشيوعي يمثل أول نظرية في العولمة [3]. و بما أن العولمة الاقتصادية تحيل إلى التنافس بين رؤوس الأموال و كذلك التنافس بين الدول فكل التعديلات و الإصلاحات التي ينادي بها بعض المقاومين للعولمة و منهم بقايا

---

[1] - سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي ، ص 78 .

[2] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe , p 166.

[3] - Ibid, p166.

الشيوعيين في العالم، تبقى ضربا من اليوتوبيا ، يقول المفكر جيرو في هذا الصدد :" إن التنافس فيما بين الأوطان و التنافس فيما بين رؤوس الأموال، كل منهما يعد مهما في توجيه تطورات اقتصاد العالم و التي تبقى غير يقينية . و في غياب سلطة الدولة على مستوى العالم ، فإن " التعديلات الكينيزية العالمية " تبقى دائما يوتوبية "[1].فمفهوم العولمة يحيلنا إلى وضعية تضييق مفهوم و مجال الظواهر، فهي ظهرت كبنية لا يمكن عكسها في مرحلة أزمة سياسية نتجت عن حوادث متعددة و مختلفة أقلبت بصفة راديكالية نمط المعيشة الاجتماعية السابقة مما جعلنا نشعر بانعطاف حضاري. و لكن ما هي هذه الحوادث؟

- يحلل باليبار هذه المشكلة كالآتي :

1- البنية الاقتصادية : تتمظهر في ظهور مؤسسات و شركات متعددة الجنسيات و التي قدرتها المالية تفوق قدرة الدول و منه فهي تكتسب القدرة على نقل أنشطتها نحو أي بلد أو منطقة حيث تكون عوامل الإنتاج مربحة أكثر و بالمقابل تكون نظاما ماليا يتعامل واقعيا و منه تشكل فيما بينها كل الأماكن المالية، و من نتائجه ، إنها عبودية السياسة المالية، وطنية كانت أو ما فوق وطنية ، بمعنى من سياسات التطور الاقتصادي إلى التعامل و التبادل المالي للسوق الذي يتوازن على حساب المردودية . و كل ذلك ، قلص داخل القوانين و حتى داخل الدولة الجزء الذي يختلط ببناء و وظيفية الدولة الوطنية. كما انها أعادت طرح المعادلة بين " إطار الدولة " و " إطار السياسة ".

2- الحادث الثاني يتعلق بسقوط المعسكر الاشتراكي السوفياتي و الذي أنتج نهاية " تقسيم العالم " إلى معسكرات متضادة ، يقول باليبار :" هذه الحادثة ، في آن واحد ، سياسية و إيديولوجية : فالتمثيل الذي نقيمه حول أصولها و نتائجها هو جزء مكون لمعناها و قدرتها ، و هو محدد بعدة عوامل لتطوره "[2].

---

(1) - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe , p 166.
(2) - Ibid, p 167 .

و من هنا ، فالحركات التاريخية التي أدت إلى إعادة إدماج المجتمعات الاشتراكية، سابقا، في العالم الرأسمالي ، قد تم تجاوزها و هي تظهر على أنها نهاية الاشكالات و تحولات تهم الانسانية جمعاء على مدى قرن كامل و لكن الجذور تمتد إلى ابعد من ذلك و هذا يتضمن مظهرين حسب باليبار : المظهر الأول : يظهر على شكل نهاية مقاومة أو تنافس بين نظامين اجتماعيين مختلفين تماما حيث أن كل نظام ادعى رسم المستقبل و " تكمكم " في مواجهات بقوى فائقة أو بمعنى آخر دول امبريالية كانت تبحث عن الهيمنة الايديولوجية و الترابية و ذلك في مناطق التأثير . و يظهر أن نهاية هذا التناحر الثنائي بسقوط أحد القطبين أنتج مباشرة قطبية في العالم و التي أدت إلى تقسيم الانسانية سياسيا.

المظهر الثاني : نلاحظ وجود تميز آخر عالمي جعل من القطبية نسبية القيمة ، شرق – غرب ، و كذا التقسيم : شمال – جنوب ، بين الدول المتطورة و الدول المتخلفة، فهي لم تفلح، رغم وجود بعض الاتجاهات و التنبؤات باشغال المكان الشاغر لأزمة الاشتراكية – الراسمالية ، بما أن المشكلة هي مشكلة كوسموسياسية أو كوسمولوجية [1] . إن نهاية الايديولوجية هذه ، يمكن تفسيرها احيانا ، بتعدد الحالات و بتزايد اللامساواة في قلب الشمال كما هو في قلب الجنوب ، أين تكون إعادة توزيع الثروات و السلطة عموما، فأية إيديولوجية تدّعى توحيد الفقراء و الأغنياء ، لا يبدو عليها التحكم في ريتم تغيير الحدود فيما بين المناطق و تداخل هذه بتلك . إن اعتقاد بعض المفكرين بامكانية التنبؤ بحرب الحضارات غير مقبول عند باليبار لأن هناك ميول لتكوين جهات بسيطة و شاملة حيث يمكنها، و على مستوى إيديولوجي، خلق " قطبية العالم " أو " تقليص تعقده " ، يقول باليبار : " كان يمكن أن لا تكون مسألة العولمة ، إذا لم تكن موجودة بصفة أولية كسور " عالمية " أو حدود فائقة عالمية ، بالاضافة إلى تناحر القوى " العالمية " اذا كانت أيضا هذه الخطوط غير

[1] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, p 167.

ممسوحة " [1]. و بهذا المفهوم تصبح العولمة مجرد تجاوز لتقسيم العالم و نهاية التناحر بصفة دائمة ، و بمعنى آخر ، فهي عولمة ثانية لأن الأولى كانت في تناحر القوتين (الشيوعية و الليبيرالية) ، فهذه الديالكتيكية ستقرر نتائج تخص تمثيل السياسة .

و يتعرض باليبار إلى عامل ثالث يتعلق بمظهر تقني و مظهر طبيعي و اللذان يثبتان أن الأرض أصبحت " نظاما واحدا " أين تؤثر سيول الاعلام و الطاقة و المادة بعضها على بعض ، فمن الناحية الفيزيائية ، النظام الطبيعي و النظام التقني وجدا دائما، فالمسار " التقني " و الذي يماثل المسار " الطبيعي " حيث توجد آثار متراكمة للاختراعات التقنية تغير أو تعدل محيط الحياة للإنسان أو بالأحرى تبدل شروط وجوده الطبيعي بالاضافة إلى وجود مسار بيوتكنولوجي يؤثر على حياة الانسان عموما يقول باليبار :" و لهذا السبب أدخل في هذا المنبع الثالث لفكرة " العولمة " ليس فقط وجوده على مستوى الكرة الأرضية كاملة لنظام تواصل إلكتروني " [2].

إن هذا النظام الالكتروني هو نظام مراقبة حيث اكتشف من طرف لجنة برلمانية أوروبية لنظام تجسس سمي " إشلون Echellon" وضع في بريطانيا العظمى من طرف الولايات المتحدة الامريكية لسماع المكالمات الهاتفية الاوروبية و لقد نشر هذا الخبر في جريدة " العالم Le Monde" يوم 23 فيفري و 30 مارس 2000 [3].

و بواسطة هذه الوسيلة، فكل فرد يتصل بفرد آخر بقنوات قد تكون مراقبة أو غير مراقبة لكن باعتبار تلك المشاكل الايكولوجية و تحولات البيئة. يقول باليبار : " إن هذا الانطباع ، كما نعلمه ، يأتي و بصفة واسعة من طريقة أن التعارض بين " المعسكر " السياسي – الايديولوجي استطاع ان يظهر على شكل أفق ، أو النموذج لكل اشكال المقاومات الاجتماعية و كل اشكالات القيم الموروثة من التاريخ الماضي معارضة فيما بينها مفاهيم متضادة لمجتمع المواطنين و السياسة " [4].

---

[1] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, p 168 .
[2] - Ibid, p 169 .
[3] - Ibid, p 170 .
[4] – Ibid, p 171 .

و من خلال هذا النص، يتضح مستقبل العالم السياسي أنه يتعلق بتلك أشكال المقاومات الاجتماعية المبنية على قيم متضادة فمع نهاية مشكلة شرق – غرب و غياب كل مظهر جديد ، يصبح تنبؤ كارل ماركس حول " نهاية الدولة السياسية " قد تحقق و لكن على عكس المحتوى الذي أعطاه إياه : ليس على شكل نتيجة لزوال الرأسمالية و لكن لإنتصارها و تعميمها !

و يعود باليبار إلى مسألة الاقتصاد و طغيانه على العالم السياسي، فالسوق المعولم ليس له " الخارجي " لا بالمعنى الجغرافي و لا بالمعنى الاجتماعي للكلمة و في الوقت الذي يكون فيه كل نشاط انساني يأخذ شكل التبادل بالسلع أين تقع تحت ضغط القانون و القيمة ، فإنه لا توجد مكانة لممارسات و نماذج من الحياة المتلاحقة، إنه لا توجد سوى أشكال من الاقصاء الداخلي المرادف للاقصاء التام و المؤدي إلى الازالة ، فاذا كانت الثروات منظمة حسب الوقت الحقيقي " مع المستوى العالمي"، فإننا لا نرى اين تكمن امكانات المغامرات الفردية و الجماعية للتحدي الاقتصادي أو مشاريع التنمية المستقلة اذا لم يتعلق الامر الا بالتأقلم و بصورة يسيرة مع تغـــير الشروط التكنولوجية ، و أخيرا ، اذا كانت حقيقة التعامل بين الافـــراد و بـــين الجماعـــات تتضاعف من تعامل افتراضي حاضرا في كل مكان ، و هذا بشرط ألا يؤدي إلى تصور أن كل امكانات الاشكالات المتلاحقة و التي تشابه المجال السياسي ستكون هي كذلك مسقطه علـــى المجال الافتراضي ؟! إن العقلانية العامة " للتأقلمية " تمر من جعل أكثر واقعية تلك المحاولات المتلاحقة و اقصاء كل التاثيرات المزعجة و في هذا الصدد يقول باليبار :" إنه الشكل الوضـــعي أو الموضوعي لنهاية السياسة " [1].

و من خلال هذا ، فبعض التنبؤات الليبيرالية الجديدة و المتعلقة بنهاية التـــاريخ و الـــتي ظهرت خاصة وقت سقوط حائط برلين و سقوط المعسكر السوفياتي تكون في عمقها مختلفـــة بعض الشيء : حيث أنها تضيف لوصف التكنو – اقتصادي بعدا أخلاقيا ، و من جهة أخرى ،

---

[1] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, p 172 .

يجب التمييز و بجدية من هذه المحاولات ، الخطابات التي يسميها باليبار خطابات تبشيرية دينية و منه يدعو إلى التفكير في طريقه حيث ترجع فيها المرحلة الأخيرة إلى مرجعية دور الاقتراحات الاتية من الشيابا * و من حركة المقاومة الشيوعية الهندية و الموضوعة تحت إدارة ماركوس Marcos حيث يقيم الانتشار المعدي على المستوى العالمي [1] .

كما يضيف باليبار أنه توجد تصريحات تبشيرية تخص نهاية السياسة ، ففي بعض كتابات دريدا جاك يصف " عشر جروح " في العالم الحالي حيث أن مجموعها يشكل الرعب الاقتصادي لوقتنا المنحرف ، يقول بيلجرجون في كتابه اسياد العالم الجدد في هذا المعنى :" إن الاقتصاد العالمي مصطلح أوروبي معاصر ، فهو على السطح تجارة مالية فورية و هواتف محمولة و ماك دونالد و ستاربكس و اجازات محجوزة على الانترنت . و تحت هذا البريق ، ما هو الا عولمة للفقر ، عالم لا يجرب فيه معظم البشر أية مكالمة هاتفية و يعيشون على أقل من دولارين في اليوم ، عالم يموت فيه 6000 طفل يوميا من الاسهال لأن معظمهم لا يستطيع الوصول إلى المياه النظيفة "[(2)].

و يضيف ذات المرجع عن الرعب الاقتصادي العالمي قائلا : **"في هذا العالم الذي لا يراه معظمنا في الشمال العالمي أجبر نظام معقد للنهب اكثر من تسعين بلدا على اتباع برامج تعديلات هيكلية منذ الثمانينات، ما وسع الفجوة بين الأغنياء و الفقراء كما لم تكن من قبل. و يسمى ذلك بناء الأمة و الادارة الصالحة من قبل الرباعي الذي يسيطر على منظمة التجارة العالمية (الولايات المتحدة و أوروبا و كندا و اليابان) و مجموعة واشنطن الثلاثية (البنك الدولي و صندوق النقد الدولي و الخزانة الأمريكية) التي تسيطر على أدق التفاصيل السياسية الحكومية في البلدان النامية و تستمد قوتها إلى حد كبير من الدين الذي لا يمكن سداده و الذي يجبر الدول الأفقر على دفع 100 مليون دولار أمريكي إلى الدائنين**

---

[1] - Balibar Etienne, Nous Citoyens d'Europe, p 173 .

[(2)] - بيلجر جون ، أسياد العالم الجدد ، ترجمة عمر الأيوبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 08 .

* الشيابا chiapas : هي واحدة من 31 (واحد و ثلاثون) مقاطعة للجمهورية الفيديرالية للمكسيك ، عاصمتها " توكستالة " قيتيراز tuxtla gutirrez و هي تقع في جنوب شبه جزيرة يوكاطان yucatan و هي محاطة بأوكساكا ouxaca من الغرب و طاباسكو tabasco من الشمال و قواتيمالا guatemala شرقا و المحيط الأطلسي يحيط بها جنوبا ، مساحتها 75 ألف كلم^2 من 2 مليون كلم^2 من مساحة المكسيك و تعداد سكانها يقدر بـ 3.3 مليون نسمة منهم 2 مليون فقير.منذ سنة 1994 بالشيابا بالمكسيك ، بدأت عملية تكوين المجتمعات المستقلة الثائرة حيث الفقراء ينتفضون حسب عاداتهم و منه كونوا أشكالا من الحكومات و الحكم الذاتي و ذلك بالاتفاق الجماعي و بخبراتهم و عاداتهم المستمدة من الأجداد بالاضافة إلى ما اكتسبوه في العصر الحديث . عن موقع الأنترنت: www.wikipedia.org.

الغربيين كل يوم. و النتيجة عالم تسيطر فيه نخبة يقل تعدادها عن مليار نسمة على 80% من ثروة البشرية " [1].

إن الرعب الاقتصادي الذي تسببت فيه و لا تزال العولمة الاقتصادية خلقت في العالم جيلا كاملا من الجياع مما يجعل العالم اليوم في لا توازن كارثي أكثر من الخطر النووي في حد ذاته ، و لقد صدق المفكر المعاصر زيغلرجان * Zegler Jean حينما جعل من المديونية و المجاعة عبارة عن سلاح الدمار الشامل و ذلك في كتابه : إمبراطورية العار و يقول عنه الصحفي ترونغ نيكولاس Truong Nicolas في مقال له بجريدة العالم الديبلوماسي في هذا الصدد :" وضع تحت حماية المولوعين بالثورة الفرنسية، فإن الكتاب يصف " أسلحة الدمار الشامل " و التي هي المديونية و المجاعة ، و لكن كذلك محاولات الأمبرطة لهذه إمبراطورية العار " . إن العار هو كذلك في السلطة : ذلك بقلب الدخان و القيم لعالم مستعمر من طرف شركات خاصة عابرة للقارات " [2]. إذن من هذا النص ، يتضح أن الرعب الاقتصادي الحالي مرتبط بقيم لا إنسانية تمجد الربح على حساب شقاء و تعاسة و معاناة ملايين من البشر ، كما تكلم زيغلر عن عالم " كوسموقراطي " و عالم آخر للجياع في الأرض ، ما بين القلب و العقل، ما بين الشمال و الجنوب ، و منه لقد درس زيغلر ما يسمى " الاقطاع الجديد " في العالم و ذلك بواسطة شعور إنساني عالمي مشترك بين الجميع و هو : الخجل ، فيقول في هذا الصدد: " إنحطاط شرفي مخز أوعدم إرتياح مشعور به نتيجة تردد أو خلط فكري. الخجل هو هذا الشعور حيث العذاب و الشقاء و الرعب الاقتصادي فوجب تجاوز ذلك لكي نعيش " إذا لم يستطيع التغلب على خجله ، فإن الجائع يموت " ، إنه كذلك منبع الشعور بالذنب للأفعال القوية ضد " النظام اللاانساني للعالم " ، المرغم على تغطيته بلماع أخلاقي ، تفوقاتهم في الأسواق الإعلامية أو الصيدلانية " العار كذلك يسكن الأسياد " [3]. و منه تبدو جدلية الخجل

---

[1] - بيلجر جون ، أسياد العالم الجدد ، ترجمة عمر الأيوبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 08 .

* زيغلرجان : ولد سنة 1934 بتون thoune بسويسرا ، كاتب و أستاذ سابق لعلم الاجتماع بجامعة جنيف genéve و هو رجل سياسي ملتزم . كان أول مسير لجماعة إماوس الجنيفية emmaus genevoise قبل أن يبدأ مستقبلا سياسيا كمستشار بلدي اشتراكي لمدينة جنيف (1963 – 1967) ثم أصبح مستشار وطنيا من 1967 إلى غاية 1983 و من سنة 1987 إلى غاية 1999 قرر معارضة السيد كريستوف بلوشر Christoph Blocher زعيم لليمين المتطرف بسويسرا و بالتدقيق بمدينة زوريخ . حاليا هو مراسل خاص لجمعية حقوق الانسان بهيئة الامم المتحدة و كذلك الحق في التغذية . مواقفه و كتاباته عرضته لانتقادات و حتى اعتقالات . فلقد عارض مؤخرا استعمال اسرائيل للتجويع كسلاح ضد الفلسطينيين . لقد ألف العديد من الكتب منها : الجوع في العالم مشروحا لابني (عام 1999) و أسياد العالم الجدد (عام 2002) . عن موقع الأنترنت: www.unige.ch. et fr.wikepedia.org.

[2] - Truong Nicolas , la Honte , le Monde Diplomatique , n 616 , juillet 2005 , p 27 .

[3] - Ziegler Jean ,l'empire de la honte , ed . Fayard , Paris , 2005 , p10.

و العار، فإذا كان الفقير المستغل يخجل إلى درجة الموت فإن " السيد المستغل " و الذي لا يهمه إلا مصالحه الاقتصادية ، يغطى بلماع أخلاقي لأن العار يسكنه.

لقد ركز باليبار على الأمثلة الاقتصادية لأنها هامة جدا حيث تحتوي على عناصر نقدية ظاهرية لاعتقادات إنسانية ميثولوجية حول نهاية التاريخ و وظائفه الإيديولوجية لأن العالم اليوم تغير تماما عما كان عليه سابقا، حيث أصبح أكثر تعقيدًا ، حيث تداخل ما هو داخلي للبلدان مع ما هو خارجي و عالمي بحكم التطورات السريعة و المتسارعة في العشرية الأخيرة، يقول المفكر المعاصر سطانلي هوفمان Hoffman Stanley :"**... إن تأويل الداخلي و العالمية أو من العالمية هي عميقة جدا . لما نحدق من حولنا ندرك أنه بالنسبة لكثير من الدول، و خاصة في إفريقيا أو في آسيا، السياسة الداخلية ليست لها أية علاقة بنموذج مثالي : لا يوجد حد أدنى للتوافق الداخلي و السلطة المركزية التي هي غير فعالة و معارضة و غير موجودة. و على العكس نجد في مجال النظام العالمي بعض من القطاعات أين يوجد اتفاق على الإجراءات أو اتفاق حول العمق حيث توجد سلطة مركزية و على الأقل قوانين لها دور هام . هذه الملاحظات تصلح بالخصوص في المجال الاقتصادي أو المالي أين تشتغل التوازنات** "[1].

من هذا النص تبدو علاقة الداخلي بالعالمي بالنسبة للدول هي علاقة تأثر و انجذاب حيث في بعض الدول المتخلفة مثل بعض دول افريقيا و آسيا ، نجد أن الوضعية السياسية فيها غير متجانسة حيث تكون السلطة المركزية غير فعالة و لا تشتغل و هذا ما يذكرنا بالطرح الماركسي حول العلاقة الجدلية بين الدولة واللادولة حيث سلطة الدولة تطغى على جهازها فيصبح هذا الأخير لا يشتغل . و يؤكد هوفمان أنه في المجال العالمي نجد أن السلطة المركزية لها قوانين تسيرها مما يعطيها دورها السياسي و منه فهذه الأطروحة تجد مجالها و بنجاح كبير في الجانب الاقتصادي حيث يجب الحفاظ على التوازنات كتوازن السوق من خلال محاربة التضخم

---

(1) - Hoffman Stanley , le Nouveau Système Mondial , Le Pouvoir , Ed , Sciences Humaines , Paris , 2002 , P 176 / 177 .

المالي و التوازن بين الربح و الانتاج ... الخ ، و لذلك طرح باليبار معادلة العالمي – المحلي بمعنى ضرورة الموازنة بين السياسة الداخلية للدولة و على جميع مستوياتها مع السياسة العالمية أو ما تقتضيه العولمة على جميع اصعدتها (السياسية ، الاقتصادية ، الأمنية ، الثقافية ...) إن العولمة اليوم ، تبتلع الديمقراطية و تجعل من العالم ككل فضاء سوقيا لأصحاب الشركات العظمى و المتعددة الجنسيات و منه فحتى بعض الهيئات و الجمعيات العالمية أصبحت لا ديمقراطية لأنها غير مراقبة ، لقد جاء في باستيون عبر الانترنات :" يبقى جزء صغير من الرقابة الديمقراطية ، بالعكس ، فالممرات الفخمة الملونة لهذه الهيئات هي في الحقيقة مملكة لهذا اللوبي الخفي. هيئات مثل OMC – المنظمة العالمية للتجارة – و البنك العالمي FMI حيث لا نذكر إلا هذا ، هم بلا شك الأكثر شهرة من هذه الهيئات المتعددة الدول أو " الدولي " غير المراقب ، و لكن اللجنة الأوروبية و تلاعباتها البيروقراطية ، و حتى ONU – منظمة الأمم المتحدة – ليسوا ابدا أكثر ديمقراطية " [1].

و من خلال هذا النص ، نستنتج أن الديمقراطية اليوم أصبحت في خطر، عندما وصل الأمر إلى التحيز المفضوح لأكبر قوة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) ظالمة أو مظلومة .

و يضيف ذات المصدر ، أن هناك هيئات و منظمات تخضع لتفكير خفي و تخطيط غير ظاهر، أين يتفاعل معها أكبر الشخصيات السياسية في العالم، و هذه الأخيرة تمتلك من الأموال ما يتعدى رقم أعمالها مجموعة من الدول الأوروبية مجتمعة [2] . و لقد جاء في هذا الصدد في المرجع ذاته :" يجوز لنا أن نتساءل عن التأثير الممارس حول المفاوضات السرية الجارية من طرف نوادي للتفكير أكثر سرية مثل " اللجنة ثلاثية الأبعاد" أو جماعة " البيلدار بيرغ " و " الفوروم الاقتصادي العالمي " أو " مجلس العلاقات الأجنبية" ... أين يلتقي و في السرية التامة مسؤولون سياسيون و من مستوى عال، و صانعو الكرة و مسيرون للمتعددة الجنسيات

---

(1) - Accueil Bastion , la démocratie est en danger , n 74 , octobre 2003 , p 1 sur 2 .

2 - Ibid , p 2 sur 2 .

حيث أن رقم الحساب المعمول به يتجاوز غالبا مجموعة من الدول الأوروبية " [1] و منه ، فهذا النوع من التفكير و من الفعل ، لا يكون أبدا في العلن و أمام العالم أجمع لأنه يطعن في الديمقراطية المزعومة من طرف هذه الدول الرائدة ، كما يطعن في هيئات الدولة في حد ذاتها، و التي تبدو أنها فارغة و لا يخفى علينا دور العم صام – USA – في هذا المجال ، جاء في المرجع ذاته :" دون أن نسقط في بارانويا كبير ، يبدو أن هذا التفكير مشروع ، هذه الوثائق و هذه الروابط غير المؤسسة و التي ستحدد مستقبل العالم تظهر في وضح النهار الشفاف . إن الديمقراطية كانت ستربح كل شيء، و لكن لا يبدو هذا أنه برنامج العمل . كيف نستطيع أن نتكلم دائما عن الديمقراطية ، في حين أن بنيات الدولة تشبع أكثر فأكثر القوقعات الفارغة؟"[2].

يبدو أن هذا التساؤل مشروعا، لأن الديمقراطية تقتضي الشفافية في جميع المجالات لكن يبدو أن دور الدولة اليوم أصبح محكوما بالعولمة الاقتصادية مما يطعن في سيادة الدول و كل ذلك مبرمجا بالعولمة الاقتصادية و كل ذلك مبرمجا و مخططا من طرف الولايات المتحدة الأمريكية ، يقول ذات المرجع في هذا الصدد :" ما هو مثلا، دور العم صام في هذه الاجتماعات الأدبية ، إذا علمنا أن الحكومة الأمريكية تمتلك رسميا غلافا ماليا معتبرا لشراء تعاون أصحاب القرار الأجنبيين؟ " [3]. و من خلال هذا النص ، يجدر بنا التساؤل من جديد : هل الولايات المتحدة الامريكية تسيطر على العالم اليوم؟

حقيقة الولايات المتحدة الامريكية تسيطر و تسير العالم اليوم ، كما أرادت، تبعا لمصالحها الاقتصادية أولا و السياسية أخيرا و لقد سبق و أن علق عن ذلك المفكر المعاصر بوربلان بقوله :" إن الولايات المتحدة أصبحت القوة العالمية الوحيدة، إقتصاديا ، سياسيا ،

---

(1) - Accueil Bastion , la démocratie est en danger , n 74 , octobre 2003 , p 2 sur 2 ..
(2) - Ibid, p 2 sur 2.
(3) - Ibid, p 2 sur 2.

ثقافيا ، " أمريكا يجب أن تسير " [1] .إن الولايات المتحدة الأمريكية و بترسانتها الحربية غير كافية للسيطرة على كل العالم لولا ذلك الادراك الأمريكي الداعي إلى المحافظة على الأمة الأمريكية متماسكة و متحدة و في هذا الصدد يقول بوربلان : " يجب التذكير أن تأسيس التصور الأمريكي في مجال الدفاع ليس هو الحفاظ على نظام العالم ، و لكنه قدرة الأمة الأمريكية التي جاهت و في كل الظروف أي تحالف لأمم عدوة حتى و إن كانت كثيرة . رد فعل منطقي لبلد حارب لمرتين في قرن واحد ضد تحالفات أساسية لدول – أمم و التي كانت ميدانيا أكثر منه قوة. إن هذا التصور الأمريكي بفضل إستراتيجية الدفاع عن الأمة ، و منذ سبتمبر 2001 تضاف إليها واجبات محاربة الارهاب المؤسسة على اهتمام أمني داخلي "[2].

و حسب خبير إقتصادي بريطاني سترانج سوزان Strange Susan و هو مختص في العلاقات العالمية و الاقتصاد السياسي ، فإن الولايات المتحدة الامريكية لديها سلطة بنائية التي تسمح بتحديد بنيات الاقتصاد العالمي و باختيار أو تعديل البنيات، داخل بعض الدول حيث يجب أن تشتغل قوانينها السياسية و شركاتها و خبرائها، يقول هذا الخبير :" كما يوضحه إبراهيم وارد، أستاذ العلوم السياسية بجامعة باركلي، و الذي ينقل لنا هذه الأفكار، القوة البنيوية الأمريكية هي اليوم موزعة على جميع مناطق النشاط الاقتصادي و العلاقات العالمية"[3].

و منه فإن قوة الاقتصاد الامريكي تكمن اساسا في هذه القوة البنيوية و يضيف ذات المرجع:

" يعاب منذ مدة زمنية معتبرة على الولايات المتحدة تدخلها أكثر من غيابها على الساحة و اعاناتها .و انهم يوبخون حماقاتهم و عدم اهتمامهم بالمسائل المشتركة ، أو حتى ازالة القواعد و الممارسات الامريكية في مجال التجارة أو الثقافة . الولايات المتحدة هي رمز الراسمالية العالمية الحالية و هي حاملة اليوم لمنطق كوني. و بالنسبة لكثير من المفكرين ، فالعولمة التي بدأت منذ ثلاثين سنة هي نتيجة مباشرة للقوة الاقتصادية و العسكرية

---

(1) - Accueil Bastion , la démocratie est en danger , n 74 , octobre 2003 , p 2 sur 2

(2) - Borbalan – Ruano Jean – Claude , les états unis dominent – ils le monde ! le Pouvoir , ed . Sciences Humaines , Paris , 2002 , p 181 .

(3) - Ibid, p 188 .

الأمريكية و التي تسهل من جهة معينة نشر التحولات السوسيوثقافية و التي ولدت و عممت في الولايات المتحدة ذاتها"[1].

من خلال النص ، يتضح دور الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى العالمي، دورها السياسي و الاقتصادي و الثقافي و العسكري، فهي تخلق أزمات عالمية دون أن تتدخل بالاعانة، بل و تتدخل لتزيد من معاناة الشعوب المقهورة مثل ازمة الشرق الأوسط و التي تلعب فيها أمريكا الدور الرئيسي . و على الرغم من كون الولايات المتحدة أكبر قوة عالمية عسكريا و اقتصاديا و سياسيا و ثقافيا ، لكنها لا تتدخل لوحدها في شؤون دول أخرى ، بل بالعكس ، فهي تحشد لها الرأي العام العالمي بما فيها مجلس الأمن و هيئة الأمم المتحدة و " تفرض " على الدول القوية الأخرى ارسال بعثاتها العسكرية لمجابهة و محاربة " العدو الواحد " مثلما حدث في حروب الخليج و إلى حد اليوم ، يقول ذات المرجع :" في المجال السياسي ، انهم سجلوا على أنهم اصبحوا القوة الكونية الحقيقية الوحيدة و لكنهم لا يتصرفون على شكل امبراطورية اقليمية كلاسيكية و لا يمكنهم التصرف (ما عدا ظروف استثنائية مثل الضربات الارهابية لشهر سبتمبر 2001) دون التأكد من دعم دول التحالف أو من حياد الخصوم الدولية القوية "[2].

فعلا ، فأمريكا ، لا تتصرف عسكريا و سياسيا إلا بالتحالف الدولي من جهة و بحياد خصوم دولية قوية من جهة أخرى ذلك لأنها تخشى على مصالحها في كل نقطة من نقاط العالم و بذلك فهي تعتمد على هذا التحايل السياسي حتى تعطي مصداقية لتصرفاتها و تؤكد للعالم على أنها الدولة التي تصون و تحفظ الديمقراطية في العالم، لقد قال جورج كيتان عن المخطط الاستراتيجي الامريكي منذ سنة 1948 ما يلي : " إننا نمتلك 50 بالمئة من ثروات العالم، و لكن لدينا 6.3 بالمئة من سكانه . و في هذه الحالة عملنا الحقيقي ... هو المحافظة على هذا اللاتكافؤ. و للقيام بذلك ، علينا الاستغناء عن العاطفة المفرطة ... و علينا التوقف عن التفكير في حقوق الانسان ، و رفع مستويات المعيشة و إحلال الديمقراطية " [3].و منه أصبحت الديمقراطية أداة

---

(1) - (1) - Borbalan – Ruano Jean – Claude , les états unis dominent – ils le monde ! le Pouvoir , ed . Sciences Humaines , Paris , 2002 , p 189 . .

(2) - Ibid, p 190 .

(3) - جون بلجر ، أسياد العالم الجدد ، مرجع سابق ، ص 94 .

من حديد في يد القوى الكبرى في العالم ، عسكريا و اقتصاديا ، تضرب و تؤدب بها كل دولة فتية تريد الالتحاق بركب الأقوياء مثل التحرشات السياسية و العسكرية التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية ضد بعض الدول "الصغيرة" مثل كوريا الجنوبية و إيران و فنزويلا ، مما يؤكد أن الديمقراطية لم تعد إلا شعارا أو "براديغم سياسي " سرعان ما يتم استبعاده حينما تطفو على السطح المصالح الاقتصادية للدول العظمى في العالم .

المطلب الثاني : العولمة و حدود الديمقراطية

إن العولمة ، عند باليبار ، لا تنفصل عن الاستيلاء المطلق للوجود و الحرية الانسانية و التي تضم ظواهر للاقصاء الاجتماعي الاجمالي مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الابادات المقننة و الاثنيات الاتية من المجاعة و الحرب و التعرية الثقافية و كذا سيطرة وسائل الاتصال غير المشخصة و التي تسمح بتواصل مشروط للأفكار و العواطف.

و على الرغم من أن هذه الحالة التي تحمل الشرط الانساني إلى القمة أو إلى الحدود هي في الحقيقة غير متحملة لأنها لا تطال شيئا الا التدمير الذاتي للرغبة الانسانية و التي هي مخرج الحياة مثل بناء الروابط الاجتماعية ، و هنا نصل إلى نقطة التمييز بين ما هو مادي و ما هو أخلاقي (روحي) أو اختيار الوجود الفردي – الجماعي ، اللذان يتقدمان على شكل لفظ كلي، يقول ولرستاين wallerstein I :" تطور نظام العالم الذي يرمي إلى تعيين بصفة تقريبية منطقة اللاستقرار "حيث انشطار النظام " لا يعدو أن يكون احتمالا " [1].

يرى باليبار أن حجة المفكر ولرستاين أنه استعمل مجددا لفظ التبشيرية حيث قدمها على شكل حادث اجتماعي أخلاقي في آن واحد أين تلتقي الضرورة بالحرية مثل ابتكار حقائق الزمكانية من أجل فهم أنظمتنا التاريخية . و من خلال هذا ، يمكن للسياسة أن تنشأ من موتها حتى و ان كانت في أشكال غير منتظرة أو فريدة من نوعها [2] .

و في هذا النص يؤكد باليبار مسألة الحدود حيث يقول :" أريد الخروج من محاولة عدمية ، ليست بخطاب جديد و شامل و لكن بفحص كما صرحت به من قبل ، مسألة خاصة: إنه الاطار الحالي للحدود " [3]. فكل التناقضات التي تطرقنا إليها سابقا ستتكاثر من جديد ، ولكن بطريقة ، حسب باليبار ،اكثر واقعية ، خاصة إذا طرحنا المشكلة الاتية : كيف

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , p 178 .
2 - Ibid, p 178 .
(3) - Ibid, p 179 .

نعمل اليوم على دمقرطة منظومة الحدود ؟ بمعنى آخر كيف نجعلها في خدمة الناس و خضوعها لمراقبتهم الجماعية و لسيادتهم بدلا من استعمالها لقمعهم ؟

يبدأ باليبار بتعيين الحدود على أنها قوانين تاريخية حيث يقول :" تعريفها القانوني و وظيفتها السياسية و التي تحدد أنواع و أشكال خطها و الاعتراف بها ، و كذا عبورها ، بواسطة قواعدها و اجراءاتها المسجلة في نقاط عبور معينة ، كل ذلك تحول عدة مرات على ممر التاريخ "[1]. و من خلال هذا النص ، يؤكد باليبار على التحول التاريخي للحدود من حيث وظائفها السياسية و أنواع خطها ثم الاعتراف بها لأن الحروب التي وقعت في التاريخ بين مختلف الدول المتجاورة ، كان سببها الاعتراف بالحدود الجغرافية أولا و كلنا يتذكر كيف تم حرمان ألمانيا من منطقة الآلزاس و اللورين عقب الحرب العالمية الأولى و التي كانت من بين أسباب إندلاع الحرب العالمية الثانية قصد استرجاعها.

فمسألة تحول الحدود بمعنى ديمقراطي يتمثل في اعطاء سلطة الممارسة للمواطنين الذين تستعمل الحدود لمراقبتهم سياسيا في المجتمع الاوروبي عموما كما هو الحال اليوم في افريقيا و امريكا . فعند ما نقول أن الحدود عبارة عن قوانين ، فإننا نقر بعدم وجود حدود طبيعية و أنها لم توجد من قبل ابدا ، و هذا المعتقد السياسي الخارجي للدول – الأمم يشكل بعدا تاريخيا ، و حتى المظهر الخطي للحدود و الذي خط على الخرائط و المسجل على التراب، فكل ذلك الغاية منه الوصول إلى بناء دولي أخلط ممارسة السلطة ذات السيادة بالتحديد المتبادل للأقاليم و منه إضافة للدولة " حق الملكية " و الذي يتعداه إلى الشعوب و كل حركاتهم السياسية ، و حتى قبل تكوين شعب في حد ذاته، نجد أن المرجعية الأخيرة لتكوين السلطات السياسية في إطار الحدود الترابية المعروفة ، يقول باليبار :" إذا كانت الحدود مقننة، فإنها يجب أن تقدر على أنها قوانين – محدودة ، إنها تمثل حالة قصوى للقانون و على الخصوص

---

[1] - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , p 179 .

متناقضة"[1] . و من جانب المبدأ، يجب أن تبقى ثابتة و مستقرة، بينما بقية القوانين تتحـــول ، فيجب أن تعطي للدولة القدرة على مراقبة حركات و نشاطات المواطنين دون أن تكون هـــي في حد ذاتها مراقبة. إنها نقطة تعيين حيث أنه في الدول الأكثر ديمقراطية ، يكون إطار المـــواطن ملحق من جديد بالرعية و حيث المشاركة السياسية كذلك تترك المكان إلى سلطة البوليس [2] .

إنها شرط غير ديمقراطي بصفة تامة أو " بصفة تقريرية " هذه القوانين الديمقراطية غالبـــا ما تكون مقبولة أو داخليا مكبوتة ، إن دمقرطة الحدود تكون ، إذن دمقرطة بعض الشروط اللاديمقراطية في حد ذاتها و التي غالبا ما تشكل عائقا فيما بين الشـــعب و ســـيادته النظريـــة، و يمكن أن نظن أن الأمر هنا يتعلق بهدف عبثي إذا لم نلاحظ بأنه يتعلق في جـــدول أعمالنـــا بعالمنا المعولم [3] .

هذا الأمر ، يكون أحيانا ضوضائيا و أحيانا أخرى عدائيا، إذا قلنا أن الحدود غـــيرت مكانها ، في حين أنه حسب ما هو تقليدي و طبقا لمفهومها القانوني و كذا تمثيلها الخرائطـــي و التصور الوطني، يجب أن تكون على حافة الوطن حيث تعين النقطة أين تكف عن الوجود بينما نلاحظ اليوم أن الحدود و الممارسات القانونية التابعة لها ، انتقلت إلى وســـط الفضـــاء السياسي . إنها لا تعمل على شكل حدود بسيطة ، حدود خارجية للديمقراطيـــة، يمكـــن أن تكون قابلة للعبور من طرف مجموعة المواطنين و على أنها حدود حامية لحقوقهم و حيـــاتهم، و لكنها على العكس ، فإنها تخلق و بصورة متزايدة ، مشاكل داخل الفضاء المدني فهي منبـــع للاشكالات و أنها أمل و احباط لكل فئات الشعب المختلفة ، بالاضافة إلى الصعوبات المعقدة من الجانب الاداري و الايديولوجي للدولة (من جانب آخر ، مســـألة الجنســـية و المواطنـــة للأجيال المتلاحقة من المغتربين حيث أصبحت مشكلة معقدة) ، و منه تنبثـــق اســـتراتيجيات سياسية متناقضة من دون مخرج واضح [4] .

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe, p 180 .
2 - Balibar Etienne , les Frontieres de la démocratie , p 44 .
3 - Ibid, p 45 .
4 - Ibid, p 46.

هذه العوائق يبدو أنها آتية من تلك الهوة المتنامية بين سلم ما فوق الوطني أو ما فوق الحدود حيث تعقد عددا كبيرا من الممارسات الخاصة و العلاقات الاجتماعية، في الميدان الثقافي و كذا في الميدان الاقتصادي ، و بين الاطار الغالب للقوانين العامة و الخاصة بالدولة التي تبقى أساسا وطنية ، يقول باليبار :" لا أظن و بشكل كبير، أن " الحل " يكمن بصفة بسيطة في أقلمة القانون إلى هذا الاطار الاجتماعي الجديد ، أن تتخيله على شكل اضعاف متواصل للحدود أو على شكل تحديد لدورها بعلاقته بـ " نسبوية الدولة – الأمة " "[1]. و يؤكد باليبار أنه : أولا و لأسباب بسيكولوجية ، نلاحظ ميول هويات جماعية تتركز حول وظائف الحماية الخيالية التي تؤديها الحدود ، و جعل خطوطها و دورها في التفرقة بين الهويات " الصافية " بالقياس أن ضرورتها في الفضاء المدني أصبحت أكثر اشكالية . ثم لأسباب جيوسياسية : حيث نلاحظ بجانب المحو أو الاضعاف لبعض " التفرقات " – أحيانا قديمة جدا – تحت تأثير اتفاقيات التبادل الحر أو السوق المشتركة و اختفاء " مجالات " هامة و استراتيجية، و تكاثر لحدود جديدة ، و خاصة الالحاح الجديد على وظائف الحدود في مراقبة الشعوب ، و لكن هذه المشاكل الاتية من أصول الدولة الحديثة لا يمكن تجاوزها إلا بإعادة ذوبان راديكالي للعلاقات بين الشعب و السيادة ، بين المواطنة و الوطن : إذن هو تصور جديد للدولة [2] .

و يقترح باليبار خلق دستور أو دساتير جديدة من أجل الفضاء الشعبي حيث أن هذه القضية لها سوابق في التاريخ إذا لم نقل المرحلة الانتقالية من المدينة إلى الامبراطورية و من الامبراطورية إلى الأمة و من غير المؤكد أنها استكملت بصفة نهائية . إن هذا الاجراء لا يعدو أن يظهر على أنه أكثر طولا و أكثر اشكالا و هو بطبيعته تطور غير متساوي و لكنه أيضا سياسي بالمعنى القوي ، يقول باليبار : " كذلك السبب أعينه على شكل " حدود السياسة "،

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'europe , p 178 .

2 - Balibar Etienne , les Frontières de la démocratie , p 46 .

رمزيا للآفاق التي ترفعها العولمة، حتى و إن لم يكن لوحده " [1] ، و يدعم باليبار هذه القاعدة بمسألة أن العولمة التي عينت على أنها نهاية السياسة سواء بالمعنى التكنوقراطي أو بالمعنى التبشيري الديني ، فإنها تجلب ضرورة اعادة خلق السياسة، و ممكن أن تخلق شروط الدخول في مرحلة جديدة للسياسة و ينتهي باليبار عند قضية تناقض حركة الحدود من الحافة إلى الوسط في الفضاء العمومي [2] .

إن هذا التنقل ينشد أولا الأشكال الواقعية، و الحساسة ، لأنها ظواهر التكاثر (للحدود الاثنية) في قلب الأحياء المدنية العالمية الكبرى و التي تصاحب الاغتراب و تركز الشعوب الاتية من العالم كله ، حيث أن التعقد يؤدي إلى انفجار مفهوم " التجمعاتية " أو الغيتوهات ، و يجب استكمالها بدراسة تيبولوجية للمدن المفرقة بالقياس مع تاريخها : القدس ، هونكونغ و لوس انجلس و برلين و على الخصوص فرانكفورت و باريس ... و لكن هناك مظهرا آخر هو أن المشاكل المتعلقة بتسوية طالبي اللجوء و إجراءات المراقبة الخاصة بالمغتربين أو " الغير شرعيين " في أوروبا الغربية قد خلقوا مشاكل هامة خاصة الجانب الأمني و منظومة حقوق الانسان و منها إجراءات مراقبة الهوية – و هي على العموم موجودة داخل الوطن – و التي تسمح بانجاز الفرز بين المسافرين المقبولين و المرفوضين في وطن معين [3] .

إنها في الحقيقة ، و بالنسبة لمجموعة كبيرة من الناس اليوم ، الحدود الأكثر تقريرا : فهي لم تبقى مجرد خطوط و لكنها تحولت إلى مناطق للابقاء و الحفظ و اجراءات التصفية مثل الذين نجدهم وسط أو على حافة المطارات الكبرى الدولية ، و نحن نعلم أن مناطق العبور هذه هي مناطق للاّحق حيث أن فرص الحرية الفردية تكون مقصية و على أمد طويل و حيث يصبح الأجانب هم اللامواطنون و المقصيون ، و هذه فكرة واضحة عن قمة التناقض الموجود و الخاص بالشروط اللاديموقراطية للديموقراطية في حد ذاتها ، يقول باليبار : " إن هذه الظواهر

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , p 179 .
2 - Ibid, p 180 .
3 - Ibid, p 180.

الخاصة بالحضيرة الثقافية و المراقبة الداخلية للمغتربين تطال اليوم ملايين من الناس ، إنهم مهمشون رغم أنهم معروفون من طرف الجميع، و لكن هناك مظاهر أكثر تجريدا ، أكثر بناء كذلك ، و التي تهمنا هنا بالدرجة الاولى لأنها تطال الفضاء المدني في مجموع ابعاده : ليس فقط الفضاء الجغرافي حيث تدور حياة المواطنين ، و لكن الفضاء الرمزي ، و هو القانون الدستوري" [1].

و من خلال هذا ، نستنتج أن ، التهميش و الاقصاء اللذان يعاني منهما المغتربون اليوم يرجع و بالدرجة الأولى إلى منظومة القوانين التي تحتوي على تمييز عنصري و تميز المواطنين و تجعلهم على درجات مختلفة من الحقوق المدنية بالاضافة إلى اشكالية تطبيق هذه القوانين في الواقع السياسي.

و يثير باليبار مظهرين في هذه القضية، فالمظهر الأول و كما يعرفه علماء الاجتماع و الانثربولوجيون هو مثل حالة العلاقات الموجودة بين افريقيا الشمالية و فرنسا أو أوروبا بصفة عامة ، حيث يتواجد المغتربون باقامتهم و تقسيم العائلات بين عدة مناطق وطنية و الانتشار في الجيل الثاني " للإثنيات الجديدة " حسب العبارة المقترحة في بريطانيا العظمى من طرف ستيوارت هال * Stewart Hall و كل ذلك يؤدي إلى توقف جينيالوجي حقيقي . فالروابط بين الأجيال هي روابط مقطوعة أو جب أن تبقى دائمة و ابدية كانها " على ظهر حصان على الحدود " [2] ، و بمشاكل متزايدة ، إن مثل هذه الحالات في بعض المناطق ،حيث نجد المغتربين و هم أقلية لا زالوا يقاومون و ذلك بمراقبة جادة و صارمة لنظام تعليم أبنائهم و اختيار الأصدقاء و كذلك الزواج و المصاهرة ... ، فهي تريد كبت العنف الداخلي و الخارجي حيث تشكل مترل للإبداع الفني و الثقافي .

هذه الحالات لها معنى ، إذا وضعناها على علاقة بتقسيم الأعمار بين شعوب الشمال

---

[1] - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe, p 181 .
[2] - Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , p 47 .

- ستيوارت هال : Stewart hall : يعرف باسم واران ستيوارت Warren Stewart بني سنة 1948 و رمم سنة 1988 - 1990 ، هذا المبنى الضخم يحتوي على أقسام و محلات و كل وسائل الاتصال للطلبة و حتى تلفزيون – ستيديو و محطة إذاعية و قاعة للمحاضرات تحوى ألف مقعد فهو فضاء ثقافي واسع جدا . عن موقع الأنترنت: www.pointeclaire.ville.montreal.qc-ca/fr.

و الجنوب حيث أن الاقتصاديين اهتموا بها أكثر ، فالأمر لا يتعلق بكون الأنظمة المتميزة بنمو مواطنيها (ديموغرافي) تتصادف مع شروط الطبقة، كعدم تساوي المدخول ، نسبة الاستغلال ... و لكن بظهور اشكالية المنفعة و المصلحة بين الشعوب " الأكثر سنا " و التي تتمتع بمدخول مضمون و ضمان إجتماعي و حماية طبية و بين الشعوب " الأقل سنا " أو " الشابة " و التي تحتوي على نسبة كبيرة من البطالة و تتحمل على عاتقها المنافسة المتوحشة في سوق العمل يقول باليبار :" مثل هذه الملاحظات تقترح أن الخطوط الحدودية تعنى و بقوة و من اليوم فصاعدا بالتفريق بين المناطق " العمومية " و " الخاصة " من أجل تقويتها أو من أجل خلطها"[1] . فهذه التفرقة كانت تكوينية للسياسة ، على الأقل كانت في اطار الدولة – الأمة التقليدية و حتى و ان لم نتفطن إلى ذلك من قبل (فقط وجب الانصات إلى الخطاب الايديولوجي حول الامن و الحماية لقيم العائلة و سياسة العائلة) ، إن الدولة – الأمة خلقت نموذجا من الدستور للجنيالوجيا و تصفية الاشكالات الكامنة بين الاجيال مع نفس الدرجة لتلك البنيات الاجتماعية المدروسة من طرف الانثربولوجيا مثل القبيلة و الرابط الاقطاعي . فهذه الصفة ، تأكدت بصفة خاصة عندما تحولت الدولة إلى " دولة للحماية الاجتماعية " أو دولة وطنية و اجتماعية ، و هذا ما يؤدي إلى اقتراح انه عند وضع الوظيفة الاجتماعية للحدود، فإنها تتغير نحو وسط المدينة السياسية ، فتجسد التناقضات و الضغوطات التي تنقل العدوى للوظيفة و هذا ما يطرح بصفة متزايدة و واضحة إشكالية مدينة جديدة بمعنى علاقات جديدة بين الانتماءات : فمن الانتماء للعائلة إلى الجينيالوجيا، إلى المدينة الأولية و التي تكون وراثية من جهة ، إلى غاية المدن الثانوية (منها التي تتطلب تعلما و تأقلما مع المحيط الاجتماعي و بالمعنى التاريخي قابلة لكي تكون معاشة على شكل اختيار و تحرر) وصولا إلى المدينة السياسية من جهة أخرى [2] .

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , p 181 .
2 - Ibid, p 181 .

يرى باليبار ، أن مشاكل الانتماء توجد في كل مكان و هي مرتبطة بمشكلة أخرى: إنها تفرقة متصاعدة على طريقة أن الدولة تراقب مختلف السيولات مادية و لا مادية ، في حين أنه و من الناحية التقليدية ، كل شيء كان مركزا على نفس خطوط الحدود ، و هي آتية من نفس الادارة ، إذ نرى أن مسألة مراقبة حركات السلع ، الأموال و المعلومات من جهة و مراقبة " السيولة " و الاغتراب أو تنقلات الأشخاص من جهة أخرى ، كانا و بكل واقعية متميزان[1].

فالفكرة التي من خلالها ، يصحب العولمة نمو متواز لسيولات و تنقلات مادية و غير مادية و بشرية ، في حين أن المعلومة أصبحت و بصفة تطبيقية متواجدة في كل مكان، و أن تنقل السلع و تبادل النقود أصبح كله محررا ، إلا أن تنقل الأشخاص أصبح محدودا و بصفة ملحوظة ، يقول باليبار :" هذا الفارق يظهر أساسا في الدفاع عن " سيادة " الدول في المجال السياسي و الديبلوماسي العالمي ، إنها تسير بصفة إزدواجية مع تكثيف و زيادة لوظيفة التمييز و التفرقة الاجتماعية للحدود " [(2)] . فلقد سميت تلك الوظيفة للحدود أحيانا " بوظيفة الطبقة" في هذا العالم ، الذي من جهة المبادلات الاقتصادية و التواصلية هو الآن موحدا بصفة واسعة، و هو في حاجة متزايدة للحدود من أجل تقسيم الغنى و الفقر في مناطق وطنية مميزة، و حتى إلى حد بعيد الصحة و المرض و بصفة ثنائية و لكنها تطرح مشاكل صعبة بصفة تقنية ، و منه ، فدخول الفقراء إلى أوطان أكثر غناء وجب أن يكون مصفى و معدلا ، يقول باليبار في هذا الصدد :" و كذلك الحدود أصبحت قوانين اساسية في تكوين شروط إجتماعية على المستوى العالمي ، و ذلك باستعمال في هذا المنحى معيار جواز السفر أو بطاقة الهوية " [(3)].

و من خلال هذا ، فإن تساؤل باليبار حول الحدود من جانبها العالمي، حيث أن وظيفتها أصبحت أكثر من مناطق للعبور بصفة عادية، بل و بكل تأكيد هي مناطق الرقابة

---

[1] - Balibar Etienne , les Frontières de la démocratie , p 48 .
[(2)] - Balibar Etienne , nous Citoyens d'Europe , p 183 .
[(3)] - Ibid, p 184 .

و التمييز العنصري ما بعد الاستعماري و هي الآن على شكل نظام بوليسي يصفي الطبقات الشعبية المختلفة، الفقيرة و العاملة و المغتربة ... يقول المفكر نواريال Noiriel .G :" إنها ابتكرت على شكل وسيلة بوليسية داخلية في اطار تعديل " الطبقات الخطيرة " المكونة من فقراء و عمال " [1].

و من خلال ذلك ، يرى باليبار ، أنه يمكن اليوم التكلم عن آبارتايد عالمي ، جاء و بصفة متسلسلة من نظام الآبارتايد القديم الاستعماري و ما بعد الاستعماري ، رغم وجود تناقض صارخ بين الابارتايد و اشكال الدولة الوطنية الحديثة " الديمقراطية " و " الاجتماعية ": هذه الحالة ستؤدي بنا إلى وضعية لا يمكن تجنبها و لا مقاومتها، و منه يجب إما فسخ و بصفة كاملة الدولة الاجتماعية و المواطنة الاجتماعية، أو قطع و بصفة تطورية المواطنة عن تعريفها الوطني و ضمان الحقوق الاجتماعية التي لها صفة ما فوق – الوطني . و يتنبأ باليبار بأن هذا الآبارتايد الأوروبي سيشكل عائقا ضخما امام بناء أوروبا ، يقول في هذا الصدد :" إنها الحجة التي أعطيها قيمة خاصة حيث تظهر و في وضح النهار تلك المواجهة الجماعية و التطور الحالي لآبارتايد أوروبي حقيقي و هو يتزامن مع قوانين شكلية للمواطنة الاوروبية و مشكلا بهذا الواقع عنصرا تقريريا لعرقلة البناء الاوروبي على شكل بناء ديمقراطي " [2].

و منه نخلص إلى أن دمقرطة الحدود حيث تمثيلها يكون مقدسا و طريقة للدولة و الادارة التي تستعمل الأفراد للمراقبة متعددة الأوجه كما أن أشكال إجراءات العبور تصبح أكثر محترمة للحقوق الأساسية و في قلب المشاكل و الصعوبات – منها احتمال ظهور مشاكل دون مخرج – بإعادة خلق سياسة في إطار " العولمة " . إنها مهمة ، كما يرى باليبار ، لا يمكن مجابهتها إلا من فوق و من تحت و في آن واحد و ذلك في إطار مبدأ الحقوق و المصالح الشعبية

---

(1) - Noiriel , G , la Tyrannie Nationale , le droit d'asile en Europe 1793 – 1993 , ed , Calmann – lévy , 1991 , p 28 .

(2) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , p 190 .

و في هذا المعنى يقول باليبار :" إنها مشكلة عالمي – محلي " ، و إنه يمكن أن يكون أيضا أحد الأماكن المتميزة حيث العولمة تكون ذاتاوية ، أين تتشكل الفردانية العالمية " [1]. فإذا رجعنا إلى علاقة العالمي بالمحلي ، إصطدمنا بالعامل الاقتصادي الذي يشكل البنية الأساسية في هذا المجال ، فإذا كانت العولمة تعني توحيد الاقتصاد العالمي كبراديغم مثالي فإنها وصلت إلى نهايتها بسبب النتائج التي أدت إليها كالحروب اللاانسانية الواقعة حاليا في كل نقطة من نقاط كوكب الأرض، سواء كانت حروبا معلنة أو غير معلنة و كذلك الاشكالات الاقتصادية الخطيرة في معظم البلدان و تلك الثروات و الاحتجاجات و الاظطرابات الاجتماعية ضد اللامساواة و الظلم و في هذا المعنى كتب المفكر كوليب فيليب Golub Philip مقال عنوانه " المنعطف الكبير لواشنطن " يقول فيه :" إن العولمة في نهاية القرن العشرين ، و التي أخذت على شكل توحيد الاقتصاد العالمي حسب البراديغم الليبيرالي ، تبدو اليوم انها تقترب من نهايتها . فالمظاهر متعددة : حروب إمبريالية ، تصاعد الوطنيات ، إشكالات اقتصادية من أكثر فأكثر خطورة داخل النواة الرأسمالية و خارجها، هزات اجتماعية التي تنفجر في العالم أجمع ، هذا في سياق اللاتوازن البنيوي للاقتصاد العالمي و مضاعفة اللامساواة الاجتماعية داخل البلدان و فيما بين الدول " [2]، فما يهمنا أكثر في هذا النص ، هو ظاهرة تصاعد الوطنيات داخل الدول الراسمالية و منه فكيف نفسر زوال فكرة حدود الديمقراطية بين الدول الاوروبية فيما بينها و فيما بينها و بين الدول الأخرى كدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، في حين نشهد اليوم تصاعدا للوطنيات العنصرية من جديد؟!! فظهور الوطنية من جديد على الساحة الدولية مع ظهور نوع من الديمقراطية يسمى ديمقراطية الحدود فيما بين الوطنيات المختلفة يجعل الحدود تزداد و لا تنقص على المستوى العالي، جاء في المرجع ذاته :" على المستوى الاجتماعي ، فإن تصلب المقاومة الاجتماعية أمام امتحان " السوق الحرة " يترجم بالمرة بظهور حركة ديمقراطية

---

(1) - Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe, p 191 .
(2) - Golub Philip , le Grand Tournant de Washington , le Monde Diplomatique , n 616 , Juillet 2005 , p 01 .

عالمية لتحولات اجتماعية و بتصاعد الشعبوية المتسلطة لليمين . على مستوى سلطة الدولة، فإن رد الفعل الأكثر نطقا كان الرجوع المدهش للوطنية في الصين ، في روسيا ، في اليابان ، في أوروبا، و في غيرها . اما في الولايات المتحدة ، قلب النظام الرأسمالي العالمي ، فإن الوطنية أخذت على الخصوص شكلا لا يطاق : إنها الامبريالية " [1].

من خلال هذا النص يبرز مستويان: على المستوى الاجتماعي من خلال الحرب الاقتصادية المتوحشة التي تنهب العالم باسره و ظهور مقاومة اجتماعية شرسة و مضادة، أدى هذا الصراع إلى ظهور حركة ديمقراطية عالمية تدافع عن الاطار الاجتماعي و تحميه لكنها متزامنة مع ازدياد شعبية اليمين و اتساع رقعة سلطته.

أما على مستوى سلطة الدولة ، فإننا نلاحظ دورا تاريخيا راجعا لوطنيات سابقة كالصين و روسيا و اليابان و أوروبا وبعض دول امريكا اللاتينية مثل فنزويلا و كوبا و غيرها مما يعلن عن بداية حرب جديدة على المستوى السياسي العالمي و كذلك على المستوى الاقتصادي و الذي يمكن أن يغير من خارطة العالم السياسية بمعنى زوال الأحادية القطبية الحالية و بروز التعددية القطبية المتوازنة من جانبها الاقتصادي و السياسي و العسكري .

إن إعادة الوطنية في السياسة العالمية يعين لنا نهاية الفاصل الموسيقي الليبيرالي فيما بعد الحرب الباردة، فلقد ظن الكثير مع نهاية سنة 1980 ثم في سنة 1990 أنه ستظهر " مدينة عالمية" حيث سمحت الثورة الاعلامية بتضييق مجال الزمان و المكان و منه فالما بعد وطني لرأس المال بالاضافة إلى خلق مجالات انتاج أفقية عالمية كانت ستؤدي إلى إعادة توزيع سلطة القوى العمومية نحو الفاعلين الخواص و إلى اختفاء كما يقول المفكر كوليب:" الاختفاء التدريجي لدولة الاقليم العصري كمكان أولي للسلطة العالمية" [2].

و منه فهل نحن دخلنا في مرحلة ما بعد الحداثة حيث يعاد طرح معادلة الدولة – الأمة ؟

---

[1] - Golub Philip , le Grand Tournant de Washington , p 20

[2] - Ibid, p 20 .

يرى المفكر كوليب أن ذلك لا يكون إلا بثنائية المجتمع المدني القوي بسلطته و بأسواق معولمة حرة إذ يقول :" إن المنظرين الليبيراليين الديمقراطيين قدروا أننا دخلنا من الآن في مرحلة ما بعد – الحداثة حيث أعيد طرح مفهوم الدولة – الأمة بطريقة ثنائية : فمن الأسفل ، بواسطة مجتمع مدني قوي بسلطة جديدة، و من الفوق ، بواسطة اسواق معولمة حرة "[1]. إن مرحلة ما بعد الحداثة ، أعطت خطابا جديدا على مستوى المفاهيم في حقل السياسة العالمية، فمن مرحلة الاستقلال التي خلقت من طرف الأسواق العالمية و الفاعلين فيها إلى ما بعد الوطنيين، اين تكبح دوافع الحرب الدولية للدولة – الأمة العصرية، بمعنى السلطة المؤسسة على الاقتناع و التي تخلف السلطة المؤسسة على القوة [2] .

إن التفكير الليبيرالي الديمقراطي يجمع رجال القانون حيث يطالبون بشراكة ما بين – دولية و المدعمة بالاقتصاديين المسالمين من أجل الوصول إلى التبعية المتبادلة و وحدة الهدف الاقتصادي بغية تأسيس سلام ديمقراطي دائم ، يقول الفيلسوف الألماني هابرمازيورغن Habermas jurgen :" في المحاولة الاجتماعية الديمقراطية ، نظن اننا سنشهد ظهور نجم ملائم لقوى قادرة على تحقيق المشروع أخيرا، الآتية من عهد الأنوار ، من سلام كانطي مؤسس على تصور كوسموسياسي للحق متعاليا على الحق العالمي " [3].

إن هذا السلام الكانطي المتعالي على الحق العالمي، يبدو أنه أصبح اليوم حلما، إذا ما تمعنا في السياسة الأمريكية العالمية و نوع الديمقراطية التي تريد أن تجعلها نموذجا أمريكيا خالصا، فهي ليس لها إلا معيار القوة مهما كان نوعها، قانونية أو اقتصادية أو عسكرية لأن أمريكا اختارت هدم النظام القانوني العالمي، يقول هوفمان ستانلي Hoffman .S: **" الولايات المتحدة تريد إما الرجوع إلى ما قبل سنة 1914 (...) أو تعتبر نفسها على شكل الحارس الذي يحمي النظام العالمي، تاركة الدول الأخرى تحمل ضغوطاتها الحالية و ذلك بأخذ احتياطات**

---

(1) - Golub Philip , le Grand Tournant de Washington, p 20 .
2- Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe, p 50 .
(3) - Habermas JURGEN , la Paix Perpétuelle , Traduction Rainer Rochlitz , ed . du cerf , Paris , 1996 , p 47 .

الحـــق في اختيار ما بين الضغوطات للحق و القوانين العالمية و التي تخدم مصالحها و رمـــي كل القوانين الأخرى " [1].

فعلا ، نحن نتفق مع هذا الرأي حيث أن الولايات المتحدة تفرض وجهة نظرها السياسية العالمية بالقوة و بالقانون و بأية وسيلة أخرى و تريد خلق " عالم مؤدب " فكانها الاستاذ و بقية الدول تلاميذ تلقنهم دروسا في الديمقراطية و العدالة و حقوق الانسان، و تؤدبهم كلمـــا بـــرز عنصرا يضـــايقها ، تقـــول وزيـــرة الخارجيـــة الأمريكيـــة الســـيدة رايـــس كونـــدوليزا M^me Rice Condoleeza :" **و بالعكس ، فإن إدارة " بوش " لم يكن لـــديها إلا هـــدفا واحدا، منذ أن نصبت، و هو " تقوية السلطة بالقوة " للبلد و تعبئة القـــوى العســـكرية الأمريكية حتى إحلال نظام عالمي " مؤدب " تحت رقابة أحادية سياسية . إن معسكر قـــوى التحالف مع جورج ولكر بوش ، كانت له النية للتحرر من مجتمـــع دولي وهمـــي و رمـــي البراديغم الليبيرالي و ذلك بالتخلي عن السياسة العالمية المترددة لسنوات 1990 من اجـــل الوطنية، القوة و الحرب"**[2].

و إذا عدنا لموضوع ارتباط الديمقراطية بالحدود السياسية العالمية، فيجب أن لا نطـــرح السؤال التقليدي : ما هي الديمقراطية؟ بل وجب اليوم أن نغير السؤال كالاتي : مـــاذا تفعـــل الديمقراطية اليوم ؟ بمعنى آخر كيف تشتغل ؟ و إلى أي حد ؟ و ما هـــي الشـــروط الحاليـــة لفعاليتها؟ إن هذه الأسئلة لها مصداقيتها اليوم، على ضوء ما يحدث في العالم، من اقتتال باســـم الديمقراطية، بل ما يحدث من دمار شامل على المستوى الأمني و الاقتصادي و الاجتماعي لكي تحمى الديمقراطية و من جهة أخرى ما يحدث من تمييز عنصري جديد بمقيـــاس أنثربولـــوجي ثقافي، يقول كارسانتي برونو Karsenti . B :" **ماذا تفعل الديمقراطية ، آخر كتاب لإيتيـــان باليبار ، ليس له فحسب التقدير لطرح ما سماه فوكو " السؤال الأمبريقي الصـــغير "**

---

(1) - Hoffman Stanley , America Goes Back – Word , Traduction Golub Philip , New York Review of Books , 2003 , p 12 .

(2) - Golub Philip , le Grand Tournant de Washington, p 21 .

و لكن على الأخص إعطاؤه شهرة مميزة ، ليس بتعميم الاستحقاق بتحضيره التدريجي على شكل مبدأ و لكن يجعله يتجول لمستويات مختلفة، و ذلك بتغيير تطبيقاته مع ريتم التقديرات المحلية حيث أن الفرق إذا لم نتركه على سلسلة حسب مبدأ تبرير خطي، ينتج إذن ظـــاهرة صدى تعطى في مجموعها وحدته الحقيقية " [1].

من خلال هذا النص الذي تكلم فيه كارسانتي عن كتاب باليبار " حدود الديمقراطية "، أشار إلى تطبيقات ما جاء في هذا المؤلف مع ريتم التقديرات المحلية بمعنى في المجتمـــع الاوروبي و منه نتساءل : ماذا تفعل الديمقراطية اليوم في المجتمع السياسي الاوروبي؟

إنها تعطي تقدما واضحا للعنصرية بوجهيها الاجتماعي و السياسي لكي تستولي علـــى السلطة السياسية لأن العنصرية اليوم موجودة في السلطة باسم الديمقراطية و منه وجب أن نفهم في هذا الصدد، الضرورة الوظيفية لظاهرة الطرد في مجالها السوسيوسياسي حيث أن العنصـــرية هي تعبير عن كره أعمى راجع للأجداد و منه ظهرت حركات العنصرية ضد المغتربين يقـــول كارسانتي :" عند هذا الحد ، في عبارة " العنصرية ضد – المغتربين " ، يجـــب تغـــيير نظـــام التحديد، فهم أنه حسب المواصفات الخاصة لموضوعه و على الأساس مكانته الاستراتيجية التي يحتلها في المجال الاجتماعي حيث تتحدد العنصرية الجديدة " [2].

من خلال هذا النص ، تبدو أن دعوة كارسانتي إلى وجوب تغيير نظام التحديد، لقـــت صداها عند السيد تاكياف Taguieff.P.A الذي لا يفترض فقـــط فســـخ شـــفرة الخطـــاب العنصري المعاصر و ذلك بإظهار شكله الخـــاص و الـــذي لا يســـتند فقـــط إلى المعطيـــات الشبه – بيولوجية و لكنه خطابا يتأنسن بإستعمال رنات ثقافية إختلافية .

---

(1) - Karsenti Bruno , la politique de la Démocratie à Propos de " Frontières de la Démocratie ", Internet , 11/04/05 , p1 sur 4 .
(2) - Ibid, p 2 sur 4 .

الخاتمة

نخلص من هذا البحث الاكاديمي المتواضع، إن أعمال و بحوث ، باليبار ايتيان الفلسفية السياسية حول موضوع الديمقراطية تتمركز على اشكالية الممارسة الديمقراطية في الواقع السياسي للشعوب بدلا من أن تتركز على البحث الفلسفي النظري في مفهوم الديمقراطية و هذا البحث نراه بالاهمية البالغة اليوم على المستوى السياسي الاوروبي على الخصوص و العالمي على العموم.

و منه ، فإننا ننتهي إلى ثلاث ميزات أساسية للبحث من خلال الموقف الفلسفي السياسي من مشكلة الديمقراطية.

أولا : من ناحية الموضوع

مشكلة الديمقراطية لا تكمن في مفهومها النظري الفلسفي بقدر ما تكمن في ممارستها على أرض واقع الشعوب في أوروبا و في بقية العالم، فعوضا أن نبحث ماهية الديمقراطية ، يجب أن نبحث فيما تفعله الديمقراطية اليوم ؟! و من خلال هذا الطرح، نجد عدة مشكلات جزئية تتصل بالمشكلة الأصل و التي هي : حدود الديمقراطية و هي مشكلات هامة :

1- مشكلة زوال الدولة و نهاية السياسة من منظور فلسفي ماركسي باعتبار أن باليبار ينتمي للتيار الماركسي – كونه أحد تلامذة آلتوسير لويس و شارك معه في تأليف كتاب قراءة رأس المال و اعمال فلسفية أخرى و هذه المشكلة طرحها باليبار من زاوية جدلية العلاقة بين الممارسة السياسية و البنية الاقتصادية باعتبارها من اقوى البنيات في الممارسة الديمقراطية اليوم.

و هذه المشكلة هي من الجانب النظري الفلسفي و اذا اسقطناها على الجانب التاريخي ، نجد أنه بعد سقوط المعسكر الشيوعي وقعت تغيرات هامة على المستوى السياسي العالمي – خاصة في اوروبا الشرقية –حيث تم اعادة النظر في بعض المفاهيم السياسية كمفهوم الديمقراطية و مفهوم الدولة الحديثة و التوازن العالمي السياسي و الاقتصادي و منه بروز النظام العالمي

الجديد بالحاح ثم مفهوم العولمة و دخول أوروبا إلى عهد جديد من الممارسة السياسية و الاقتصادية .

و بالاضافة إلى ذلك ظهور موقف فلسفي متشائم يتكلم عن مصير الانسان و لكن من زاوية العدمية فمن نهاية الشيوعية إلى نهاية السياسة الى نهاية التاريخ!!!

2- مشكلة حدود الديمقراطية ، الحدود الداخلية و الحدود الخارجية للديمقراطية حيث أن الحدود انتقلت في الممارسة السياسية – و الرقابة منها على الخصوص – من الحافة إلى وسط المجتمع السياسي بمعنى أنها انتقلت من الفضاء الجيوسياسي إلى المستوى السياسي الثقافي مما أدى إلى ظهور ظواهر سياسية خطيرة تهدد الأمن القومي ، منها التمييز العنصري الجديد و الآبارتايد الزاحف بتعبير باليبار حيث اصبح المواطن الاوروبي – من اصول أجنبية – يلحق بالرعية ! كما ظهر تصنيف المواطنين إلى : متوحش و متمدن ، ما دون الانسان و انسان بامتياز ، المواطن و اللامواطن .. هذا ما يحيل إلى مشكلة مؤسسة القانون التي تحتوي ضمنيا على التمييز العنصري غير المراقب و التي تفتح المجال أمام الممارسات العنصرية الرهيبة و التي تضرب عرض الحائط المبادئ الديمقراطية التي كانت تتبناها أوروبا في وقت قريب.

3- مشكلة جدلية العلاقة بين السياسة و ما يشكله اليوم مفهوم العالم أو بعبارة اخرى فعل العولمة في السياسة و علاقة ذلك بالممارسة الديمقراطية في العالم من خلال الرعب الاقتصادي الذي يبتلع كل الحقوق السياسية للمواطنين ، خاصة منهم المغتربين في المجتمعات الاوروبية ، بالاضافة إلى عودة الاستعمار المكبوت مثلما يظهر عند اللجوء إلى اثارة مشاكل الوطنية و المحلية و الأصولية الدينية ، و لجوء بعض الدول الاوروبية إلى التدخل في الشؤون الداخلية – السياسية و الاقتصادية – لبعض دول الجنوب .

ثانيا : من ناحية المنهج

إن الدارس لفلسفة باليبار السياسية ، يجده مولعا باعتماد المنهج الجدلي في التعاطي مع اشكالية الديمقراطية و ذلك بخلفية فلسفية ماركسية ، حيث يبدأ في طرح مقابلة دياليكتيكية بين ممارسة السياسة و زوال السياسة من خلال جدلية العلاقة بين الدولة و اللادولة على اعتبار علاقة جهاز الدولة بسلطة الدولة و منه طرح مشكلة مصير الانسان و الديمقراطية بعد سقوط المعسكر الشيوعي و ما إنجر عنه من ثورات و إحلال لأنظمة جديدة و حوادث تاريخية كسقوط حائط برلين و ظهور تكتلات سياسية جديدة في اوروبا على الخصوص – مثل اتفاقية شانغن و الاتحاد الاوروبي و يؤكد باليبار ، طرحه الجدلي في مسالة حدود الديمقراطية في الواقع السياسي الأوروبي حيث انتقلت الحدود من الفضاء الجيوسياسي إلى الفضاء السياسي الثقافي و ما إنجر عنه من بروز مفاهيم سياسية متضادة مثل : المواطن و الرعية (Citoyen ≠ Sujet) ، أو المواطن و اللامواطن ، الحياة و اللاحياة ، الدولة و اللادولة، ممارسة و نهاية السياسة ، العالمي و المحلي ، إشكالية العلاقة بين المواطنة و الهوية أو الهويات على اعتبار الخليط الجينيالوجي و ما يصحبه من إشكالات ثقافية إنتوغرافية بالاضافة إلى كل ذلك إعتبار أوروبا ككل حدودا غير مفكرة للديمقراطية و منه طرح إشكالية المشروع الأوروبي و الاستعمار الجديد و خلق مفهوم اللااستعمار المحلي ؟!... الخ

كما نجد لجوء باليبار إلى التركيب حيث يركب بين مفاهيم متضادة لخلق مفهوم جديد مثل التركيب بين العالمي و المحلي بمفهوم عالمي – محلي و التركيب بين مفهوم الحرية و المساواة بمفهوم المساواة – الحرية ... الخ و هذا يدل على تلك الخلفية الماركسية في منهج إتيبان باليبار.

من ناحية النتائج :

توصل باليبار ايتيان إلى نتائج تتعلق بالممارسة الديمقراطية في واقع الشعوب و تتركز

أساسا على المجتمع الاوروبي ، و يمكن تعميمها على بقية المجتمعات لأن الموضوع يتعلق بالكائن الانسان السياسي بالاضافة إلى أن موضوع الديمقراطية هاجس لكل الشعوب اليوم .

و من هذه النتائج الهامة ، نركز خصوصا على ما يلي :

1- زوال المعسكر الشيوعي كواقع سياسي و كحقيقة تاريخية لا يعني بالضرورة زوال الشيوعية كمبدأ سياسي و كإديولوجية مثلما أكده المفكر سيف لوسيان Séve Lucien عندما تكلم عن النفس الثاني للشيوعية و مثلما نادى لويس آلتوسير بضرورة وجود شيوعية خارج الدولة و كذلك تعبير آلان باديو Alain Badiou الشيوعية تشكل اطارا ذاتيا متعاليا للحداثة و منه نخلص إلى مبدأ الشيوعية لا يزال قائما باعتبار مبدأ يفرض نفسه على مستوى المفهوم الفلسفي كما أنه يتعالى عن الزمكانية بالاضافة إلى ثبات دول تتبنى الشيوعية كمبدأ مثل كوبا و الصين و ذلك على الرغم من خطورة نظام العولمة الاقتصادي و السياسي.

2- إشكالية مفهوم الديمقراطية :

عند باليبار ، مشكلة الديمقراطية لا تكمن أساسا في البحث عن مفهومها الفلسفي النظري و إنما تكمن أساسا في مستوى ممارستها في الواقع السياسي بمعنى لا يجب أن نطرح السؤال الآتي :

ما هو مفهوم الديمقراطية ؟ و لكن يجب أن نطرح السؤال الآتي : ماذا تفعل الديمقراطية اليوم ؟ بمعنى أن هذا السؤال يحيل بالضرورة إلى إشكالية حدود الديمقراطية ؟ !

و لما نبحث في هذا الاطار ، نتوصل مع باليبار إلى تلك النتائج الخطيرة التي تمارس في الواقع السياسي بإسم الديمقراطية نذكر منها : ظهور العنصرية الجديدة و الآبارتايد الزاحف في أوروبا ، إنتقال الحدود من الفضاء الجيوسياسي إلى الفضاء السياسي على حدود فضاء شانغن و ظهور حرب الحدود التي تقع في صمت رهيب.

3- ظهور إشكالية المواطنة في علاقتها بمشكلة الهوية على اعتبار أنه لا توجد هوية صافية مثلما رافع عن ذلك الفيلسوف الألماني فخته يوهان غوتليب في الحدود الداخلية للديمقراطية ، و إنما نلاحظ وجود هويات في المجتمع الأوروبي من خلال الخليط الذي لا يبقى فقط على المستوى البيولوجي و إنما يتجاوزه إلى المستوى الثقافي الانتوغرافي و منه تظهر إشكاليتان :

1- إشكالية تأقلم هؤلاء " الرعايا " مع المجتمع الأوروبي و ثقافته التمييزية العنصرية مما يؤدي إلى بروز موجات من العنف من حين لآخر داخل المجتمعات الاوروبية نفسها.

2- إشكالية مستقبل هؤلاء " الرعايا " في الحفاظ على تنوعهم الثقافي في ظل عالم تتسارع وتيرته الثقافية و الفكرية و التكنولوجية تحت رحمة نظام العولمة و لهذه الأسباب ، يقترح باليبار ، حلولا يراها مناسبة للممارسة الديمقراطية الحقيقية و مخففة من حدة الصراع و الإجرام و العنف الذي ظهر في الواقع السياسي اليوم و هي على الأساس :

- **دمقرطة الحدود** و يعني بها وجوب اللجوء إلى دمقرطة بعض الشروط اللاديمقراطية للديمقراطية في حد ذاتها و هذه الشروط تقف عائقا اليوم بين الشعب و سيادته النظرية و لا يمكن تجاوز ذلك عند باليبار ، إلا بإعادة ذوبان راديكالي للعلاقات بين الشعب و السيادة ، بين المواطنة و المواطن و منه اللجوء إلى خلق تصور جديد للدولة الحديثة التي تتبنى المشروع الديمقراطي .

بالاضافة إلى هذا ، يؤكد باليبار ، أن هذا المشروع لن يتحقق إلا بمعادلة المساواة- الحرية لأنه لا حرية دون مساواة و العكس صحيح و هذا يجرنا إلى القضاء على فكرة ما بعد الاستعمار و فكرة الاستعمار الجديد و هي خلفية سياسية لا شعورية لا تزال قائمة اليوم في المجتمع الاوروبي تجاه شعوب دول الجنوب ، فالمجتمع الاوروبي لا يزال يعتبر نفسه وصيا

على هذه الشعوب و يعتبرها لم تنضج بعد سياسيا و غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها و لذلك تبقى التدخلات السياسية و الاقتصادية في شؤون تلك الدول الضعيفة قائمة إلى حد اليوم .

و من جانب آخر ، لا تزال فكرة الاستعمار الجديد قائمة داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها ، حيث يظهر التمييز العنصري ضد الرعايا الاوروبيين و هم " مواطنون " أوروبيون من أصول أجنبية و لذلك ينادي باليبار بضرورة قيام أوروبا بإجراء اللااستعمار المحلي من خلال إعادة النظر في المؤسسات القانونية التي تشجع بطريقة أو بأخرى على الممارسات اللاديمقراطية داخل المجتمع الأوروبي .

إن العالم انتقل من ثنائية قطبية إلى أحادية قطبية و لكن على اعتبار ميزان القوى العالمية اليوم و بظهور منافسة أخرى من دول آسيا و الصين و أمريكا اللاتينية ، فإننا نعتقد أنه ستكون مستقبلا ، قطبية متعددة مما سيؤدي إلى إعادة النظر في الخارطة السياسية للعالم الذي أصبح يسير في منوال عالم دون حدود بحكم نظام العولمة التكنولوجي .

فهارس البحث

فهرس المصطلحات

Apartheid rampant	الآبارتايد الزاحف
Aufklarung	عصر الأنوار
Antisystemique	المعادية للأنظمة السياسية
à cheval sur la frontière	على ظهر حصان على الحدود
Cristallisé	تكمكم
Cosmo politique	الكوسمو سياسي او العالمية السياسية
Cosmopolite	إنسان سياسي عالمي
Décrypter	فسخ شفرة
Décolonisation à domicile	عملية اللااستعمار المحلي
Egaliberté	المساواة – الحرية
Ein reech des rechts der vernunft und der wahrheit	مملكة الحقوق و العقل و الحقيقة
Europeanité	الأوروبانية
Fonctionnarisme	الوظائفية
Ghettos	الغيتوهات
Glocal = global + local	عالمي – محلي
Historiciste	تاريخاني
Hétérogénéité et ubiquité des frontieres	تنوع و عمومية الحدود
Hégémonie monopolaire	سيطرة أحادية القطبية
Kulturnation	الوحدة و هي غير مرمئية
Le politique	السياسي
L'intemporalité de l'utopie	لا زمانية اليوتوبيا
Méta – Discours	ما بعد الخطاب
Non – etat	اللادولة

Nihilisme	العدمية
Normalité politique	عادية سياسية
Nationalerziebung	تربية وطنية
Non – Citoyen	اللامواطن
New Ethnicities	الإثنيات الجديدة
Néo – Colonialisme	الاستعمار الجديد
Nomadisme	الجوّالة
Polyséme des frontieres	تعددية المعنى للحدود
Pseudo – biologique	شبه – بيولوجية
Post national	ما بعد الوطني
Parlementarisme	البرلمانية
Post – Colonialisme	ما بعد الاستعماري
Romanisation	الرومنة
Surdetermination	تضييق معنى الحدود بحكم مجالها
Sujet ≠ citoyen	الرعية ≠ المواطن
Super – frontières	الحدود الفائقة
Stamm	قبائل
Super puissance	القوى الفائقة
Subjectivation	ذاتاوية
S'humanise	يتأنس
Trans – National	ما فوق الوطني
Transfrontières	ما فوق الحدود أو ما بعد الحدود
Urbild	مثل
Urvolk	وحدة العرق و الاصل للشعب
Ursprache	وحدة الاصل للغة

قائمة

المصادر و المراجع

I – قائمة المصادر باللغة الفرنسية : Œuvres Principaux

1. Balibar Etienne , cinq études du matérialisme historique , éd : Maspero, Paris , 1974 .
2. Balibar Etienne , les frontières de la démocratie , ed . la découverte , Paris, 1992 .
3. Balibar Etienne , la crainte des masses , éd . galilée. Paris, 1997.
4. Balibar Etienne , Nous Citoyens d'Europe , ed . la découverte, Paris , 2001.
5. Balibar Etienne, droit de cité, éd . de l'aube ,Paris , 2002.
6. Balibar Etienne, l'Europe , l'Amérique , la Guerre, éd. la découverte , Paris , 2003 .

قائمة المراجع باللغة العربية :

1- التوسير لويس ، الفلسفة و فلسفة العلماء العفوية، ترجمة رضا الزواوي ، منشـــورات دار العيون ، بانونغ ، الدار البيضاء ، الطبعة الثالثة ، 1979.

2- ألتوسير لويس ، من أجل ماركس ، ترجمة رضا الـــزواوي ، منشـــورات دار العيـــون ، باندونغ ، الدار البيضاء ، الطبعة الثالثة ، 1980 .

3- باشلار غاستون ، تكوين العقل العلمي ، ترجمة د . خليل أحمد خليل ، المؤسسة الجامعية لدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1986 .

4- بلجر جون، أسياد العالم الجدد، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003.

5- بولتيزر جورج و بيرس ريحي و كاقين موريس ، أصول الفلسفة الماركسية ، ترجمة شـــعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، الجزء الثاني .

6- زكريا إبراهيم ، مشكلة البنية ، مكتبة القاهرة ، مصر .

7- سبيلا محمد ، للسياسة بالسياسة ، في التشريح السياسي ، دار إفريقيا للشـــرق، بـــيروت، لبنان، 2000 .

8- ستراوس كلود ليفي ، الفكر البري ، ترجمة د . نظير جاهل ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1987 .

9- عبد الرزاق علي ، الاسلام و اصول الحكم ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغايـــة ، الجزائر ، 1988.

10- قباري محمد إسماعيل ، علم الاجتماع و الفلسفة ، دار المعارف الجامعية ، الاسكندرية، مصر ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول .

11- كارل ماركس، بؤس الفلسفة،ترجمة أندريه يازجي ،دار اليقظة العربيـــة و دار مكتبـــة الحياة ،سورية – لبنان ،الطبعة الثانية،1967.

12- كروزويل إديت ، عصر البنيوية ، ترجمة جابر عصفور ، مكتبة مصر.

13- لينين ، الدولة و الثورة ، المطبوعات الاجتماعية ، باريس ، 1947.

14- محمد علي محمد ، المفكرون الاجتماعيون ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1982.

15- محمد عبد العزيز الخولي، كتاب الأدب النبوي ، تحقيق عبد المجيـــد طعمـــه الحلـــبي، دار المعرفة، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، 2000 .

قائمة المراجع باللغة الفرنسية :

1- Alessandro dal lago et sandro Mezzadra , les frontières impensées de l'Europe , éd . Manifistolibri , Rome , 2002.
2- Althusser Louis , lénine et la philosophie , éd . Maspero, Paris, 1969.
3- Althusser Louis , lire le capital , éd . Maspero , Paris , 1968.
4- Althusser Louis ,Pour Marx , éd . Maspero , Paris , 1965.
5- Anderson P,sur Gramsci,Français Maspero ,paris,1978.
6- Arnaud Lionel , Les minorités ethniques dans l'union européenne, éd . La decouverte , Paris , 2005 .
7- Besnier J – M , histoire de la philosophie moderne et contemporaire , éd . Grasset , Paris , 1993.
8- Defarges Philippe Moreau , que peut l'union européenne in le pouvoir , éd . sciences humaines , Paris , 2002 .
9- Derrida jack , invention de l'autre , ed . Galilée , Paris , 1987.
10- Droz . j . le Romantisme Allemand et l'Etat, ed . Payot , Paris , 1966 .
11- Ferry . L et Renault , A , fichte , Machiavel , éd . Payot , Paris , 1981 .
12- Fichte , y g , Reden an die deutsche nation , discours 13 éme 1807 – 1808 .
13- Fichte , Discours à la nation allemande , 1808 , traduction : Droz . j .
14- Furet François,penser la révolution française,ed.Gallimard Paris, 1978.
15- Fougeyrolas , pierre , la nation , essor et déclin des sociétés modernes , ed . Fayard , Paris , 1987.
16- Foucault Michel , les mots et les choses , éd . Gallimard , Paris, 1966.
17- Fredrich Engels,Anti-Dühring,1878,trad.Balibar Etienne.
18- Green André , la folie privée : psychanalyse des cas limites , ed. Gallimard , Paris , 1990.
19- Habermas Jurgen , la paix perpétuelle , traduction : Rainer Rochlitz , ed . du cerf , Paris, 1996.
20- Hannah Arendt , qu'est ce que la politique , ed . du seuil, Paris , 1995.

21- Hoffman Stanley , le nouveau systeme mondial , in le pouvoir, éd . sciences humaines , Paris , 2002.
22- Jean – Claude Ruano – borbalan et bruno choc , le pouvoir , éd. sciences humaines , 2002 .
23- Karl Marx et Fredrich Engels,le manifeste du parti communiste,trad.Robert Mandrou,ed.Union Générale d'Editions,Paris, 1974.
24- Morin Edgar , Introduction à une philosophie de l'homme , éd . du seuil , Paris , 1965 .
25- Mudry Thierry , guerre de religions dans les balkans , éd . eclypes , Paris , 2005.
26- Nancy , j – L , le Sens du monde , éd . Galilée , Paris , 1993 .
27- Noiriel . G , la tyrannie nationale : le droit d'asile en europe 1793 – 1993 , éd . Calmann – levy , Paris , 1991.
28- Parijs Van , qu'est ce qu'une société juste ? éd . du seuil, Paris , 1991 .
29- Séve Lucien , communisme : quel second souffle! , éd . Messidor , Paris , 1990.
30- Senarclens P , l'humanité en catastrophe , éd . Presses de sciences politiques , Paris , 1999 .
31- Todd Emmanuel , après l'empire , éd . Gallimard , Paris, 2002.
32- Wallerstein . I , impenser la science sociale , éd . PUF , Paris , 1995 .
33- Zeigler Jean , l'empire de la honte , éd . fayard , Paris , 2005 .

المراجع بالانجليزية :

1- Bertrand Russell , power : a new social anlysis , G , allen , and un win , L.T.D. london , 1938 .
2- Hoffman Stanley , America goes back – ward , trad . golub Philip, new york review of books , 2003 .
3- Vobruba George , the limits of borders , ed . in abram de swann, Amsterdam , 1994 .

القواميس و المناجد باللغة العربية :

1- بدوي عبد الرحمن ، الموسوعة الفلسفية ، المؤسسة العربية للدراسة و النشر ، الطبعة الأولى ، 1984 ، الجزء الأول و الثاني .

2- طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، 1997 .

3- عبد المنعم الحنفي ، الموسوعة الفلسفية ، دار المعارف للطباعة و النشر ، تـــونس ، 1992 .

- قائمة القواميس و المناجد باللغة الفرنسية :

1- Derrida Jack , dictionnaire philosophique , ed . de l'aube , Paris , 1992 .
2- Dominique et Michele Frémy , quid 1996 , ed . Robert , laffond , Paris , 1996 .
3- Gay Merlat , dictionnaire , francais – allemand , ed . la fléche , Paris , juin 2001.
4- Lalande André , vocabulaire technique et critique de la philosophie , ed . PUF , 18 eme edition , Paris , 1996.
5- le Dictionnaire du Francais , ed . Hachette , ENAG , 1992.
6- Marie – Héléne corréard and Valerie Grundy , le dictionnaire Hachette – Oxford , anglais – francais , Oxford , New York , Torono , Oxford University Press , 1994 .
7- Philippe Raynaud et Stéphane Rials , dictionnaire de philosophie politique , ed . PUF , Paris , 1996 .

المجلات و الجرائد و الدوريات باللغة الفرنسية :

1- Balibar Etienne , critique internationale , n^{0}18 , janvier 2003 .
2- Bayard Jean Francois , critique internationale , n^{0}18, janvier 2003 .
3- Colas Dominique in magazine litteraire : le marx de bourdieu de la contimité à la rupture , n^{0}369 , octobre 1998 .
4- De Brie Christian , la revolution par le droit , le monde diplomatique , n^{0}616 , juillet 2005 .
5- Derens Jean Arnault , les mémoires de l'innovation démocratique, le Monde diplomatique , n^{0}616 , juillet 2005 .
6- Dollé Jean Paul in magazine littéraire : Louis Althusser , penser la conjoncture , n^{0}380 , octobre 1999 .
7- Golub Philip S , le grand tournant de washington , le Monde diplomatique , n^{0}616 , juillet 2005.
8- Goytisolo Juan , un nouveau mur de la honte : les boucs émissaires de l'Espagne européenne , le Monde diplomatique , octobre 1992 .
9- Interview , journal le monde , 18 mai 1972 .
10- Labica Georges , le communisme enfin possible ? in mensuel , marxisme , mouvement , n^{0}36 , mars – avril , 1990 .
11- Magazine Paris – match , n^0 2929 , juillet 2004 .
12- Truong Nicolas , la honte , le Monde diplomatique , n^0 616 , juillet 2005.

Internet الأنترنات

1- Acceuil Bastion , la démocratie est en danger , n^{0}74 , octobre 2003 , du 09/04/2005.
2- Dacheux Jean – Pierre , les frontieres tsiganes de l'Europe, octobre 2003 .
3- Fichte , Discours à la nation allemande , 1807 – 1808 , unité allemande , du 09/04/2005 .
4- Johann Gollieb Fichte , sa vie , son temps , 2005 .
5- Encyclopedia , le communisme , n^{0}1102 , du 11/04/2005 .
6- Karsenti Bruno , la politique de la démocratie , du 30 aout 2004.
7- Karsenti Bruno , la politique de la démocratie , à propos de " frontieres de la démocratie " du 11/04/2005.
8- Masschalk Marc , fichte et la question nationale , toudi , n^{0}15 , décembre 1998 .
9- Panella à Prodi , les frontieres de L'Europe , Association radicale de Belgique du 11/04/2005 .
10- Pointeclaire.ville.montreal.qc-ca/fr.
11- The Internet Encyclopedia of Philosophy , addresses to the German nation , A.G.N. du 09/04/2005.
12- www.tlfq.ulaval.ca/axl.
13- www.audencia.com
14- www.edition-fayard.fr
15- www.wikipedia.org
16- Pointeclaire.ville.montreal.qc-ca/fr.
17- www.humanite.presse.fr.
18- www.egs.edu.

فهرس الموضوعات

المقدمة 1
الفصل الأول : *الماركسية و الممارسة السياسية* 8
المبحث الأول : الجدلية السياسية عند باليبار 9
المطلب الأول : جدلية العلاقة بين الدولة و اللادولة 9
المطلب الثاني : جدلية ممارسة و نهاية السياسة 18
المبحث الثاني : الديمقراطية في مرحلة ما بعد الشيوعية في اوروبا..... 28
المطلب الأول : تاريخية إندثار الشيوعية في أوروبا 28
المطلب الثاني : إشكالية زوال الشيوعية..... 35
الفصل الثاني : *حدود الديمقراطية عند إيتيان باليبار*..... 43
المبحث الأول : ما معنى فكرة حدود الديمقراطية ؟ 44
المطلب الأول : إشكالية مفهوم حدود الديمقراطية..... 44
المطلب الثاني : مظاهر حدود الديمقراطية 49
المبحث الثاني : الحدود الداخلية للديمقراطية : خطابات فختة نموذجا 56
المطلب الأول : فخته و موقعه من الحدود الداخلية للديمقراطية..... 56
المطلب الثاني : الحدود الداخلية و الكوسموسياسي..... 70
الفصل الثالث : *إشكالية حدود الديمقراطية عند باليبار ايتيان*..... 87
المبحث الأول : الحدود غير المفكرة للديمقراطية 89
المطلب الأول : إشكالية العلاقة بين الاغتراب و الديمقراطية 89
المطلب الثاني : جدلية العلاقة بين الديمقراطية و حرب الحدود 98
المبحث الثاني : حدود العالم و حدود السياسة 122
المطلب الأول : جدلية العلاقة بين السياسة و العولمة الاقتصادية 122
المطلب الثاني : العولمة و حدود الديمقراطية 137

الخاتمة 152
فهرس المصطلحات 159
قائمة المصادر و المراجع 162
فهرس الموضوعات 170